خلاصة الفكر الأوربي

سلسلة الفلاسفة

نيتشه

عبد الرحمن بدوي

الطبعة الخامسة

١٩٧٥

الناشر
وكالة المطبوعات
٢٧ شارع فهد السالم - الكويت

نيتشه

مؤلفات
الدكتور عبد الرحمن بدوى

(ا) مبتكرات

١ ـ الزمان الوجودى
٢ ـ هموم الشباب
٣ ـ مرآة نفسى (ديوان شعر)
٤ ـ الحور والنور
٥ ـ نشيد الغريب (شعر)
٦ ـ هل يمكن قيام أخلاق وجودية ؟

(ب) دراسات

١ ـ الموت والعبقرية
٢ ـ دراسات فى الفلسفة الوجودية
٣ ـ المنطق الصورى والرياضى
٤ ـ النقد التاريخى
٥ ـ مناهج البحث العلمى
٦ ـ فى الشعر الأوربى المعاصر

خلاصة الفكر الاوربى

١ ـ نيتشه
٢ ـ اشپنجلر
٣ ـ شوپنهور
٤ ـ أفلاطون
٥ ـ أرسطو

٦ ــ ربيع الفكر اليونانى
٧ ــ خريف الفكر اليونانى
٨ ــ فلسفة العصور الوسطى
٩ ــ المثالية الألمانية (فشته ــ هيجل ــ شلنج)

(جـ) دراســات اسلاميــة

١ ــ التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية
٢ ــ من تاريخ الالحاد فى الاسلام
٣ ــ شخصيات قلقة فى الاسلام
٤ ــ الانسانية والوجودية فى الفكر العربى
٥ ــ أرسطو عند العرب
٦ ــ المثل العقلية الأفلاطونية
٧ ــ منطق أرسطو (٣ أجزاء)
٨ ــ شهيدة العشق الالهى (رابعة العدوية)
٩ ــ شطحات الصوفية (أبو يزيد البسطامى)
١٠ ــ روح الحضارة العربية
١١ ــ الانسان الكامل فى الاسلام
١٢ ــ التوحيدى : الاشارات الالهية
١٣ ــ مسكويه : الحكمة الخالدة
١٤ ــ فن الشعر لأرسطو طاليس وشروحه العربية
١٥ ــ الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الاسلام
١٦ ــ أرسطو طاليس : فى النفس (مع الآراء الطبيعية

لفلوطرخس وكتاب النبات ، ثم الحس والمحسوس لابن رشد)

١٧ ــ ابن سينا : عيون الحكمة
١٨ ــ ابن سينا : البرهان (من « الشفا »)
١٩ ــ الأفلاطونية المحدثة عند العرب
٢٠ ــ أفلوطين عند العرب
٢١ ــ المبشر بن فاتك : مختار الحكم
٢٢ ــ ڤلهوزن : الخوارج والشيعة
٢٣ ــ أرسطوطاليس : الخطابة
٢٤ ــ ابن رشد : تلخيص الخطابة
٢٥ ــ مخطوطات أرسطو فى العربية
٢٦ ــ مؤلفات الغزالى
٢٧ ــ مؤلفات ابن خلدون
٢٨ ــ أرسطوطاليس : فى السماء والآثار العلوية
٢٩ ــ حازم القرطاجنى وأرسطوطاليس
٣٠ ــ رسائل ابن سبعين
٣١ ــ دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى
٣٢ ــ أرسطو طاليس : الطبيعة (بشروحه العربية القديمة)
٣٣ ــ ابن سينا : فن الشعر (من « الشفا »)
٣٤ ــ الغزالى : فضائح الباطنية
٣٥ ــ رسائل الاسكندر الأفروديسى
٣٦ ــ أسين پلاثيوس : ابن عربى

(د) ترجمــات

الروائع المــائة

١ ــ أيشندورف : من حياة بائر
٢ ــ فوكيه : أندين
٣ ــ جيته : الديوان الشرقى
٤ ــ بيرن : أتشيلد هارولد
٥ ــ جيته : الأنساب المختارة
٦ ــ برشت : دائرة الطباشير القوقازية
٧ ــ ثربنتس : دون كيخوته (فى ٤ أجزاء)
٨ ــ دورنمات : علماء الطبيعة
٩ ــ مسرحيات لوركا : ١ يرما ــ عرس الدم ــ الاسكافية العجيبة .
١٠ ــ مسرحيات برشت : ٢ : الأم شجاعة وأولادها ــ الانسان الطيب فى ستسوان
١١ ــ ايونسكو : الدرس ــ فتاة للزواج

***

شڤيستر : فلسفة الحضارة
بنروبى : مصادر وتيارات الفلسفــة المعاصرة فى فرنسا
ج . پ سارتر : الوجود والعدم

مؤلفات بالفرنسية :

Le Problème de la Mort dans la Philosophie Existentielle



فريدرش نيتشه

١٥ أكتوبر سنة ١٨٤٤ ــ ٢٥ أغسطس سنة ١٩٠٠

تصـــدير عـــام

لئن كانت الحرب الماضية قد هيّأت الفرصة لهذا الوطن كي يثور ثورته السياسية ، فلعل هذه الحرب الحاضرة أن تكون فرصة تدفعه الى القيام بثورته الروحية .

فليس من شك فى أن هذا الوطن فى أشـــد الحاجة الى الثورة الروحية على ما أَلِف من قيم ، وما اصطلح عليـــه حتى الآن من أوضاع ؛ فى أشد الحاجة الى أن يطرح هذه النظرة القديمة فى الوجود وفى الحياة ، كى يضع مكانهـــا نظرة أخرى ، كلها خصب ، وكلها قوة ، وكلها حياة ؛ وفيها تعبير واضح عن كل ما يخالج ضميره من مطامح نحو السمو ونحو العلاء ، وشعور حى نابض بالنزوع الى تطور روحى هائل ، تصّاعد فيه قواه ، مندفعةً متوترةً ، حادة متوثبةً ، خالقةً تبدع فى كل طور من أطوار هذا التصاعد صـــوراً للوجود خصبة سامية ، وقيما للحياة جليلة عالية : فى الايمان بها ايمان بامكان خلق جيل من أبنائه عظيم ، وفى تحقيقهـــا تحقيق لنوع من الحضارة زاهر ممتاز .

وليس من شك أيضاً فى أن الشعور بهذه الحاجة قائم فى نفوس أبنائه ؛ تستطيع اذا أرهفت النظرة أن تكتشفه فيهم ،

واضحاً حيناً ، غامضاً فى معظم الأحيان . فهم لم يعودوا يمنحون القيم القديمة السائدة من الثقة والايمان ما كانت تمنح من قبل . واللوحة التى كانت مرتسمة فى مخيلة آبائهم للحياة السامية ، والوجود الممتاز ، قد بهتت ألوان الكثير من أجزائها ، وانحسر عنها الضوء قليلا قليلا . وأصبحوا ينكرون اليوم ما كان أسلافهم يحتفلون له أشد الاحتفال، ويتبرمون بأشياء كانت من قبل فى موضع التقديس . وكانت نتيجة هذا كله أن أصبحت الطبقة الممتازة من أبناء هذا الجيل تندفع نحو الشك فى قيمة الكثير من مقدس الأشياء، وتقتحم عيونُها طائفةً من المسائل كانت فى نظر السابقين مشاكل تقلق بالهم ، وتثير همومهم ؛ فكانوا يحيطونها بهالة من الرهبة والاجلال . فهذه الطبقة على حال من الشك قد يبلغ عند البعض درجة اليأس والقنوط ، وفى شىء من القلق قد يصل حد العذاب ، وفى حيرة متذبذبة تندفع ذات اليمين وذات اليسار .

وهى من أجل هذا كله فى حاجة الى اكتشاف نظرة فى الوجود جديدة،تؤمن بها وتحاول تحقيقها فىالحياة ،ويكون فيها عوض عن تلك النظرة القديمة التى لم تعد تؤمن بها ، لأنه ليس فى وسعها بعدُ هذا الايمان . ولا بد لهذه النظرة الجديدة أن تكون متفقة مع أحوال العالم الحاضر ، محققة

لمقتضيات هـذا العصر ، باذلة جهـدها فى التـوفيق بين متناقضاتها وفى حـل ما تستطيع من مشكلاته ، حاسـبة حسابها لكل ما يعـج به من مسائل وكل ما يضطرب فيـه من أحداث . فليس حلا للمشاكل أن تلغيها أو تفر منهـا وتتناساها . فلكى نضمن اذاً لهذه النظرة الجديدة الحياة ، ولكى تكون لها قيمة حقاً فى السمو بالحيـاة والارتفاع بدرجة الوجود ، ولكى تكون قادرة على اشباع هذه الحاجة التى نشعر بها نحو خلقها وايجادها ــ لا مناص لنا من أن نجعلها شاملة تواجه كلَّ مشاكل هذا العصر بكل ما فيـه من اشكال ومن تعقيد .

أما هذه الحلول الساذجة الهينة التى تحل مشاكل العصر حلا وهمياً بالفرار منها أو بالغائها فلا نفع فيها ولا غَناء ، بل فيها الضرر كل الضرر والخسران كل الخسران . فلنكن على حذر من دعاتها ، ولنحاربهم بكل ما نستطيع ؛ فليس فيما يدعوننا اليه من رجوع الى نظرات فى الوجود قديمة، عشنا عليها حيناً واسـتطعنا من قبـل أن نبنى عن طريق الايمان بها مجداً ، الا الضـياع والخسران المبين . وليس هؤلاء الدعاة فى الواقع الا دعاة اضمحلال ، يشيعون روح الانحلال ، ويخدرون أعصابنا بلحن الفناء الذى انحصرت مهمتهم فى الحياة فى توقيعه .

والى التمهيد لايجاد هذه النظرة الجديدة قصدنا حين فكرنا فى هذا المشروع الضخم ، مشروع تقديم « خلاصة الفكر الأوربى » الى أبناء هذا الجيـــل . فنحن نريد عن طريقه أن نعرض عليهم العقل الأوربى وهو يناضل ويجاهد فى سبيل ايجاد نظرة فى الحياة وفى الوجود ، من شأنها أن تخلق طابعاً ممتازاً من الانسانية ، وصورة جليلة سامية من صور الحضارة . نريد أن نبين لهم كيف يفكر هذا العقل ويبدع ويخلق ، وكيف يتطور فتتطور معه صور الوجود وقيم الحياة . نريد أن نوردهم هذه الينابيع الفياضة الحية التى تنبثق من الرجل الأوربى فى تدفق وباستمرار .

ولسنا نريد منهـــم أن يؤمنوا بمذاهب هـــذا الفكر ، ويسيروا فى الاتجاه الذى فيه سار ، دون افتراق عنـــه أو محاولة لانكاره ومخالفته . فليس يعنينا من أمر هذا الايمان شىء . وانما الذى يعنينا حقاً ، والذى من أجله أخذنا أنفسنا بمهمة العرض والتحليل لهذا الفكر ــ هو أن نحملهم على أن يفكروا فيما فكر فيه العقـــل الأوربى ، ويتـــأملوا فى المشاكل التى أثار ، والحلول التى قدم ، وأن ينظروا نظراً عميقاً ، فيه حرص وفيه جـــد ، فيما أتى به من نظرات فى الحياة وفى الوجود ، كى يتخذوا من هذا النظر وذلك التأمل والتفكير ، دافعاً ومادة وأداة من أجل ايجاد هذه النظرة الجديدة ، التى باسمها سيعلنون ثورتهم الروحية المنشودة.

نحن لا نقدم اذاً حلولا قد تم صنعها واعدادها فأصبحت صالحة للاستهلاك ، ونحن لا نتقدم اليهم بنماذج نهائيـة كاملة وليس عليهم من بعد الا التقليد والاحتذاء : انما نحن نضع فى متناول أيديهم مادة ثمينة للتفكير الحى الخصب ، وتحت أنظارهم أمثلة خليق بهم أن يتأثروها ويستلهموها ، وصوراً حية قوية لآخر ما وصل اليه الفـكر الانسانى فى تطوره وسموه ، كى يبدأوا نموهم منها بعد أن يهضموها ويتمثلوها ، ويعلوا عليها بعد أن يكونوا قد بلغوها .

ومن أجل هذا كله قد اخترنا من موضوعات هذا الفكر الأوربى ما يمثله أحسن تمثيل ، ويعبر عن سموه أصـدق تعبير : فاخترنا الفلاسفة ، والمفكرين ، والشعراء الفلاسفة . ومن هؤلاء جميعاً لم نختر الا أقدرهم على الالهام واثارة التفكير وأقربهم الى روح العصر ، وأعظمهم أثراً فى تطور أوربا الروحى ، وأشدهم عناية بمشاكل الانسانية الحقيقية ، وأحرصهم على أن يكون فكرهم حياً ينبض بدماء الحياة ، خصباً يقدر على النمو من بعدهم والانتاج ، جريئاً يهاجم المشكلات ، حراً يبدد ما قدس من أوهام . ثم اخترنا ، من بعد هؤلاء ، روح الحضارة الأوربيـة ، نعـرض تطورها ونحلل أدوارها ونكشف عن جوهر كل واحدة منها ، حتى تكون لدينا صورة كاملة للروح الأوربية فى نموها ووقوفها، ومدها وجزرها ومنحنيات تطورها .

وها نحن أولاء نضع الآن بين يديك أول صورة من صور الفكر الأوربى : صورة حية قوية فيها عنف وفيها قسوة ، وفيها تناقض وفيها اضطراب ، وفيها خصب وفيها حياة . ونحن نعلم مقدماً أنك لن تطمئن اليها ، وأن الكثير من القلق سيساور نفسك بازائها ، ونخالنا نرى عينيك الآن وهما تتسعان دهشة واستغرابا ، ونحس بقلبك وهو يهتز جزعاً منها وقشعريرة . ولكنا نعلم أيضاً أن هذه الهزة هى القادرة وحدها على انتشالك من ظلمة الهوة التى أنت فيها الى حيث نور الفكر الحر والنظر الصحيح الى الأشياء ، وأن هذه القشعريرة هى الخليقة وحدها بأن تدفعك الى الخلق المستمر والابداع .

وتلك الصورة صورة فكر نيتشه ؟

سبتمبر سنة ١٩٣٩

عبد الرحمن بدوى

دورة التطــور

« أجلْ ! انى لأعلمُ مَن أنا ، ومن أين نشأتُ :

أنا كاللهيب النَّهمِ ،

أحترقْ ، وآكل نفسى .

نورٌ : كلُّ ما أمسكه ،

ورمَادٌ : كلُّ ما أتركه .

أجلْ ! انى لهيبٌ حقاً . »

الدقة الأولى !

أيهـا الانسـان اتبـه !

الثانية !

ماذا يقول منتصف الليل العميقُ ؟

الثالثة !

« لقد نمتُ ، لقد نمتُ ـ ،

الرابعة !

وهأنذا أستيقظ من حُلْم عميق : ـ

الخامسة !

أن العالمَ لعميق ،

السادسة !

وانه لأعمق مما ظن النهار .

السابعة !

عميقٌ فى ألمه ـ ،

الثامنة !

وسروره ـ أشد عمقاً من ألمه :

التاسعة !

فالألم يقول : اُفنَ وغادر الحياة !

العاشرة !

بينـا كل سرور يريد الخلود ـــ ،

الحادية عشرة !

ـــ يريد الخلود ، الخلود العميق . »

الثانية عشرة !

. . . !

استمع زرادشت الى دقات ساعة الحياة ، وقد وصـل صوتها الى غاره الذى أوى اليه فى أعلى الجبل ، وسـط هذا الليل الساجى ، الذى جرى نسيمه العليل على الطبيعة كلها ، فمسها مساً رفيقاً ، اهتزت له ، وشعرت معه بنشوة، هيأت زرادشت لسماع هذا الوحى القدسى ، الذى هبطت به دقات الساعة عليه ، منبئة اياه بأطوار حياته ، ومضمون كل طور من هذه الأطوار .

وأى شىء أقدر من الساعة على التعبـير عن الحيـاة ؛ والكشف عن نسيجها العضوى الحى ؟ أو ليست هى رمز

الزمان ومقياسه ؟ والزمان ما هو ، أليس مظهراً من مظاهر الحركة ؟ نعم ، هو الحركة فى وعى من يعانيهـا ، ويندفع فى تيارها . والحركة هى الحياة ، وبغـير الحركة لا يمكن الحياة أن تكون ، ودون لغتها لا يمكن أن تفهم . فليست الحياة ثباتاً ، بل هى تغير متصل دائم ، لا يستطيع أن يعبر عنـه غـير الزمان . فالزمان والحيـاة اذاً متـلازمان . ومن هنا فليس فى وسع المرء أن يصف حيـاة الفرد وصفاً دقيقاً ، الا اذا استعان بالزمان فى وصفه ، فصور هذه الحياة على شكل تطور ، له أدواره ، ولكل دور طابعه ورسمه .

وليس اتصال الزمان بالحياة مقصوراً على الحياة العضوية وحدها ، بل يمتد الى الحياة فى مظهرها المقابل ونعنى به الحياة الفكرية . فحياة الفكر هى أيضاً كائن عضوى حى ، مكون من لحظات تبدو متنافرة ، متناقضة متعارضة ، اذا لم يجمع شملها ، ويحقق وحدتها ، ما يسودها ويعلو عليها، ونعنى به التطور والزمان . خصوصاً اذا كان صاحب هذا الفكر من أولئك المفكرين الذين يجمعـون بين حيـاتهم وفكرهم فى نسيج واحد . فهم يحيون أفكارهم ، ان صح هذا التعبير ، قبل أن تنتجها عقولهم ، وقبل أن يعرضوها على النـاس . وكل رأى من آرائهـم ، وكل مذهب من مذاهبهم ، يفرزونه من دمائهم وكيانهم كله . لهذا تراه حياً

نابضاً ، فيه حرارة الحيـاة ، وما فيهـا من قلق وصراع واضطراب . ويكاد المرء يراه مخضباً بالدماء التى اقتضاها هذا الصراع ، ويكاد يلمس آثار التمزيق التى تركها المفكر مع فكره ، ونضال فكره مع المسائل التى اشتبكت واياه .

ولعل نيتشه أوضح مثال لهـذا الطراز من المفكرين . ولا مناص لمن يريد أن يصف حياته وفكره من أن يصورهما فى لغة التطور ، وبألوان الزمان ، وأن يشيع فيهما روح الحركة ، والا بدا فكره سلسلة من المتناقضات ، اذا وضعت الفكرة الواحدة من أفكاره بجانب الأخرى وضعاً أفقياً ، ان صح هذا التعبير ، لا وضعاً رأسياً كما يقتضيه التطور .

الساعة اذاً أصـدق معبر عن الحيـاة ، فلنستمع الى ما تقول ، فقولها الحق .

انها تدعونا فى دقتها الأولى الى دراسة نيتشه «الانسان».

هذا الذى صورته الأسطورة فى صورة البطل : له رأس كبير أفرع ، يعلو كالبناء الشامخ يناضل جاذبية الأرض ويود لو يلحق بالسماء ؛ وجبهة عريضة على شكل القباب مرتفعة، تتخللها الثنايا والتعاريج من أثر فكره الهائل العميق؛ وموجة من الشعر الفاحم ، أبهظت كاهل قفاه القوى البارز . وتحت

جفونه ترفّ نظرة حادة كنظرات الصقر ، وكل عضلة من عضلات وجهه القوى النابض متوترة بارادة وقوة وصحة ، وعلى فمه الحاد يتهدل شارب ضخم . فهو أشبه ما يكون بالفارس الجرمانى القديم ، يسير بخطى واسعة سامقة ، حاملاً سيف النصر فى يمينه وبوق الصيد والسمهرى فى يساره .

والذى صورته الحقيقة شبحاً أوكالشبح ، موطأ الكتفين، يسير فى حذر واضطراب ، لأنه مصاب بقصر نظر عنيف ، يحول بينه وبين المشى القوى السريع . ويلبس رداءً أسود أنيقاً قد عنى بتنظيفه ، يتلاءم مع شعره الأسود ، وعينيه السوداوين اللذين يحجبهما منظار مريض غليظ .

والذى ظل طوال حياته الفكرية الحقيقية مريضاً ، حليفاً للداء والدواء . لايكاد ينتهى من مرض الا ليصادق مرضاً جديداً ، ولايكاد الصيف يشعره بشىء من الراحة والهدوء ، حتى يأتى اليه الشتاء بالآلام فى أقسى صورها وأشد أنواعها .

هذا الذى طارده شيطانه طوال حياته ، وكان فى صراع دائم معه ، فحال بينه وبين الحياة الحقيقية ، وأبعد بينه وبين الواقع . فحرمه الاستقرار والثبات على شىء ما من

الأشياء ، أو علاقة ما من العلاقات . وجعله مضطرباً كل الاضطراب ، قلقاً لايعرف الاطمئنان الى قلبه سبيلاً ولا الاستمرار الى حياته منفذاً .

فحرمه أول ما حرمه من البيت والأبوة والزوجة .

ولا يكاد يستقر فى مكان حتى ينتقل عنه الى مكان آخر فظل طوال حياته شريداً طريداً : فهو اليوم فى سويسرة ، وبعد شهر فى ايطاليا ، وبعد سنة فى وطنه الأول ، ألمانيا . وفى كل اقليم لا يستقر بمدينة ، انما يتردد على أكثر مدنه ملاءمةً لصحته وانتاجه .

وحال بينه وبين الاستمرار فى صداقته لغيره ، لأنه لا يستطيع أن يرتبط باستمرار بأية رابطة من الروابط ، حتى أصبحت الوحدة وطنه الحقيقى ، الذى لا ينتقل عنه ولا يريم .

وينتهى صراعه مع الشيطان الى الهزيمة ، فيخضع له ويصبح عبده . فيقذف به الشيطان الى هاوية الجنون التى تردى فيها نيتشه قرابة اثنتى عشرة سنة ؛ ولم ينتشله منها الا الموت ، الذى ارتفع به على جناحيه المخيفين الى أعلى عليين ، بعد أن أدى الرسالة ، وأعلن المذهب ، كما

صعد ديونيزوس ، الاله اليونانى المشهور ، الى السماء ، بعد أن آمن الناس به ، وأصبحوا يقيمون لعبادته المراسم والطقوس . هذا الاله الجبار الذى تأثره نيتشه منذ مستهل حياته ، وامتزجت روحه بروح نيتشه ، حتى خيل الى هذا الأخير فى نهاية حياته الواعية ، وهو على وشك الجنون ، أنه قد أصبح ديونيزوس نفسه ، لكن فى صورة جديدة ، هى صورة المسيح ، فحسب نفسه أنه قد صار ديونيزوس المصلوب ! وكان مصيره ، كمصير غيره من أبناء ديونيزوس ، أمثال هينرش كليست ، وهيلدرلن : فالأول انتهى أمره الى الانتحار ، والثانى الى الجنون . ومن قبل لاقى هذا المصير نفسه مفكر يونانى عظيم ، كان من بين مفكرى اليونان جميعاً أقوى الشخصيات وأغربها ، وأدناها الى التأليه ، وأمسها رحماً بالأسطورة . ونعنى بهذا المفكر أنباذوقليس ، الفيلسوف اليونانى الذى ظن فى نفسه الهاً ، أو نبياً على أقل تقدير ، وانتهت حياته بأن قذف بنفسه فى فوهة بركان ، كى يرجع الى الطبيعة ، أمه الأولى ، التى فصل عنها قسراً ، على رغم منه وكراهية ! فهو يقبل على الموت طواعية واختياراً ، كى يحقق هذا الاتحاد الحى بالطبيعة ، لأنه أسمى غاية للانسان من الحياة !

أما نيتشه المفكر ، فقد بدأت الساعة تصوره منذ دقتها الثانية .

فصورته أول ما صورته وهـو يستمع الى ما يقـوله الليل ، والليل هو ماضى الانسانية بأسره ، هو الحضارات السالفة والحضارة المعاصرة ، هو ما خلفـه المفكرون من تراث فكرى عظيم ، لابد لنيتشه من المشاركة فيه والأخذ بنصيب منه .

ولمـا كان نيتشه عبداً للاله ديونيزوس ، ولمـا كانت روح نيتشه قد قدر لها أن تمتزج منذ البداية بروح هـذا الاله ، فقد كان عليه أن يدرس مظاهر هذا الاله ، ووطنه الذى عُبِد فيه وساد ، والحضـارة التى تشبعت بقـواه ونشوته ، وشاعت فيها روحه ، فكانت كلها من نتاجه . هذا الوطن هو اليونان ، وهذه الحضارة هى الحضـارة اليونانية . ومظاهر هذا الاله هم الفلاسـفة اليونانيـون السابقون على سـقراط ، هؤلاء الذين عاشـوا فى عصر المأساة الحقيقية من بين عصور تاريخ اليونان كله . ونتاجه ظهر فى أجلى صورة فى المأساة .

فكان على نيتشه اذاً أن يكرس دراسـاته الأولى لعلم الفيلولوجيا اليونانية القديمة . وهى التى تعنى بدراسـة الحضارة اليونانية كلها ، وعلى وجه التخصيص ما يتعلق منها بالأدب واللغة والفن والآثار ، والانتـاج الفـكرى عمـوماً ، حتى يستطيع أن ينفـذ الى لبـاب الروح

الديونيزوسية ، والنظرة الديونيزوسية الى الحيــاة ، وهى النظرة التى قدر له أن تكون نظرته هو أيضاً .

وهذه النظرة عينها هى التى قادته الى شوپنهور . لأن أول مظهر من مظاهر الروح الديونيزوسية هو مظهر الألم فى الحياة ، وهو مظهر يدعو الى التشاؤم ، ويحمل على الركون اليه . وقد كان اليونانيون والروح اليونانية كلها روح تشاؤم ، لأنهم كانوا شــديدى الحساسية ، وكانوا فى صراع دائم مع قوى الطبيعة .

وكان لشوپنهور أعظم التأثير فى حياة نيتشه . فقد ظل واقعاً تحت تأثير هذه الشخصية لحــين من الزمان طويل ، يكوّن فترة هامة من تاريخ تطوره الروحى . فعنده وجد نيتشه أحسن من تغنى بالتشاؤم ، وأبرع من وصف آلام الحياة ، وأعمق من نفذ الى جوهرها ، ووضــع يده على مفتاحها : ألا وهو ارادة الحياة .

وطبيعى أن يعجب نيتشه بڤجنر ، ما دام يعجب بأستاذه شوپنهور . فموسيقى ڤجنر تحقيق لنظرية شــوپنهور فى الفن ، وهى النظرية التى تريد أن تجعل من الفن عموماً ، والموسيقى على وجه التخصيص، الوسيلة الوحيدة للخلاص فى الحياة ومن الحياة . لأن الموسيقى تصــوير دقيق شامل

لارادة الحياة التى هى الوجود . هى تصوير لمدها وجزرها، وضلالها وهداها ومتناقضاتها وأحوالها المضطربة المتغايرة، ونزعاتها الى الهدم والى البناء . وهى تعبر فى لغتها تعبيراً كاملاً صادقاً عن ارادة الحيـــاة فى جوهرها كله ، لا فى أجزائها وأطوارها المختلفة المتعددة : فـــلا تعبر عن هـــذا الألم أو ذاك ، ولا عن هذا السرور أو ذاك انما تعبر عن الألم كله والسرور كله ، فى جوهرهما وطبيعتهما .

رأى نيتشه فى ڤجنر أول الأمر ابنـــاً للاله ديونيزوس ، قد تجسدت روحه فيه . فكان اعجاب ، وكانت صداقة ، أنتجت فى البدء خير الثمار . اذ كان نيتشه يشعر ، وهـــو يستمع الى موسيقى ڤجنر ، بأنه نشوان نشوة ديونيزوسية، وأنه قد وجد فى هـــذه الموسيقى الخـــلاص الذى نشده شوپنهور وطالب الموسيقى بتحقيقه . ورغب هو منها فوق ذلك أن تكون قادرة على اثارة عاطفته ، والهاب احساسه ، وتوتير أعصابه ؛ وأن تكون قادرة على احداث التوازن بين حياته الهادئة الوديعة وسط علم الفيلولوجيا ، وبين حيـــاة النشوة والقلق والاضطراب التى طبع عليها بفطرته .

وفى هذا الطور الذى وقع فيه تحت تأثير فلسفة شوپنهور وموسيقى ڤجنر ، كان نيتشه « نائماً » كما تقول دقة الساعة الثالثة . لأن تشاؤم شوپنهور قد خدره ، وأشاع فى أعصابه

الارتخاء . وموسيقى ڤجنر أثرت فيه بعكس ما رغب ، فكانت سلوى للمتعب . وكانت النشوة التى تحدثها نشوة الضعف والانحلال ، لا نشوة الفيضان والنبض والقوة ؛ وبدل أن تكون سورة دافعة ، مولدة لحيوية فائضة ، كما هو شأن الموسيقى الصادرة عن الروح الديونيزوسية ،كانت طاقة هينة تشيع الخور والخمود .

فكأن نيتشه اذن قد خدع فى اعجابه ببطليه ، وكان عليه حينئذ أن ينتقل من هذا الدور السلبى الخالص ، الى دور آخر ايجابى يستيقظ فيه الى حياة جديدة لحسابه هو الخالص ؛ يحياها وحده ، بعد أن يهدياه الى الغاية التى من أجلها كانت حياته ، وكان وجوده ؛ وأن يسلكا به هذه الطريق الموصلة اليها . وانه لطريق شاق عنيف ، وان السير فيه وحده لخطير يقتضى منه الكثير من الصراع ، ويتطلب منه أقسى أنواع النضال ، وأحفل صنوف الجهاد بالغير والأحداث . كيف لا ، وهو طريق الاله ديونيزوس الذى صارع المردة والشياطين ، والذى سلكه نيتشه وحده دون هاد ولا معين !

فليودع نيتشه اذاً هذا الطور من حياته ، وليترك النوم فقد انتهى وقته ، وليفتح عينه على ضوء فجر جديد تلألأت فى الأفق أضواؤه وليصحْ بأعلى صوته : « هأنذا

أستيقظ من حلم عميق » ! وأى حلم هذا الحلم ؟ هو هذه الأوهام الانسانية التى تحفل بها حياة الناس ، هو كل هذه المذاهب الأخلاقية التى لم تستطع أن تقدم لأدواء الانسانية علاجاً ، ولا لأوصابها دواء . هو هذه القيم التى خلقها الخور ، وأملاها الضعف ، وشرّعها العبيد لكى يسيطروا بها على الأقوياء والسادة الممتازين . هو هذه الأساطير التى أوى الانسان الضعيف الى غارها خوفاً من عواصف الحقيقة التى لا يستطيع مواجهتها والنضال واياها . هو هذه القوانين التى سنتها العامة والمجموع ، كى يتخذوا منها سلاحاً ماضياً فى نزالهم مع البطل والفرد الممتاز .

كل هذا شهده نيتشه فى حلمه المروِّع ، أو حلم الانسانية كلها بعبارة أوضح وأدق . فهب من نومه ثائراً ، يود ، لو استطاع ، أن يبدده فى لحظة واحدة ، وأن يخلص منه الانسان والانسانية ، لأنه بغير هذا الخلاص لن تصلح للانسان حال . وانه لبناء ضخم تعبت فى اقامته أجيال ، وأشرفت على تشييده عشرات من القرون ! وانه لعزيز على الانسان أن يرى مصرع البناء الذى تعب فيه ينهار أمام ناظريه ، بل وعلى يديه ! وانه لمؤلم أن يتبين المرء أنه كان حتى اليوم مخدوعاً ، وأنه عاش طويلا على الأوهام !

لكن ما قيمة البنـــاء ، ما دامت حجــارته من الأوهام ، وملاطه من الأكاذيب والخداع ؟ لنحطمه اذاً غير آســفين عليه ، فعلى هذا التحطيم يتوقف مصير الانسانية الباهر ، ومستقبلها القوى المشرق . المسألة اذاً لا تحتمل تهاوناً ولا تردداً ، فلنغز كعبة هذه الأوهام ، ولنحطم ما فيها من أوثان وأصنام . ولنبدأ البناء من جديد ، على أساس كله جديد ، بعزيمة قوية وارادة شــيطانية جبارة ، تحتمــل فى هـــذا السبيل كل المتاعب والآلام .

والآن ، فبم نبدأ البناء ؟ لنبــدأه بدراســة المواد التى منها سيكون ، وخبرة ما لدينا من قوى نستطيع استخدامها فى اقامته.لنبحث فى الانسان: ماهو وما غرائزه ؟ والحقيقة: ما هى وما مقتضياتها وشروطها ؟ والتاريخ : كيف يفهم ، وكيف نحكم على هذا العصر ؟ والعالم كله : ما جوهره ، وعلى أى نحو نفسره ؟ ومن هـــذه الدراســة نعرف قوى الطبيعة ، وقوى الانسان ، وحقيقة القيم ؛ ونخرج بهـــذا كله بالايمان « بأن العــالم عميق » كما أنبأتنــا الدقــة الخامسة .

ومن بعدُ فلننظر الى ما جمعناه من مواد ، وما تجمع لدينا من قوى ، وما حصلناه من قيم ومعايير ؛ ولنقارن هذا كله بتلك الأوهام الزائلة ، والقوى المنحلة الواهية ، والقيم

المقلوبة الفاسدة ، والمعايير المعوجة الملتوية ، التى عاشت عليها الانسانية حتى اليوم .

لنلاحظ ثروتنا ، وثروتهم المزعومة ، ونظرتنا ونظرتهم ، لنعرف أن عالمنا أقوى من عالمهم وأخصب وأحفل . فهم يعيشون على الأوهام ، ولا يستطيعون أن ينفذوا الى صميم العالم المظلم ، لأنهم لا يقدرون على رؤية الأشياء الا على ضوء النهار ، أما فى الليل فعيونهم عمياء ، وقلوبهم صماء ، وعقولهم جوفاء . والعالم مملوء بالأسرار ، وقيمته فى هذه الأسرار ، التى لا تنكشف للنهار ، والا لم تُسَمَّ أسراراً ولم تكن خليقة باسم الأسرار . فليس العالم سروراً كما ظن المتفائلون ، ولا ألماً كما حسب المتشائمون ، هؤلاء الذين لا يبصرون الا فى النهار . انما هو أعمق من هذا . نعم ، « انه لأعمق مما ظن النهار » ، كما أعلنت الدقة السادسة .

فالعالم أولا ألم ، ولا بد للبطل فى البدء أن يتألم . وهل نحن فى حاجة الى نموذج ومثال لضرورة الألم للبطل ؟ ها هو ذا ديونيزوس تصوره المأساة اليونانية القديمة فريسةً للآلام العنيفة تنتابه فى كل حين ومن كل ناحية ، بل كاد موضوعها يقتصر كله على تصوير هذه الآلام التى عاناها فى كفاحه حتى وصل الى توكيد ذاته ، وأداء رسالته. والألم لازم للبطل لأن الحياة ليست خضوعاً ، ولكنها فيض

واعطاء وبذل للذات . هى خلق وابداع ، وفى الخلق افناء واستهلاك ؛ وكلا هذين يحدث الألم . وكل انتاج وكل ولادة لا بد مصحوبة بالألم . وقيمة البطل فى أنه يخلق ويبدع وينتج ويلد : فليست الغريزة العليا ، فى نظره ، غريزة المحافظة على الذات ، وانما غريزة السيطرة والفيض والغزو ؛ هى غريزة التوسع بالذات والامتداد فى كل حين والزحف على كل مكان . وهل يتم توسع دون أن تقوم حدود ، وهل يكون زحف دون صدام ولا مقاومة ؟ وكل نشاط يبذل للتوسع بالذات والعلاء بها ، وكل ظفر بقوة جديدة وسيطرة جديدة هو ايجاب لا قبول ، ومنح لا استجداء . وهذا الظفر وذلك النشاط ينبعان من فيضان القوة ويقومان على التبذير وبسط يد القوة ، لا على البخل بها والاقتصاد فيها . ونتيجة هذا كله التمزيق والتوتر ، وبالتالى الألم . فالألم اذاً ينبوع حى من ينابيع الحياة وعين ثرّة ، كلها خصب وابداع وانتاج . «فألم العالم اذاً عميق» كما كشفت لنا عنه الدقة السابعة .

وكلما زاد الألم وتعدد ، زادت طاقة الحياة وتعددت القوى التى تحتويها . وبمقدار استعداد المرء للتألم ، تكون درجته فى سلم التصاعد الانسانى . فأقدر الناس على تحمل الألم ، وأسرعهم الى خلقه والاقبال عليه ، أرفعهم

فى درجة الانسانية . والمعرفة تسمو والشعور يعلو ، بالقدر الذى يكبر به الألم ويزداد التألم . فاذا استطاع المرء اذاً أن يعانى أكبر مقدار من الألم ، وأوفر نصيب من التألم ، ارتفع الى درجة أعلى من الألم وأسمى من التألم . ارتفع الى درجة جديدة وطور آخر ، هو دور السرور . ولكنه ليس هذا السرور الهين الطافى على سطح الحياة ، انما هو سرور صادر عن أعماق الألم ، هو القمة العليا التى يصل اليها المرء بعد أن يكون قد صعد جبلا من الآلام والأوصاب عانى فيه الأمرَّين ، ومر فيه بأشد الصعوبات واقتحم فى تياره أقوى العقبات وأبعدها عن الهزيمة والتسليم .

هذا السرور لا يبدو الا فى نهاية التضحية والاستشهاد ، حين يستنفد قوى الجسم توتر" هائل عنيف ، وحين توشك النفس على الذبول والخمود . ولا يكتشفه المرء فى نفسه الا فى اللحظة التى يقترب فيها من الموت ، وما أقصرها من لحظة !

هو سرور يفترض الألم افتراضاً سابقاً ، لأنه وليده ؛ ولكنه ألم استحال الى حالة من النشوة أذابت فى داخلها الألم ، وابتلعت الشقاء ، وعلت على السرور الطافى والألم الثائر ، ولم تعد تفرق بين السعادة والشقاء ، وليس فيها

الا شعور واحد : هو الشعور بقوة الحيـاة وخصبهـا ، والاحساس بفيض قواها وامتلائها امتلاءً يصبو الى السيل والانفجار . فكأنها اذاً سيل قوى جارف يشعر به الانسان فى داخل نفسه ، وسورة عنيفة جامحة باطنة ، فى بذلهـا السرور ، وفى الجود بها النعمة والنعيم .

وسرور هذا شأنه ، أليست الدقة الثامنة صادقة اذاً فى وصفه بأنه أشد عمقاً من الألم ؟

كيف لا ، وليست الزيادة فى العمق ناشئة عن أنه يسمو على الألم ويبتلعه فى داخل جوفه فحسب ، بل هى ناشئة أيضاً عن كون الألم يدعو الى الفناء ، ويهيب بالذهاب وترك الحياة . يدعو المرء الى الخلاص من ارادة الحياة والقضاء عليها ، لأنها مصدر كل شـقاء ، وينبـوع كل داء . بينما السرور حليف للأبدية : يقبل على الحياة ، ليحيا المرء أقصى أنواع الحياة الممكنة ، وينعم بها فى أسمى صورها وأحفلها بالقوة والسيطرة والظفر والاستعلاء ومن هنا كان تشاؤم شوپنهور ينادى بطلب الخلاص عن طـريق الفنـاء ، لأن تشاؤمـه كان ألمـاً خالصـاً ، ولو أنه كان ألمـاً عميقـاً أيضاً . والنتيجة المنطقية لهذا التشاؤم هى نشدان الخلاص بواسطة القضاء على ارادة الحياة . لكن ماذا بعد القضاء على ارادة الحياة ؟ ليس بعد هذه الحياة حياة ، فهل نفقـد

كل حياة ؟ وهل نستمع الى صوت الألم وهو يقول : « امْضِ وغادر الحياة » ، كما عبرت عنه الساعة فى دقتها التاسعة فأحسنت التعبير ؟

كلا ! لقد حطمنا كل أمل ولم يعد لنا غير الحياة ، الحياة وحدها وفى ذاتها ، دون نظر الى مضمونها ومحتوياتها . ألا ان الحياة نفسها لقيمة فى ذاتها . انها تقوية وتكاثر وتركيز متزايد للقوى الكلية فى نفس الفرد . وان فيها لاغناءً ونشوة وعلاء تجعل من نفسها غرضاً وغاية . فالحياة قادرة على أن تصير غاية نفسها ، تلك الغاية التى لا غاية وراءها . وعلى هذا النحو يتجه الجهد لاقامة القيم الأخلاقية الى عملية الحياة نفسها . فكل ما يسمو بهذه العملية ويعلو بها هو القيمة وهو المعيار لكل جهد أخلاقى . وفى هذا الاتجاه فليسرْ فكرنا وليتجه نشاطنا لاقامة العالم على أساس جديد حتى نستطيع أن نصل فى النهاية الى خلق «الانسان الأعلى». أستغفر الله ! فليست هناك نهاية ، وليس الانسان الأعلى كائناً له قوام وله وجود ، انما هو تطور وصيرورة دائمة . هو صورة تتزايد قواها وتسمو فى تعبيرها ، وليس لهذا التزايد نهاية ، ولا لهذا السمو حد .

وعلى هذا النحو يكون الخلود الذى يريده السرور ، والذى ذكرته ساعة الحياة فى دقتها العاشرة . فليس هذا

الخلود استمراراً لشيء كائن ، يظل ثابتاً كاملاً لا يتغير ، انما هو استمرار لنقصان يصبو الى الكمال ولا يصل اليه هو ارادة الحياة أن تعلو على نفسها بأن لا تكاد تبلغ درجة حتى تحاول الانتصار عليها أولاً ، والسمو عليها ثانية ، لترتفع الى مرتبة أعلى منها ، وهكذا باستمرار .

تلك هي الحياة فى أسمى صورها : قد أصبحت اذاً غاية لذاتها ، فصرنا نقبل عليها فى لهفة وحب وعمق ، لأنها استحالت الى سرور عميق ، يشعر به المرء ، وقد أدرك أنها قوة متركزة وطاقة فائضة نابضة ، وارادة للعلاء على نفسها. فهذا السرور العميق هو الحياة السامية ، والحياة السامية ليست الا هذا السرور العميق . كلاهما قدامتزج ، فصارا شيئاً واحداً لا يحتمل التفرقة والتمييز .

مثل هذه الحياة ألا نود أن نحياها مرة ثانية وثالثة والى الأبد ؟ أوَلا نود أن نقول للموت : « أهذه هى الحياة ؟ اذاً هاتها مرة أخرى » ؟

« السرور اذاً يريد الخلود ، والخلود العميق » ، يريد أن تعود الحياة من جديد بعد أن تُتم دورتها وأن يكون هذا العوْد أبدياً ، خالداً أو هو الخلود بعينه . وهذا العود

الأبدى فكرة الفكر ، وسر الوجود ؛ هو الكلمة الأخيرة التى هتكت الطبيعة باعلانها آخر نقاب تنقبت به أسرارها :

ثم دقت الساعة دقتها الأخيرة ؛

وكان صمت هو صمت الموت .

طبيعة خارقة

« احراق واحتراق ــ تلك كانت حياتى »

وراثة متبنـــاة

« جلائل الأشياء باهظــة
التكاليف : والقاعدة دائما هى
أن الذى يملكها وينعم بها ،
غير الذى يظفر بها ويحصلها.
وكل ما هو جليل موروث :
وما ليس بموروث فهو ناقص ،
وصورة مشوهة » .

الحاضر جسر يعبر عليه الزمان لينتقل من المــاضى الى المستقبل . والانسان جسر تمرّ من فوقه الانسانيــة كى تمضى فى سيرها من جيل الى جيل . فالحاضر اذاً استمرار للماضى وللمستقبل معاً : فى أسفله يحيــا المــاضى ، ومن فوقه يحلق المستقبل . بل الآناء الثلاثة تكون نسيجاً حياً لا يقبل التفرقة ، ولا يخضع لعوامل التمزيق . حتى الثورات نفسها ، وهى أشد هذه العوامل تأثيراً وأعمقهــا فعــلا ، لا تقوى على القضاء على المــاضى قضاء كلياً . أستغفر الله! بل الثورة توكيد" للماضى ، لكن فى أســمى صــوره ، وأقدرها على الحياة والبقاء . فاذا قضت على شىء منه فانما تقضى على فضوله وزوائده التى تستنفد قــواه ، وتكاد تقضى على الخير فيه . ولعلها الوسيلة التى يلجأ اليها الزمان

نفسه لكى يتخلص مما تجمع فيه من فضلات ، حين يشعر بأنه فى حاجة الى الافراز . فما أبعد الثورة اذاً أن تكون ضد الزمان !

والمـاضى تهيئة للحاضر ، والحاضر اعداد للمستقبل . وكلما طال المـاضى ، كانت تهيئة الحاضر أتم وأوفى ، وكان هذا الحاضر أنضج وأكمل . و « الرجل الذى يستطيع أن يحيا تاريخ الانسانية بأسره من جديد ، وكأنه تاريخه هو نفسه .. ؛ هذا الذى يجد أمامـه ومن ورائه أفقاً واسـعاً مكوناً من آلاف السنين يشعـر بازائه أنه الوارث لكل ما تناثر فيه من نبل روحى يحمّله مسئوليـة كبرى ، لأنه أنبل كل هؤلاء النبلاء الأقدمين وأول ممثل للأرستقراطية الجديدة التى لم يشهدها ، بل ولم يحلم بها عصر آخر من قبل ؛ والذى يتمثل فى روحه أعظم المجد وأنبل التقاليد ، وكل ما صادفته الانسانيـة من تجـديد وخسران وآمال وفتوحات وانتصارات ؛ والذى يجمع هـذا كله فى نفس واحدة ويركزه فى عاطفة واحدة ــــ ؛ هـذا الرجل يشعر بسعادة لم يشعر بها انسان من قبل ، سعادة هى سـعادة الاله الممتلىء بالقوة والحب ، والدموع والابتسامات » .

لهذا نرى العظماء يحاولون قدر طاقتهـم أن يدلوا على ماض طويل أعدهم ، وكان تهيئة لوجودهم ؛ وأن يصوروا

التاريخ وكأنه تحضير بطيء هادىء لظهورهم ، مهما كلفهم ذلك من ضغط عليه ، وتزوير فيه ، وتحويل له عن مجراه الحقيقى ، كى يسير فى مجراهم هم أنفسهم . ذلك أنه « لما كان الناس لا يقدّرون الا ما ثبت ورسخ وتوشجت أصوله منذ زمان طويل ، وكان تكوينه هادئاً بطيئاً وقليلاً قليلاً ، فان على من يريد أن يحيا بعد موته فى ذاكرة الأجيال التالية ألا يكتفى بالبحث عن ذرية وأبناء فحسب ، بل عليه أن يسعى فوق ذلك الى البحث عن ماض عريض طويل . ومن هنا نشاهد أن الطغاة من كل طراز (سواء أكان فى الفن أم فى السياسة) يميلون الى ارغام التاريخ على أن يبدو على شكل تحضير لهم ، وفى صورة خطوات ودرجات توصل اليهم » .

ولم يكن نيتشه ، وهو يكتب هذا الكلام ، يصف غير نفسه ، ويستوحى غير طبيعته . والا فما باله منذ الصغر معنياً بالبحث عن أصوله وأجداده ، حريصاً على أن يلحق نسبه بنبلاء پولنديين ، وأن يكتشف فى دمائه قطرات من دم النبلاء ، وأن يجد نزعته الارستقراطية المستقبلة فى أرستقراطية مزعومة نسبها الى أجداده ؟ وماذا يحمله على اختراع هذه الأسطورة ، التى أنفق فى سبيل اثباتها الكثير من الجهد فى غير طائل ، والتى لم تسعفه وثيقة واحدة لتأييدها ؟

على كل حال ، اعتقد الفتى هذا الاعتقاد ، أو خيل اليه أنه اعتقده ، وما لبث أن بدأ يستخرج منه النتائج ، ويفسر على ضوئه طبيعته وجوهره . وأول نتيجة استخلصها من هذا الاعتقاد هى أنه أخذ نفسه منذ البدء بما تفرضه النبالة على أصحابها من تبعات والتزمات أخلاقية .

واذا كانت لكل نبالة صفات تمتاز بها من غيرها من النبالات ، فان نبالة آل نيتشه (أو نيتسكى فى صيغتها البولندية) امتازت خصوصاً بالصراحة وبغض الكذب ، « فللآخرين أن يكذبوا ما شاءت لهم أهواؤهم الكذب ، أما آل نيتشه فلا يليق بهم غير الصراحة » ، كما قالت أخته أليصابات .

وسواء أورث نيتشه هذه الصفة عن أجداده النبلاء البولنديين المزعومين أم لم يرثها ، فقد كانت هذه الصفة ، صفة الصراحة ، أميز صفات نيتشه ، ان فى حياته وفى فكره . فقد ظل طوال حياته مملوءاً بحبه للحقيقة حباً عنيفاً ، يكاد يصل الى درجة الايلام والتعذيب ، يتابعه شيطان هذا الحب ويحمله الكثير من العناء فى سبيل طلبها والجهر بها ، أنى كانت وفى كل آن .

وصراحة نيتشه ليست كغيرها من صنوف الصراحة التى اتصف بها كثير من المفكرين مثل مارتن لوتر . فصراحة هؤلاء ليست الا حباً مشتعلا لحقائقهم هم التى آمنوا بها ، لا الحقائق على وجه الاطلاق . أما صراحة نيتشه فصراحة واسعة حارة لا تعرف غاية ترمى اليها أو تقف عندها ، ولكنها تنتقل من مسألة الى مسألة ، ومن مشكلة الى أخرى ، كى تلقى على كلٍّ ضوءاً ساطعاً من لهيبها المشتعل ، دون أن تقنع بواحدة منها أو بمجموعة محدودة ، هى مشكاة من النور الباهر ، تكشف كل مايقع عليه ضوؤها ، ولا تغادره حتى تفضح أمره وتهتك سره . هى نور كشاف سلطه نيتشه على خفايا نفسه أولا ، ثم على أوهام الانسانية من بعد . ومن هذا التسليط عانى أشد الألم ، ان من نفسه أو من الانسانية جمعاء .

هذا ما ورثه عن أجداده الأقدمين ، فماذا ورث عن أبيه ؟

لقد ورث الابن عن أبيه الشىء الكثير ، حتى كان نيتشه يعتقد أن حياته متصلة بحياة أبيه برابطة سحرية صوفية ، وأنها ليست الا تكراراً لهذه الحياة : « مات والدى فى سن السادسة والثلاثين ، وكان رجلاً رقيقاً محبوباً وعلى سيماه طابع المرض . وكل شىء كان يدل على أنه مخلوق قدر له

أن يمر بالحياة مرور العابرين الكرام ، فهو ذكرى جميلة للحياة ، أولى منه أن يكون الحياة نفسها . وان حياتى قد بدأت فى الزوال فى نفس اللحظة التى ذهبت فيها حياته : ففى سن السادسة والثلاثين ، وصلتُ الى أحط درجة من حياتى وحيويتى — ؛ أجل قد عشت بعدُ ، ولكن هذه الحياة التى حييتها لم أكن أستطيع أن أنظر فيها الى أبعد من ثلاث خطوات » .

وحاله فى هذا تشبه حال كيركجورد ، الذى كان يعتقد أن اللعنة التى حلت بأبيه قد انتقلت الى ابنه ، وأن مصيره سيكون كمصير أبيه سواء بسواء .

وكان والد نيتشه هذا قسيساً پروتستنتياً أحبه التابعون للكنيسة التى كان راعيها ، ونعنى بها كنيسة ريكن ، بالقرب من مدينة لوتسن بمقاطعة سكسونيا ، وهى المدينة المشهورة بالموقعة المسماة باسمها ، والتى انتصر فيها نابليون على الروس والپروسيين فى سنة ١٨١٣ .

ورث عنه نيتشه ميولاً أنكرها بعد أن تأثر بها ، وناضل كل النضال من أجل الخلاص منها ؛ وورث عنه ميولاً أخرى لازمته طوال حياته واستمر عليها . وأول الميول التى ورثها ثم أنكرها ، نزعة أبيه الدينية العميقة ، وهو

القسيس التقى الورع . وليس أبوه أول قسيس فى آل نيتشه أو أجداده من أمه . انما كان كثير من هؤلاء الأجداد ، سواء من ناحية الأب ومن ناحية الأم ، قساوسة ورجال دين . فهذه النزعة اذاً نزعة قديمة متأصلة ، تأثرت بها طبيعة نيتشه فى طفولته تأثراً عميقاً ، كان يلاحظه عليه كل من عرفوه ، حتى كان أترابه فى المدرسة يلقبونه « بالقسيس الصغير » . وكان يطمع فى صغره أن يصير قسيساً فى المستقبل . وظل تأثره بهذه النزعة طوال حياته ، حتى بعد أن أعلن الحرب على المسيحية وهاجمها أعنف هجوم وأقساه . وقد قال نيتشه عن نفسه : « فى سن الثانية عشرة ، رأيت الله فى تمام جلاله » . وقبل أن يغادر مدرسة « البفورتا » ، وهى المدرسة التى قضى فيها دراسته الثانوية من أكتوبر سنة ١٨٥٨ حتى سبتمبر سنة ١٨٦٤ ، نظم قصيدة وجهها الى « الله المجهول » ، هاديه ومرشده الذى لم يعرفه بعد :

« مرةً ثانية ، وقبل أن أستمر فى طريقى
وأطلق نظرتى الى الأمام ،
أرفع يدىّ العاريتين
اليك ، فأنت ملجأى وملاذى
وأنتَ الذى كرستُ له فى أعمق أعماق قلبى
مذابحَ يقدس عليها اسمك

لكى يدعونى صوتك
دائماً اليك
وعلى هذه المذابح تتلألأ
هذه الكلمة : الى الله المجهول ...
انى أريد أن أعرفك أيها المجهول ؛
أنت يا من نفذت الى صميم روحى ،
ويا من تمر على حياتى مرور العاصفة ،
أنت يا من لا يدركك شيء ، ومع هذا فأنت قريب منى
وذو نسب الى !
أريد أن أعرفك ، وبنفسى أن أعبدك » .

وورث عنه ثانياً روح الشفقة ، التى حاول أن يقضى عليها بكل ما يستطيع ، لأنه وجد فيها خطراً جسيما : « أدركتُ منذ طفولتى صحة هذه العبارة : الشفقة أعظم خطر علىّ ـ هذه الشفقة نتيجة سيئة من نتائج طبيعة والدى الشاذة ، وهو الذى كان كل من عرفوه يضعونه فى صفوف « الملائكة » قبل أن يضعوه فى صفوف بنى الانسان » .

ثم ورث عنه أخيراً حبه للموسيقى منذ أول عهد الطفولة ، وهو الحب الذى استمر ملازماً لنيتشه طول حياته . حتى فى السنوات التى كان مصاباً فيها بالجنون ،

كان يتسلى بالعبث بأنامله على أوتار البيانو . وقد وصف نيتشه تأثير أبيه عليه فى الناحية الموسيقية فى كلام غريب كتبه فى خطاب بعث به الى صديقه جاسْت : « المطر ينزل كالسيل ؛ ومن بعيد تصل الى أذنى موسيقى تطربنى . أما كيف ولماذا هى تطربنى ، فهذا مالا تستطيع تجربتى الشخصية أن تفسره . ولعل تجربة والدى تستطيع بالأحرى أن تفسره . ولم لا ، فعلى كل حال ... ؟ » وهنا يقف الخطاب وقفة تثير الدهشة والغرابة .

هذا ما ورثه الابن عن أبيه فى جزئياته . لكنه ورث عنه شيئاً آخر أهم من هذا كله . ورث عنه أسلوبه العام فى التفكير ، والصبغة الكلية التى اصطبغ بها عقله وفكره. ونيتشه نفسه يكشف لنا عن هذا الطابع العام الذى يرثه العلماء عن آبائهم ، خصوصاً اذا كان هؤلاء من أصحاب المهن فيقول : « يكاد يكون فى مقدور المرء أن يدرك من وراء الطابع العقلى العام للعالِم — ولكل عالِم طابع وميل عقلى معين — كلَّ التاريخ السابق على وجود هذا العالم : تاريخ أسرته وما اشتغلت به من مهن وحرف ... فابن المحامى سيكون بالضرورة محامياً ، حتى فى بحوثه العلمية فان غرضه الأول هو أن يجعل رأيه ونظريته تنتصران ، وقد يكون غرضه الثانى كونه على حق . ويستطيع الانسان أن

يعرف أبناء القساوسة البروتستانتيين والمعلمين من لهجة التوكيد الساذجة التى يتحدثون بها ، وهم العلماء ، عن نظريتهم كأنها ثابتة مقدماً ، ما داموا قد عرضوها فى حماسة وحرارة صادرة من أعماق قلوبهم : فهم قد تعودوا بطبيعتهم أن يعتقد الناس فيما يقولونه ... لأن هذا كان جزءاً من صناعة آبائهم ! أما اليهودى فعلى العكس من هذا ، أبعد الناس عن أن يتعود اعتقاد الناس فيما يقوله ، نظراً للدائرة التى يعمل فيها شعبه وماضى هذا الشعب . فاذا بحثنا العلماء اليهود من هذه الناحية ، وجدناهم جميعاً مولعين بالمنطق ، أى بانتزاع الموافقة والتسليم عن طريق البراهين » .

وحينما يتحدث نيتشه هنا عن أبناء القساوسة البروتستانتيين فانما يتحدث عن نفسه . وطريقته فى التفكير وأسلوبه فى البحث هما على النحو الذى وصفه هنا بالدقة.

***

لكن هاتين الوراثتين عن الأب وعن آباء الأب ، صادرتان عن أصول پولندية ، أى عن عنصر سلاڤى ، فأين نصيب العنصر الجرمانى اذاً فى تكوين نيتشه ؟

هذا النصيب أتى اليه عن طريق أمه ، فِرَنسِسكا ايلر ، لأن أسرة ايلر أسرة ألمانية خالصة . وأتى اليه ثانياً منحدراً من والدة أبيه ، التى قضت شبابها كله فى ڤيمار ، وڤيمار فى أوج عزها فى أيام دوقها الكبير كارل أوجست . وكانت

تتردد على حلقات الأدب التى كان يعقدها جيته فى هـذه المدينة .

وكما ورث نيتشه عن أبيه مثاليته ، ورث عن أجداده لأمه احساساً بالواقع مرهفاً وروحاً من الشك بازاء الحوادث الانسانية . فكأنه اذاً قد ورث عن الجانبين : جانب الأب وجانب الأم ، نزعتين متعارضتين تمام التعارض . وهـذا يفسر طبيعته المزدوجة . يفسر روح التناقض التى صاحبته طوال حياته ، وجعلت فكره متوتراً شديد التوتر ؛ وجعلت حياته الداخلية نزاعاً وصراعاً بين قطبين متنافرين جمعهما فى نفسه وكان عليه أن يوفق بينهما ، وهما أبعد ما يكونان عن التوفيق . وكان نيتشه يشعر بهذا الازدواج شعوراً عميقاً عبر عنه فى خطاب أرسله الى أخته قال فيه : « ان طابع أسرتنا الرئيسى هو الجمع بين الأضداد » .

وان أخطر تزاوج لهو التزاوج بين وراثتين متعارضتين أصيلتين قويتين ، لا تستطيع الواحـدة منهما أن تسود الأخرى وتقضى عليها . والفرد الذى يشاء له القدر أن يكون نقطة التقاطع بين هـذين الخطين الوراثيين فَرْد" قُضِى عليه بالعذاب الأبدى فى حياته وفى فكره . هو وارث بائس حلت عليه اللعنة التى لا يستطيع منها فكاكا ولا خلاصاً . ورجل العصر الحديث أوضح نموذج لهذا الوارث المسكين، كما أوضحه نيتشه فى تحليله البديع له : « يمثل الانسانُ

الحديث من الناحية البيولوجية تناقضاً وتضاداً بين القيم . فهو جالس بين كرسيين ، ويقول فى نَفَس واحد : نعم ولا ... لأنا جميعاً نحمل فى أجسامنا ، على غير علم منا ولا ارادة ، قيماً وأقوالاً وصيغاً ومذاهب أخلاقية صدرت عن مصادر متعارضة متضادة — فنحن من الناحية الفسيولوجية اذاً مزوّرون » .

وأبرز ميزة لهذا الخليط المكون من عناصر متضاربة متنافرة هو الشك . لأن الشك أحسن تعبير عقلى عن كل تركيب فسيولوجى تدخله عناصر متباينة كل التباين ... وهو يبدو دائماً فى كل مرة تتقاطع فيها أجناس منفصلة عن بعضها البعض منذ زمن طويل ، لتكوّن اتحاداً جديداً مفاجئاً . فان العنصر الجديد الذى يرث دمه معايير وقيماً مختلفة ، يكون دائماً مضطرباً مختلطاً ، كله شكوك ومحاولات ، وتصبح فيه القوى السامية عقبات ومصاعب ، ولا تستطيع الفضائل فيه النمو ، ولا أن تقوِّى الواحدة منها الأخرى . فيصير الجسم والنفس سواء بسواء خاليين من التوازن والاتزان . لكن أشد اصابة فى هذا الجنس الهجين تصيب « الارادة » .

كل هذا اكتشفه نيتشه فى داخل نفسه فأعلن عليه الحرب وكان بينه وبينه صراع حادٌ عنيف .

وهذا الصراع هو موضوع مأساة رائعة ، لم يمثل فيها غير شخص واحد ، هو بطلها نيتشه .

صــورة قلقــة

«أعمال الفنان أو الفيلسوف
هى وحدها التى تخترع من
أبدعوها ، أو كان عليهم أن
يبدعوها ؛ وما العظماء الذين
نجلهم أو نقدسهم الا قصائد
من الشعر حقيرة تافهة . . .
وشهداء لمن قدسوهم »

شخصية البطل ينبوع فيــاض لا يستطيع أن يستنفد ما فيه فرد من الأفراد ، أو جيل ما من الناس . ولها قدرة على الاشعاع عجيبة ، لا يستطيع الحاضر ولا الأجيال التالية القريبة وحدها أن تعرف الآفاق التى ستمتد اليها وتغزوها . فهى قوة خالقة متجددة فى كل آن ، تظهر على الناس فى كل عصر ، بصورة قوية جديدة تتطور اليها ، وتبدو للمستقبل عليها .

لهذا كانت لكل شخصية أسطورة ، ولكل بطل قناع .

وليست هذه الأسطورة خليطاً من المعجزات ، أو سلسلة من الخرافات ؛ بل هى الصورة الحية المتجددة الحقيقيــة لشخصية البطل ؛ وهى الكائن العضوى النــامى ، الذى

يكشف فى كل يوم عما اشتملت عليه البذرة من قوى خصبة ، وقدَر فائقة ، كانت كامنة فى البذرة ، فلما ماتت ظهرت وازدهرت ، وكشفت عما احتوته من حياة وحيوية . فهى اذاً أصدق من التاريخ ، وأحرى منه بالتعبير عن حقيقة البطل .

ولنيتشه كما لغيره من الأبطال أسطورة ، حاول مبدعوها أن يصوروه فيها فى صورة الجبار أو المارد الهائل والفارس المغامر فى ميدان الفكر ، وهى الصورة التى عرضناها عليك من قبل ، ورأيت ما فيها من غلو ومن افراط: رأيت فيها خطوطاً عريضة واسعة ، وحدوداً مبهمة لا يكاد البصر يحصر مداها ، وعلامات بارزة تثب أمام عينيك وتثير فى نفسك الخوف والرهبة . وليس من شك فى أن هؤلاء الذين اخترعوها لم يستوحوها من صور حقيقية رأوها ، ولا من مشاهدات عيونهم المجردة ، وانما استلهموا نيتشه المفكر الجبار الذى نادى بخلق الانسان الأعلى ، فحاولوا أن يصنعوا من صورته هو ، هذا الانسانَ الأعلى المنشود.

ولندَعْ هذه الصورة الناقصة — أليست الأسطورة التى اخترعها حديثة السن ؟ — حتى تقترب من الكمال ، بعد أن تمضى عليها أجيال وأجيال ، ولنحاول أن نستخلص صورته التاريخية من أقوال من عرفوه وعاصروه ، ثم من صوره الشمسية ، ومن خطه .

وليست أقوال من عرفوه ورأوه بأقل اضطراباً وابتعاداً عن الواقع من أقوال الأسطورة . فمنهم من صور هذه الصورة بألوان زاهية رائعة ، وأضفى عليها من خياله الشيء الكثير ، الذى خرج بها عن الواقع ، وأحالها الى صورة مقاربة للصورة التى كونتها الأسطورة : وأول هؤلاء أخته أليصابات . ومنهم من عكس الآية فجعل ألوانها باهتة شاحبة ، ومثلها هزيلة نحيفة ممزقة منهوكة ، كما فعل صديقه فرنتس أوفربك . وبين هؤلاء وهؤلاء من كانوا معتدلين متبصرين ، فجاءت الصور التى رسموها أدنى الى الواقع وأقرب الى الحقيقة التاريخية . فلنختر بعضاً من هؤلاء الأخيرين ، ولنكوِّن لنا من شهاداتهم صوراً قريبة من الحقيقة :

فنيتشه التلميذ وصفه زميله فى الدراسة دوْيسِن بأنه كان بعيداً عن الظهور بمظهر مسرحى، وأنه كان نادراً ما يلجأ الى النِكات والسخرية، وان كان يبدى كثيراً من الملاحظات البديعة . ووصفه كذلك مرة أخرى وهو فى السابعة والعشرين ، فقال عنه انه : مرن ، ملتهب بذاته ، كالأسد الصغير .

ووصفه شيفْلر ، حين كان نيتشه أستاذاً ، بالتواضع الذى يصل الى حد الخجل ، وبأنه كان أقرب الى القصر

منه الى الطول المعتدل . « وكان نيتشه يساير التجديد فى الأزياء . فكان يلبس سروالا فاتح اللون ، من فوقه سترة قصيرة ، وفى نيقة قميصه يتماوج رباطُ رقبة أحكم ربطه باناقة ... وعلى رأسه يتدلى شعر طويل وفى سيره يكاد يمشى مشية المتعب ... أما كلامه فكان رقيقاً بسيطاً خالياً من التصنع ... ولكنه كان يصدر عن أعماق نفسه ».

لكن أحسن صورة وأكملها هى تلك التى عرضتها لو أندرياس سالوميه ، التى صاحبته مدة من الزمان . قالت : « أول احساس تشعر به اذا ما رأيت نيتشه هو احساسك بأنك بازاء وجدان عنيف مستور وشعور بالوحشة كتمه فى نفسه . والناظر العابر لا يستلفت نظره منه شىء،فمن السهل أن يمر المرء على هذا الرجل المتوسط القامة ، البسيط فى ملبسه الذى عنى به،الهادىء فى سيماه، ذى الشعر الأسمر الملقى الى الوراء — دون أن يلتفت اليه أو يديم النظر فيه ... وله ابتسامة خفيفة ، ولهجة هادئة فى الحديث ، ومشية متئدة حذرة ، تقتضى منه أن يحنى كتفيه قليلاً . ومن الصعب على المرء أن يتصور وجهه موجوداً وسط جماعة من الناس ، — فان على هذا الوجه سيماء التجنب والتوحد والانفراد عن الناس . أما يداه فجميلتان حسنتا التكوين ، جمالا وحسناً منقطعى النظير ،

حتى ان النظـرة تتجـه اليهما فى الحـال على الرغم من ارادتها ... وتكاد عيناه تنطقان حقاً ؛ وعلى الرغم من أنهما شبه عمياوين فانه لم يكن يبرقهما ولا يُسِفُّ النظر ، كما هى عادة الكثير من قصار النظر . بل كانا يبدوان كأنهما حارسان لكنوز ، وحافظان لأسرار صامتة ... وكلتا العينين تحدق فى أعماقه فى نفس الآن الذى تحدقان فيه فى الأفق البعيد ، أو بتعبير أحسن : كانا يحدقان فى أفق بعيد ... أما فى حياته العادية فكان مؤدباً كل الأدب ، رقيقاً رقة تقرب من رقة النساء ، هادىء المزاج ، ساكن الضمير ، متصل الوقار » .

نذا هو نيتشه كما رآه عارفوه . أما صوره الشمسية فلا تكاد تنطق بشىء ، اللهم الا شاربه الضخم الذى يدل على نوع من الوجدان الملتهب المكتوم ؛ ونظرته الحـادة التى تبين عن شىء من الثورة والعنف والحيوية النابضة التى تكاد تنفجر .

ولمـا كان هذان المصدران من مصادر معرفة صـورة نيتشه الحقيقية غير كافيين ، فقد لجـأ البعض الى مصدر آخر ، يحتاج الى كثير من الحذق والمهارة فى استخدامه . هذا المصدر الآخر هو خـط نيتشه . وعلى رأس هؤلاء

لدفج كلاجس الذى حاول الكشف عن طبيعة نيتشه وطباعه ، بتحليله لخطه تحليلاً بديعاً .

رأى كلاجس أن خط نيتشه لا يشبهه خط آخر من بين خطوط الشخصيات الكبرى التى درس خطوطها . بل ان خطوط هؤلاء قد تتشابه بعض التشابه مع بعضها البعض، الا خط نيتشه فلا يشبهه خط واحد منها جميعاً . وهو يجد فى هذا الخط ما يدل على الرقة واللطف فى الاحساس ، وسرعة التأثر والاهتياج . ويتبين فيه حياة عاطفية خصبة ؛ لكنها محصورة فى داخل جسم صاحبها ؛ فالتجارب الروحية التى يعانيها هى تجاربه هو ذاته ، لا تجارب خارجية ينفعل بها ؛ كما يرى فيه الصرامة والسيطرة على نفسه ؛ والحكم الجرىء على ذاته هو ، وغريزة الاعتداد بالنفس القوية العنيفة فيه . ويستطيع أن يكتشف فيه أيضاً روح «النضال فى داخل مملكة الفكر » . ولكن هذا الخط ليس كخط رجال الأعمال العظيمة مثل بسمرك ونابليون ، لأن خط نيتشه اذا قورن بخط هؤلاء ، وجد أن رسومه دقيقة تكاد تنكسر ، وتعبر عن روحية شديدة متفرقة .

وعلى الرغم من براعة هذا التحليل لخط نيتشه ودقته ، فانا لا نستطيع أن نطمئن اليه لكى يعطينا صورة دقيقة عن طبيعة نيتشه وطبائعه وغرائزه.لأن الباحثين فى الخطوط ـــ

حتى كلاجس نفسه ، وهو أعظمهم جميعاً — كثيراً — بل دائماً تقريباً — ما يكونون متأثرين بالمعانى السابقة فى عقولهم عن هؤلاء الذين يورسونهم. كما أن هذا النوع من العلم جديد ، لم تتوطد دعائمه ، ولم تتحدد بعدُ أصوله وقواعده .

ومهما يكن من أمر الصورة التى يختارها المرء لنيتشه ، فيظهر أنه كان لهيئة نيتشه ونظراته شيء من الروعة والجلال ونوع من التسامى والقداسة ، وكان له تأثير غريب على كل من رأوه أو اقتربوا منه ، كما يشهد بذلك ما رواه عارفوه فى هذا الباب .

فكما بدا هيلدرلن الطفل لأترابه وزملائه فى المدرسة فى صورة « الاله أپولون وهو يخترق قاعة الدرس » ، ظهر نيتشه لواحد من زملائه فى مدرسة ناوْمبُرج فى صورة « المسيح فى المعبد وهو فى الثانية عشرة » . ويروى عنه أيضاً أن اخوانه فى الدرس كانوا يخشون أن يتفوهوا بكلمات نابية وهو موجود : ففى يوم من الأيام وضع واحد من هؤلاء يده على فيه صائحا : « لا ، لا يستطيع الانسان أن يتفوه بهذا ونيتشه حاضر ! » فسأله زميله : « وكيف عنعك من هذا ؟ » ، فأجاب : « آه ! انه ليرمقك بنظره على نحو يجعل الكلمات تقف فى الفم » . وكانت نزعة الجد فيه

ولهجة التأمل والتفكير عنده تظهر غريبة لزملائه وهو فى سن السادسة ، حتى لم يكن واحد منهم ليقترب منه . وانهم ليذكرون عنه أنه كان قادراً فى هذه السن على أن ينشد آيات من الانجيل وتراتيل دينية بلهجة تكاد تثير البكاء ، ولهذا سموه « القس الصغير » .

وما أصدق قول جيته فى هذا الصدد : « ان المظهر النبيل يحدث أثراً عميقاً » .

أزمة روحيــة

« أهــم حادث فى حيــاة
الانسان هو اللحظة التى يبدأ
فيها بادراك ذاته وجوهره ؛
ونتائج هذا الحادث قد تكون
جليلة خصبة ، وقــد تكون
مريعة ضارة »

تمر على العباقرة فى حياتهم الأولى سنة" حاسمة ، يعانون فيها أزمة حادة خطيرة ، يتقرر بعدها مصيرُهم ، والسبيل النهائى الذى سيسلكونه .

تلك سنة عاصفة هائجة ، يبدأونها بالتفكير فى الطريق الذى مشوا فيه حتى ذلك الحين ، وبالتأمل فى قيمة الحياة التى حيوها ، والمعتقدات التى آمنوا بها ، والاتجاه الذى ساروا فيه . يقومون بمراجعة هذا كله ، وتصفية حسابه ، لكى يستأنفوا حياتهم على قاعدة جــديدة ، وبنظــرة فى الحياة مغايرة لتلك التى ألفوها ، وايمان قــوى برسالتهم المستقبلة ؛ ثم يستقبلوا فجراً جديداً مشرقاً ، هو الفجــر الذى يستهلون به نهار حياتهم الحقيقيــة ، الصادرة عن طبيعتهم ، ووفق مثلهم الأعلى . وهو النهار الذى سيتلألأ

فى ضوئه أسلوبهم الخاص فى الحياة وفى التفكير ، وتنضج على حرارة شمسه رسـالتهم التى قـدر لهم أن يعلنوها ويؤدوها .

وحياتهم النفسية فى تلك السنة مضطربة قلقة ، تترجح بين الشك فى القديم والحماسة المؤمنة بالجـديد ؛ وتراهم عاكفين على أنفسـهم ، مختلين بذواتهـم ، يريدون أن يتبينوا قواهم الحقيقية ، ومواهبهم الذاتية ، وأن يكتشفوا الميول التى طبعوا عليها ، والاتجاهات التى شاء القدر لهم أن يتجهوها .

لأن هذه الحياة النفسية ترقص آنذاك على الهاوية ، التى تفصل بين العهدين : العهد السابق على هـذه السنة الحاسمة ، والعهد التالى .

والضيق الذى يلازمهم ابان هذه الفترة أشبه ما يكون بالضيق الذى تشعر به المرأة حينما تكون لأول مرة على أبواب الحمْل . ولا غرابة فى هذا : فالعبقرى مقدم هو الآخر على دور حَمْل ، يلد من بعـده ما سـيخلفه من مؤلفات وآثار فنية ونظريات .

هكذا كانت سنة ١٧٧١ بالنسبة لجيته :

قضاها فى مدينة استراسبورج ، وكانت نقطة تحول فاصلة فى تاريخ تطوره الروحى . ففيها اندفع ثائراً على حياته السابقة ، سائراً فى تيار حركة «العاصفة والاندفاع»، التى رمى أصحابها من ورائها الى تحطيم القيم التقليدية السائدة فى عصر العقليين الذى سبقهم ، فى ألمانيا . وكانت أعراض هذه السنة المضطربة بادية عليه فى حماسته الشديدة، واندفاعه الهائج ، وحيويته الفائضة التى لم تجد صارفاً لها الا فى الحالات الوجدانية العنيفة المتطرفة ، والتى كانت تترجح بين سرور جامح وحزن مفاجىء ، وتخللها نوبات من التشاؤم حادة ، وكان شيطانه الباطن يطارده أثناءها مطاردة عنيفة ، قاذفاً به الى آفاق لا يعرفها،ومرام لا يدرك مداها .

وهكذا كانت سنة ١٨١٩ بالنسبة الى ليوپاردى ، أعمق الشعراء الايطاليين على الاطلاق .

كان قبلها مرهف الحساسة ، جامح الخيال الى حد بعيد . فلما جاءت هذه السنة تفتحت عبقريته الحقيقية ، ونزعته الأصيلة الى التأمل والتفكير . فكانت أزمة خرج منها شاعرُ الأمس الخالص الى فيلسوف الغد الشاعر . فبينما كان بالأمس ينظر الى الأشياء نظرة الفنان لا يعنيه

منها الا أن يسجلها بعبقريته الشعرية ، كما تسجل شبكية العين ما يقع عليها من صور المرئيات التى تنطبع عليها من الخارج ، بدأ اليوم ينظر الى الأشياء نظرة أخرى : ينظر اليها نظرة من يحس باحساسها ، وينفذ الى باطنها ، ويجمع بينه وبينها .

وكانت كذلك سنة ١٨٤٥ بالنسبة الى رينان .

فطالب اللاهوت الذى كان يدرس فى معهد سان سلپيس الدينى لكى يتخرج من بعد قسيساً ، لم يستطع البقاء فى هذا المعهد ، لأن شكوكه الدينية قد طغت عليه ، ولم يعد يؤمن بالمعجزات ولا بالكثلكة ، وأصبح ينظر الى المسيحية نظرة جديدة لا تتفق مطلقاً مع نظرة القسيس . لأن النقد التاريخى قد زعزع ايمانه بالكثير من المعتقدات التى تلقاها عن شيوخه القساوسة ، بل كاد يعصف بها كلها ، تاركاً فى حياته النفسية الباطنة فراغاً عميقاً وهوّة سحيقة ، وصفهما وصفاً رائعاً فى « ذكريات الطفولة والشباب » .

أما نيتشه فقد عانى أزمته الروحية سنة ١٨٦٥ ، وهو فى سن الحادية والعشرين .

كان الفتى المراهق آنذاك فى مدينة بون ، يقضى السنة

الأولى من سنى دراسته الجامعية . وكان يحيا من قبل حياة عادية لا تخلو من اللهو والصخب ، كما هو شأن حيـاة الطلاب الألمـانيين ؛ وكانت كحياة غيره من الناس : تافهة، لا جلال فيها ؛ هادئة ، لم تعرف المغامرة ؛ راتبة ، لم تتخللها المفاجآت . ولم يكن فيها شىء ينبىء بما سيكون عليـه مستقبله الحافل من وحشة ونضال وجلال .

حينئذ استيقظ فيه شيطانه وصاح به : أناتك ، فقـد خُلقتَ لغير هذه الحياة .

بدأ الفتى يراجع ماضيه ، ويتأمل هذه الحياة التى قضاها حتى الآن . فعاد اليها يستعرض أمام مخيلتـه شريطهـا السينمائى ، ويحدق فى مناظره . ولكنه لا يكاد يجد شيئاً يسترعى النظر ، ويصلح أن يكون ارهاصاً لرسالته المقبلة.

لقد ولد فى الخامس عشر من شهر أكتوبر سنة ١٨٤٤ ، وأجراس الكنائس تدق دقاتها العميقة الشجية ، احتفالا بعيد ميلاد ملك پروسيا ، فريدرش ڤلهلم الرابع ، الذى سمى المولود الجديد باسمه .

وقد نشأ نشأته الأولى فى وسط ناعم ، محوطاً بالنسوة ، لأن أباه قد مات وهو فى سن الخامسة من عمره . فكانت

تربيته تربية رخوة مائعة ، وكانت طفولته طفولة حالمة ذاهلة، لم تجد الأب الذى يصوغها فى قوالب منظمة محدودة الجوانب ، قوية الأطراف ؛ فهربت من عالم الواقع الى عالم اللانهاية ، أى عالم الموسيقى ، الذى طرق أبوابه منذ نعومة أظفاره ، ووجد فيه ملجأ هادئاً احتمى فيه طوال حياته حين يعوزه الهدوء ، ويعصف به القلق العنيف والثورة الجامحة.

وكان حظه فى هذا كله حظ هيلدرلن ، الشاعر الألمانى الفذ ، الذى كان شعره رفيقاً لنيتشه فى صباه . فقد نشأ فى وسط نسائى كهذا الوسط الذى ان ترك أثراً فهو النزعة الدينية العميقة . أما النسوة اللائى قمن بهذه العملية فكن أمه وعماته .

ولم يكن من رفيق فى المنزل يقاربه فى السن الا اخته أليصابات ، التى لعبت دوراً هاماً فى حياة نيتشه كلها وبعد وفاته . وكان أثرها فى حياته لا يعدِله الا أثر هنريت ، أخت رينان ، فى حياة أخيها . وكان لها الفضل فى حفظ كثير من آثار أخيها فى شبابه ؛ ولولاها لما عرفنا من حياته الشىء الكثير ولأعوزتنا الوثائق القيمة الحقيقية .

وبعد وفاة الأب هاجرت الأسرة الى مدينة ناومبرج سنة ١٨٥٠ ، وفيها أتم نيتشه دراسته الابتدائية .

أما دراسته الثانوية فقد تلقاها فى مدرسة « البفورتا » القريبة من ناومبرج ، وكانت مدرسة ملحقة بأحد الأديرة .
وبعد أن أتم هذه الدراسة التحق بجامعة بون فى أكتوبر سنة ١٨٦٤ ليدرس اللاهوت والفيلولوجيا .

وها هو ذا الآن فى سنة ١٨٦٥ يتأمل السنوات التى قضاها حتى الآن ؛ فلا يجدها كلها الا سنوات عبث وطفولة ، كانت آخرها سنة ١٨٦٤ ـ ١٨٦٥ التى قضاها فى جامعة بون ، وهى السنة التى شبهتها أخته فى كتابها بحالة النوم والأحلام التى نضجت فيها القوى التى ستتكوّن منها شخصيته الحقيقية فى المستقبل ولم تكن تنتظر الا ايقاظها من هذا النوم وتلك الأحلام . والواقع أن نمو نيتشه طوال هذه السنوات كان بطيئاً متأخراً .

تأمل الفتى هذا كله ، فأحس بأزمة عنيفة تسرى فى جميع أعضائه . وأيقظ شيطان عبقريته ـ وكان كامناً صامتاً حتى ذلك الحين ـ ودفعه الى البحث عن سبيله الحقيقى . فليست حياة الطلاب التى يحياها ، وليس تحصيل العلم وحده والنجاح فى السلك المدرسى التعليمى طريقه الحقيقى فى الحياة ، ولا من أجل هذا كان وجوده .

ألا ان له لرسالة كبرى فى الحياة لا بد أن يعد عدته لها ، ويبدأ السير فى الطريق اليها .

وعكف الفتى على نفسه ، يريد أن يجدها ، بعد أن فقدها ولم يكن يدرى بها طوال سنوات حياته السابقة ؛ ويحاول أن يدرك ذاته وجوهره ، ويؤمن بشخصيته . واذا به يغوص في أعماق ذاته مرات ومرات حتى استطاع فى النهاية ، وبعد كثير من العنت والارهاق ، أن يكتشف ذاته ، وأن يعلم أن هذه الذات تقتضى منه أشياء ، أما ما هى هذه الأشياء ، وما هى الرسالة الحقيقية التى عليه تحقيقها ، فهذا ما لم يستطع الفتى أن يعرفه بعد . ولكنه كان يشعر شعوراً قوياً ملحاً بأن حياته فى حاجة الى انقلاب ، وأن له رسالة معينة فى الحياة ، وأن القدر قد اختار له سبيلاً لا بد أن يسلكها ، ومصيراً لا مناص من أن يلقاه .

وكان فى نفسه ابان هذا كله جذب وتدافع وتوتر وارتخاء وهجوم وتراجع ، انتهى كله بأن بدأ السير فى طريقه الجديد .

وهذه العملية قد تمت كلها ومثلت روايتها على مسرح نفسه الداخلى ، دون أن يكون فيها من المناظر ما يثير الخاطر بعنف ، ودون أن تنتهى الى مأساة عنيفة كما حدث عند الكثيرين غيره من رجال الفكر والفن ابان هذه العملية ، وتلك الأزمة الروحية ، حتى انها لم تحدث لغطاً ،

ولم يكن لهـا من المظاهر الخارجيـة الا خطابه الحـاد اللهجة ، الذى أرسله الى جمعية « فرنكونيـا » معلنـاً استقالته منها ، وكانت هـذه الجمعية مكونة من زملائه الطلاب فى جامعة بون ، حتى ان واحداً من الناس لم يكد يلحظ هذه الأزمة ، ولا أن يتابع تطورها على أقل تقدير .

وان شيطانه الجديد ليهمس به الآن أن : اذهبْ الى جامعة ليپتسج ، وغادر جامعة بون ، ففى ليپتسج قد هُيئت لك العوامل التى سيتقرر بها مصيرك .

صـــداقة ماكرة

« على كل فرد ذى مواهب
أن يبدأ بأن يفنى نفســـه فى
شخص رجل عظيم ، ان كان
يريد حقـــاً أن يدرك ذاته ،
ويستخدم قواه على الوجـــه
الصحيح » .

هيبل

هيأ القدرُ الفرصة للفتى كى يستجيب لنداء شيطانه ، وهو يهيب به أن يذهب الى ليپتسج للدراسة فى جامعتها .

ففى هذه السنة عينها ، ثارت مناظرة شديدة بين أستاذين من أساتذة جامعة بون حول احدى المسائل الفيلولوجية ، وهما الأستاذ رِتْشِل والأستاذ يان . واحتدم النزاع بين الاثنين احتداماً عنيفاً ، اضطر معه رتشل أن يغادر جامعة بون ، وأن يذهب الى جامعة ليپتسج .

وكان نيتشه معجباً بأستاذه رِتْشِل كل الاعجـــاب . وكان يستفيد من درسه فائدة جُلىًّ ، فلم يستطيع الا أن يتبع أستاذه فيرحـــل واياه من جامعـــة بون الى جامعـــة ليپتسج .

ولم يكن يعلم ، وهو يسافر الى ليبتسج ، أن القدر قد قصد من هذا السفر شيئاً أو بيَّت أمراً . لم يكن يدرى أن جزءً مهماً من مصيره سيتقرر فى هذه المدينة ، كما تقرر جزء كبير من مصير جيته فى مدينة استراسبورج . وماأقرب الشبه بين الرجلين فى هذا الصدد ! لقد ذهب الاثنان الى هاتين المدينتين ليتم كل منهما دراسته العليا : جيته فى القانون ، ونيتشه فى علم الفيلولوجيا . هذا ما ظناه فى أول الأمر . ولكن العناية الالهية رمت الى ما هو أبعد من هذا وأعمق .

أرادت أن يكون من نتائج هذا السفر أن يلتقى العبقريان كلٌ بالشخصية التى ستؤثر فى حياته أشد التأثير ، فيكون هذا الالتقاء نقطة تحول خطيرة فى التطور الروحى لكل من الرجلين . أرادت منه أن يكون وسيلة يستطيع بها جيته أن يلتقى بهِرْدَر ، ونيتشه أن يلتقى بڤجنر .

وياله من حادث ضخم فى حياة نيتشه ، هذا التعرف الى ڤجنر ! فلئن قال النقاد عن جيته انه لولا التقاؤه بهردر لما وصلت عبقريته الى ما وصلت اليه من سمو وعظمة ، فأولى بهذا الكلام أن يقال عن نيتشه والتقائه بڤجنر . بل ان التقاء نيتشه بڤجنر كان أعمق وأشد تأثيراً ، وكان

الأداة الكبرى التى استعان بها القدر ليخلق من نيتشه عبقرياً على النحو الذى كان عليه . حتى ان واحداً من النقاد لم يشكّ لحظة واحدة فيما كان لهذا الالتقاء بقجنر من أثر ضخم فى تغيير مجرى حياة نيتشه الروحية ، بينما النقاد منقسمون فيما بينهم حول قيمة هذا التلاقى بين جيته وهردر . فمنهم من غالى فيها ، ومنهم من ذهب الى الحط منها ، فقال ان اتصال جيته بهردر لم يفتح أمام جيته آفاقاً جديدة لم تكن لتفتح أمامه لولاه ، بل كان من الممكن أن يفتح جيته هذه الآفاق بنفسه ، لأن الأفكار التى بثها هردر فى نفس جيته كان معظمها يحلق فى الجو الذى خلقته حركة العاصفة والاندفاع .

وتفسير هذه الظاهرة فى حياة الرجلين سهل بسيط .

فالعباقرة جميعاً محتاجون فى مستهل حياتهم الى التأثر والاعجاب باحدى الشخصيات العظيمة . محتاجون الى هذه الشمس الوهاجة التى يستمدون منها النور ، وهم فى بداية حياتهم الروحية ، وفاتحة سبيلهم لتحقيق رسالتهم ، والسعيد منهم من يستطيع أن يظفر بهذه الشخصية من بين معاصريه ، لأنها تكون حينئذ شخصية حاضرة حية تؤثر تأثيراً أكبر ألف مرة من تأثير الشخصيات التاريخية .

فى هذه الشخصية يفنون فى بادىء الأمر ، ويسعدهم كل السعادة أن يكونوا لها خداماً تابعين ، كالكواكب حول الشمس . فتراهم لا يودون الانفصال عنها ، وتراهم دائبين حولها ، يتغنون بها ويحاولون جهدهم أن يصوروها على مثال النموذج الأعلى المرتسم فى مخيلتهم عن البطل والأبطال .

فأفلاطون يستهل تطوره الروحى بالتعلق بشخصية سقراط وعدم الافتراق عنها ، ثم تصويرها بألوان زاهية ، ترتفع بها من عالم الواقع والحقيقة الى عالم آخر هو عالم خياله ، وعالم الصوَر الذى نادى به . واذا بشخصية سقراط تصبح من المرمر الناصع ، لا يكاد يشاهدها واحد ممن رأوها رأى العين ، الا وينكرها ، ويصعب عليه تعرّفها .

ثم لا تلبث الأجيال القادمة أن تشعر بشىء من عدم الاطمئنان بازائها ، وتثور الهواجس فى نفسها بالنسبة اليها ، فتشك فيها . وقد تغالى فى هذا الشك فتنكر وجودها .

وجيته لا يكاد يرى ِهرْدر حتى يصيح به : « كيانى قد اهتز كله ... هردر ، هردر ، كن لى دائماً كما أنت

الآن . ولئن قد قدر لى أن أكون كوكباً يدور حولك ، فأنا أريد بكل قــواى أن أكونه ، وأن أكونه فى سرور وباخلاص ... وداعاً أيها الرجل العزيز لدىَّ الأثير عندى ! لن أغادرك عوضُ . لا ، لن أغادرك ! » .

ولكن ، أحقــاً يريد هؤلاء الكواكب ألا يغـــادروا شموسهـــم التى اختاروهــا ؟ وهــل هم مخلصون فيما يقولون ؟

كلا ! لا تصدقهم ، فنشــوة الفنــاء فى أبطالهم ليست الا حيلة ووسيلة ، وقناعاً يستتر به شيطان عبقريتهم عمله الحقيقى . انما يفنون فى هؤلاء الأبطال ، لكى يخرجــوا من بعــدُ ، وقد اكتشفوا شخصــياتهم هم أنفســهم . ولا مناص لهم فى أول الأمر من هذا الفناء كى يستطيعوا من بعد أن يقبضوا على ذواتهم ، ويستخرجوهــا قــوية عميقة ، شاعرة شعوراً قوياً بجوهرها ووجودها . فهم ان غاصوا فى بحار أبطالهم ، فليس ذلك كى يغرقوا فيهــا ، بل ليخرجوا منها وفى أيديهم لآلىء نفوسهم المفقودة .

لا تصدقهم ، والا فما بالهم يتنكرون لهؤلاء الأبطــال بعد حين قليل . لايكاد الريش ينبت فى جنــاح واحــد منهم ولا يكاد يبدأ الشعور بذاته ، والاحساس بجوهر

نفسه ، حتى يتحلل من اعجابه ، ويتنكر لصاحبه ، تنكراً يتخذ مظاهر شتى : فمنه ما هو حاد عنيف يكاد أن يصل الى درجة المأساة ، ومنه ما هو خفيف مقنَّع صادر عن لباقة واتزان – حسب طبيعة كل عبقرى من هؤلاء الهائمين المتفانين .

ماكرون والله ، يمكرون بأصحابهم ويخدعونهم عن أغراضهم . ولكن مكرهم ليس مكراً سيئاً يحيق بهم ، لأنهم أهله ، وانما هو مكر شريف خصب .

وعلى ضوء هذا التحليل لهذه الظاهرة الفذة فى حياة العباقرة الروحية نستطيع الآنأن ندرس صلة نيتشه بفجنر.

عرفه نيتشه أول ما عرفه فى ٨ نوفمبر سنة ١٨٦٨ بمدينة ليپتسج التى ذكرنا آنفاً أن نيتشه قد انتقل اليها ليتم دراسته فى جامعتها ، فكان اعجاب" شديد وحماسة فياضة، وتأثر عميق ، وهزة كالهزة التى تحدث عنها جيته مشيراً الى هردر .

ورسائله طوال هذه الفترة ليست الا تعبيراً حاراً ووصفاً مشتعلا لهذا الوجدان الملتهب الذى ملأ حياة نيتشه الباطنة بتأثير معرفته وصلته بفجنر . فها هو ذا يصف الأثر الذى تركه فى نفسه حينما رآه ووُجد فى حضرته :

« لقد وجدت رجلاً لا يستطيع رجل آخر غـيره أن يوحى الىّ بصورة هذا الذى يسميه شوپنهور عبقرياً ... وهذا الرجل هو بكل بساطة رتشرد ڤجنر ... وان واحداً من الناس لا يعرفه ، وليس فى مقدوره أن يقـدُره حق قدره ، لأن الناس جميعاً يبدأون من أساس غير أساسـه هو . وتراهـم يشعـرون بشىء من الضيق والغرابة فى وجوده والجو الذى يخلقه من حوله . ان روحه تسودها مثالية مطلقة ، وانسانية عميقة ، وفيها جـلال رائع . وكل هذا يشعرنى ، وأنا بالقرب منه ، بأنى فى حضرة اله » .

وكلما مرت الأيام زادت حماسته ، واشتعل حبه لبطله الذى وجد فيه أكبر ممثل لعصره .

ووجد فيه الفنان الحقيقى الوحيد الذى حقق نظـرية شوپنهور فى الفن ، كما حققها فى العبقرية .

ووجد فيـه فسفة شوپنهور تسعى على قـدمين ، متجسدة فيمن آمن بها ، واستطاع أن يحياها فى نفسه وفى انتاجه ، حتى كانت مجرد صلته بڤجنر دروساً عمليـة فى فلسفة شوپنهور ، كما ذكر هو عن نفسه .

وكان نيتشه لا يزال واقعاً تحت تأثير فلسفة شوپنهور، يلخص فيها كل نظرته فى الحياة ابان ذلك الطور من أطوار

حياته الروحية . فكان طبيعياً اذاً أن يعجب بڤجنر ، هذا الذى جعل لفلسفة شوپنهور جسماً يسرى فيه الدم ، وتشيع فى أجزائه الحياة . حتى ان نيتشه لم يكن يستطيع التفرقة بين الفيلسوف وبين الموسيقى : فحين عرف ڤجنر ، بدأت شخصية شوپنهور فى الزوال ، لأن صورة أخرى حية قد حلت محلها ، هى صورة ڤجنر . واستمرت فى الزوال حتى أصبح اسم شوپنهور قناعاً فقط يخفى من ورائه ڤجنر فى الكتاب الذى كتبه عن « شوپنهور المربِّى » .

ويالها من تجربة روحية خطيرة فى حياة الشاب الذى كان عمره يقل عن عمر بطله وصديقه بمقدار ثلاثين سنة ! لقد اهتز كيانه كله ، وتطور تطوراً عظيماً ، كان نقطة تحول خطيرة فى طريق حياته الروحية .

لأن الميزة الجوهرية الأولى للفن ، كما نظر اليه نيتشه الشاب ، هى قدرته العظيمة على احداث التطور الروحى . فللفن مقدرة سحرية هائلة على فتح آفاق روحية جديدة ، وتهيئة صورة من صور الوجود جليلة سامية ، يستثيرها بما له من قوة ايحاء هائلة .

وفن ڤجنر يملك هذه الميزة الى أعلى درجة ، حتى كان نيتشه يعتقد أن موسيقى ڤجنر ، كما خيلت اليه حينذاك ،

قادرة على تجديد الحضارة كلهـــا ، بل على خلق حضارة سامية جديدة .

ففى خطاب أرسله الى صديقه ارڤن رودِه ، بعد أن شــهد الحفلة الموسـيقية الڤجنـرية الكبرى فى مانهيم سنة ١٨٧١ يقول : « حينما أتخيــل أن بضــع مئات من الناس فى الجيل المقبل يشعرون من الموسيقى بمثل ما أشعر به أنا منها ، أتنظر حضارة جديدة كل الجدة » .

وكان أول أثر لها فى حياة نيتشه الروحية أنها جددتهـا وجعلتها تتطور تطوراً سريعاً عميقاً معاً . فأصبحت جهوده الفلسفية والأخلاقية والعلمية تتجه كلها نحو غاية واحدة ، وصار من بعدها رجلاً « جامعاً » ، على حــد تعبيره أى رجلا ينظر الى الحياة كلها بجميع ما فيها من قوى ومظاهر للنشاط كوحدة واحدة ، تشيع فيها روح واحــدة ، اذا فهمها المرء وضع يده على سر الحياة . فتكونت له من هذا نظرة جديدة ، وأسلوب طريف فى ادراك الأشياء . واذا به ينظر الى التاريخ اليونانى والروح اليونانية وقد ظهرت له تحت ألوان زاهية جديدة كما تظهر الأشياء تحت ضــوء الشمس الساطعة ، بعد أن كان يعلوها ضباب كثيف وبخار معتم رطب ، فى جو ممطر ملبد بالغيوم كثــير العواصف والتغيرات .

هذه النظرة الجديدة ، وهذا الوحى الذى هبط عليه من ڤجنر هو الذى بدا فى أول كتاب أخرجه تحت عنوان « نشأة المأساة عن روح الموسيقى » . وفيه استطاع أن يكشف عن الروح اليونانية ، ويميط اللثام عن جوهرها .

وكان هذا الكتاب اشادة بفن ڤجنر وتحليلاً عميقاً له ، وأول شهادة حب واعجاب قدمها الفتى المتحمس للبطل الذى اختاره ، أو على حد تعبير نيتشه كان « حواراً بينه وبين الفنان العظيم رتشرد ڤجنر » .

ولكن الكتاب لم يكن هذا فحسب ، بل كان شيئاً آخر أخطر من هذا وأجلّ بالنسبة لحياة نيتشه الروحية . ففيه يبدو نيتشه لأول مرة ، وقد استطاع أن يجد نفسه ، ويكتشف ذاته ، وأن يسأل نفسه : « من أنا ؟ » ، ليعرف الرسالة التى من أجلها وُجد . « هل يعلم الناس أية مهمة تجاسرت على القيام بها عن طريق هذا الكتاب ؟ ... لقد كان الاله ديونيزوس يتحدث الىّ ... » .

آه ! ويل لڤجنر من نيتشه ابتداء من هذه اللحظة ! ان فتاه يسائل نفسه هذه الأسئلة: «من أنا ؟»و«من سأكون؟» وفيها يكمن الخطر على اعجابه به . لم ينطق بها واحد من هؤلاء المعجبين المتفانين فى أبطالهم ، الا وكان ذلك أول خطوة فى سبيل التنكر لهم ، ثم التحرر نهائياً من نيرهم ،

تبعا للنظرية الى عرضناها ، والظاهرة التى حللناها بين يديك من قبل .

وكان ذلك فى سنة ١٨٧١ .

بدأ الفتى يشعر بنفسه شعوراً غامضاً فى بادىء الأمر ؛ ولم يلبث أن ألح عليه ، وعذبه ، ولم يكن فى استطاعته دفعه ، لأنه قانون طبيعى فى حياة العباقرة ، ولا بد أن يتخذ مجراه . ومهما أقام الانسان منهم الحواجز لصده ، فانه لا يلبث أن يتجمع ويتجمع ، ويزداد فورانه والطاقة الكامنة فيه ، ثم يقوى قوة لا يستطيع الوقوف أمامها أى حاجز يصطنعه الانسان .

هذا شعور ايجابى يعمل فى جانب واحد من جانبى النفس . وفى الجانب الآخر منها لا بد أن يعمل شعور آخر ، يسير موازياً للشعور الأول وفى حذائه . وهذا الشعور الآخر هو الشعور بالتنكر لبطله الذى فنى فيه ؛ فهو شعور سلبى اذاً . وكلا الشعورين متضامن من أجل شىء واحد ، هو الشعور بالذات شعوراً ممتلئاً عميقاً .

أما الشعور الأول فقد سار فى طريقة نحو توكيد الايمان فى نفس الفتى بالرسالة التى نيط به تحقيقها ، تحدوه الروح

الديونيزوسية التى اكتشفها وحللها فى هذا الكتاب ، وتحت شفاعة الاله ديونيزوس . ولندع هذا الشعور لكى نلتقى به فى المستقبل ، فنرسم المنحنى الذى سار فيه الى أن يبلغ قمته حين اكتشف نيتشه النبى زرادشت ، ثم انحدر واياه من أعلى الجبل كى يبشر الناس بالوحى الذى أتاه .

ولنتتبع الآن الشعور الآخر ، شعور التنكر .

بدأ هذا الشعور عمله منذ السنة التى ذكرناها آنفاً ؛ وكان مسرحه فى أول الأمر سراديب نفس نيتشه الخفية . وظل ينمو قليلا قليلاً حتى أتم النمو فى مستهل سنة ١٨٧٤ . وكان أشبه ما يكون بمرض السرطان : يبدأ فى نقطة صغيرة لا تتجاوز رأس الدبوس ، وفى مكان خفى لا يدرى به الانسان ولا الطبيب . ولا يلبث أن يزداد قليلاً قليلاً حتى يبلغ درجته الخطيرة . وهنا ، وهنا فحسب ، يبدأ يشعر به الانسان .

وهكذا كانت الحال بالنسبة الى شعور التنكر فى نفس نيتشه نحو بطله رتشرد ڤجنر . كان اعجابه بڤجنر مرتبطاً باعجابه بفلسفة شوپنهور أولا وبالذات ، كما ذكرنا من قبل .

وكان مرتبطاً ثانياً وأخيراً بثقته فى العصر ، الذى كان ڤجنر أعظم ممثليه ، وأكبر عبقرية فيه .

أما فلسفة شوپنهور فقد بدأ نيتشه يدرك مواطن الضعف فيها وخطأ النتيجة التى انتهت اليها والمقدمة التى ابتدأت منها . ثم عكف على نقدها ، معارضاً اياها بنظريته هو فى الارادة ، كارادة للسيطرة والقوة ، لا للحياة كما يقول شوپنهور ، ونظريته فى الحياة بوصفها قيمة فى ذاتها ، لا شرًّا مطلق ، كما انتهى الى القول به تشاؤم شوپنهور . وما لبث اعجاب نيتشه بفلسفة شوپنهور أن تبدد كله ، ولم يبق عنده بازائه الا الاعجاب بشخصيته ، هذا الاعجاب الذى لازم نيتشه طوال حياته ، على الرغم من كل ما بين فلسفة الرجلين من خلاف بيِّن كبير .

أما ثقته بالعصر فقد كانت فى بادىء الأمر ثقة لاحد لها ، فكان يحلم بامكان ايجاد حضارة جديدة سامية فى هذا العصر ، حضارة ديونيزوسية « ناشئة من روح الموسيقى » الڤجنرية ، وقائمة على أساس الحضارة القديمة ، ومستمدة روحها من فلسفة انسانية خالصة . وكان يقول انه ليكفى أن يفهم بضع مئات من الناس موسيقى ڤجنر على النحو الذى فهمها هو ، لكى تقوم هذه الحضارة الجديدة .

وجاء مشروع مسرح بايرويْت فصفق له نيتشه تصفيقاً حاداً ، لأنه وجد فيه تحقيق الحلم الذى كان يطارده ، وهو انشاء أكاديمية يربى فيها هؤلاء المائة أو البضع مئات من الناس على أساس روح موسيقى ڤجنر لكى يقوموا بخلق الحضارة الجديدة . ولكن لم يكد المشروع ينفذ حتى شعر نيتشه بخيبة أمل عظيمة . فبدل أن يجد هؤلاء المائة فى بايرويت ، وجد هناك مئات ومئات من صعاليك الأغنياء ، ومن المهرجين الدجالين الذين كانوا يصفقون لڤجنر لا عن فهم لموسيقاه ، ولكن لأن التصفيق حركة من الحركات اللازم القيام بها فى عُرف التقاليد المسرحية !

ذهب الى بايرويت لآخر مرة سنة ١٨٧٦ ، ولم يكد يدخلها حتى كر راجعاً ، وقد امتلأت نفسه يأساً من ڤجنر وفن ڤجنر . وامتلأ يأساً ، بالتالى ، من امكان تحقيق هذا الحلم الذى داعبه ، حلم ايجاد حضارة سامية جديدة .

يئس من ڤجنر لأنه بدل أن يرى منه فناً حقيقياً ، رأى روحاً مسرحية هزلية ، ورأى فيه ممثلا هزليا ، لا بالنسبة للموسيقى وحدها ، بل بالنسبة الى نفسه كذلك . لقد أصبح ڤجنر بالنسبة الى نيتشه مهرجاً عبقرياً تنقصه

المواهب العقلية ، وعرّافاً مخدوعاً ، ودجالاً شعبياً لا ضمير عنده ، فى ميدان الفن بل وفى غيره من الميادين .

ويئس من العصر لأن ڤجنر أكبر عبقرية تمثله . فكل حكم يجرى على ڤجنر ، يجرى على العصر .

وطالما ظل مؤمناً بڤجنر ، فهو يؤمن بالعصر ؛ وحينما ينقده ، فهو فى نفس الآن ينقد العصر .

هذه العوامل الثلاث كلها ، ونعنى بها : أولاً ابتداؤه الشعور بذاته شعوراً قوياً ؛ وثانياً ذهاب ايمانه بفلسفة شوپنهور ؛ وثالثاً الروح المسرحية الهزلية التى أبداها ڤجنر فى مسرح بايرويت ، وبالتالى تبدد أمل نيتشه فى خلق حضارة ديونيزوسية جديدة عن طريق موسيقى ڤجنر ؛ هى فى نظرنا نحن العوامل الحقيقية التى أحدثت الشقاق بين نيتشه وڤجنر ، ودفعت الفتى المتفانى الى هجر بطله ، بل والى تجريده من صفة العظمة التى طالما سخا بها عليه من قبل حتى قال : « هو رجل عظيم ؟ أنا لا أرى فيه دائماً الا انساناً قد مثل مهزلة مثله الأعلى » . والعامل الأول من بين هذه العوامل الثلاثة هو العامل الأساسى ، والآخران عاملان مساعدان فحسب . وكل الأسباب الأخرى أو التفسيرات التى انتحلها النقاد حتى الآن ، غير كافية ولا مقنعة كل الاقناع .

وهكذا تمت الفرقة بين نيتشه وڤجنر سنة ١٨٧٦ .

لكن على الرغم من هذا كله ، فقد كتب نيتشه عن ڤجنر فى هذه السنة عينها كتاباً عنوانه : « رتشرد ڤجنر فى بايرويت » . والكتاب فى مظهره مدح لڤجنر واشادة بفنه. الا ان الذى يستطيع أن يقرأ بين السطور، سهل" عليه أن يكتشف ما يتضمنه الكتاب من نقد . بل ان الكتاب نفسه كان فى نظر نيتشه شيئاً آخر تماماً يتفق مع النظرية التى شرحناها آنفاً وجعلنا منها العامل الأساسى فى قطع صلته بڤجنر . فهو يقول عن هذا الكتاب : « ان كل المواضع الموجودة بكتاب « ڤجنر فى بايرويت » لاتتحدث الا عن نفسى أنا وحدى . وهى مواضع مهمة حاسمة من الناحية النفسية — وفى كل مكان يذكر النص فيه اسم ڤجنر ، يستطيع المرء أن يضع اسمى دون خجل ، اسمى أنا واسم زرادشت . فصورة الفنان الديونيزوسى ليست الا صورة سابقة للشاعر الذى كتب زرادشت (أى نيتشه) ، فهى مرسومة بعمق كعمق الهاوية السحيقة ، وليس فيها ما يقترب من حقيقة ڤجنر مرة واحدة . وڤجنر نفسه قد أدرك هذا حتى انه لم يستطع أن يتعرف نفسه فى هذا الكتاب ... وفى هذا نموذج لأغرب أنواع « الموضوعية »؛ فان يقينى المطلق بنفسى وماهيتى وحقيقته جوهرى قد

أنقذف بالصدفة على شخص ما حقيقى ـ وحقيقة نفسى قد انبعثت من عمق مخيف » .

فالكتاب اذاً لا يتحدث الا عن نيتشـه ، وليس ڤجنر الا كأشخاص الروايات ، استخدمه نيتشه كما استخدم أفلاطونُ سقراط من قبل : أى كقناع اختفى من ورائه ، وليس هو فى الواقع الا نيتشه نفسه ، وقد اكتمل شعوره بذاته ، أو كاد ، فاندفع يصور مستقبله ، والرسالة التى يُنتظر منه تحقيقها .

وياله من مستقبل شاق ، مِلئوه الوحشة والوحدة !

وياله من طريق وعر ، كان ينتظره فيـه صراع عنيف مع الآلهة والشياطين !

فنيتشه اذاً لم يتنكر لڤجنر لأن من شيمته الخيانة والغدر، أو لأن مرضاً عقلياً قد غزاه وبدأ يفعل فعله منذ أن كتب كتابه « انسانى ، انسانى جداً » ، كما ادعى خصومه من أنصار ڤجنر المتعصبين .

وانما كان هذا التنكر استجابة لرسالته الفكرية ، وتحقيقاً للغاية التى وجد من أجلها ؛ فكان الدافع اليه دافعاً جوهرياً صادراً عن طبيعة فكره ، ومقتضيات تطوره الروحى ، وكان

قضاءً لا مرد له ولا حيلة لنيتشه فى دفعه ، كى يستطيع أن يحقق المصير الذى ينتظره . فكان مرغماً عليه ، مضطراً اليه، لا اختيار له فيه . والا ، فقد كان يعلم أن هذه القطيعة بينه وبين ڤجنر ستسبب له الكثير من الآلام ، وتأتى بشتى صنوف العذاب : عذاب الوحشة ، وعــذاب عدم الاكتراث له من جانب الجميــع . فمنذ غادر ڤجنر ، ظل وحيداً ، لا يأبه له انسان ، ولم يعد ينعم من الناس حتى بنعمة الخصومة ، إن كان ثمت فى الخصومة نعمة .

وكان الرجلان يشعران بهذا ويدركان أن هــذه القطيعة ضرورة من ضرورات وجودهما ، وعليهما أن يستجيبا لها مهما تحملا من جرائها ، وأنهما مع هذا كله ذوا رحم روحى كُلاًّ بالآخر ، وأن المسألة التى وضعها كلٌ لنفسه، والمشكلة التى كان على كلٍّ أن يحلها،مسألة واحدة ومشكلة واحدة. ولا خلاف بينهما الا فى طريقة الحل والاجابة . وهذه المسألة هى مسألة : ايجاد الانسان السامى ، والرجل الذى بلغ أعلى درجة من الانسانية .

فليس عليهما اذاً ان ظلاَّ مع هذا صديقين ، على الرغم من اعتراف كل بأن طريقه يخالف طريق الآخرِ . أو هذا ما فهمه نيتشه ، وعبر عنه بقوله : « نحن ــ أصدقاءَ ــ لا يجمعنا

شىء ، ولكنَّ كلا منا يجد سعادته عند الآخر ، الى درجة أن الواحد منا يعين الآخر على السير فى اتجاهه ويغذيه ، حتى لو كان هذا الاتجاه مضاداً لاتجاهه ... وهكذا ينمو كلانا كالأشجار ، الواحدُ بجوار الآخر ، مستقيما متجهاً الى أعلى السماء ، لأننا نجذب بعضنا بعضاً » .

ولهذا ظل نيتشه يحب شخصية ڤجنر حتى آخر حياته ، ويشعر بألم عميق لهذه الفرقة . ولئن كان لم يندم عليها ، فلأنه كان يعلم أن ذلك كان قضاءاً لا بد من نفاذه كى تتحقق رسالته فى الحياة . فها هو ذا فى السنة الأخيرة من سنى حياته الواعية (أى حياته قبل اصابته بالجنون) ، وفى نفس الوقت الذى كان يكتب فيه أعنف نقد وُجه الى ڤجنر حتى الآن ، وهو كتابه « مسألة ڤجنر » ، يقول : « لقـد أحببت ڤجنر وأعجبتُ به أكثر من أى انسان آخر فى العالم » . ويقول من بعدُ ، فى نفس هذه السنة الأخيرة من حياته الواعية أى سنة ١٨٨٨ فى الكتاب الذى تحدث فيه عن نفسه وتفكيره تحت عنـوان « ها هو ذا الانسان ! » : « ان أعظم شىء أسعدنى وملأنى بأحبِّ أنواع السرور وأعمقه طوال حياتى، هو بغير أدنى شك معرفتى الشخصية الوثيقة بڤجنر . فكل صلاتى بغيره من النـاس أستطيع أن أضرب بهـا عُرض الحائط ؛ ولكنى لا أستطيع مطلقاً ، ولا أريد مدى الدهر ،

أن أغفل من حياتى أيام تِرِبْشِن (وهى القرية التى كان يأوى اليها ڤجنر فى أعلى الجبال بسويسرة ، والتى زاره فيها نيتشه وظلت هذه الزيارة مدة غير قصيرة) ، هـذه الأيام المليئة بالثقة والغبطة والفِعال السامية الجليلة ــ واللحظات العميقة . وان كنت أجهل ما كان بين ڤجنر وبين الآخرين ، فانى أستطيع أن أقـول ان سـحابة واحـــدة لم تمر فى سمائنا ... » وفى هذا مغالاة من غير شك ، ومخالفـة لمـا حدث فى الواقع ، ولكنه كان على كل حال شعور نيتشـه بازاء ڤجنر ، وليس الذنب ذنبـه ان كان هـذا الأخـير لم يبادله هذا الشعور .

ويقول مرة أخرى فى نفس هـذا الكتاب : « ما كان لى القدرة على احتمال أيام شـبابى ، لولا موسيقى ڤجنر ... وانى لأسميه أعظم من أفادنى فى حياتى . وما يصـل بينى وبينه بصلة القربى هو أنـّا تألمنا تألمـاً أعمق بكثير من كل تألم يقدر عليه رجال هذا القرن ، حتى لو جاء بعض هـذا التألم للواحد منا عن طريق الآخر . ويكفى هذا لكى يقرّب أبد الدهر بين اسمينا من جديد » . بل انه ظل على حبه له حتى فى سنوات جنونه وفقدان وعيه . فأخته تذكر أن اسم ڤجنر لم يكن ليـُنطق به أمامه فى ذلك الحين الا وكان يقول: « هذا الرجل ، لقد أحببته كثيراً » .

أما ڤجنر فقد قابل هذا التنكر من جانب نيتشه بصمت بارد ، يتناسب والسن التى كان فيها ، والاضمحلال الذى كان يَغْذُّ فى سيره اليه فى أواخر حياته .

وكان بين الاثنين وداع أخير فى مدينة سورنته سنة١٨٧٦، « هذا الوداع الذى فيه يفترق الواحد عن الآخر فى النهاية لأن الشعور وملكة التقدير لم يعودا على وفاق ، ولكنه يقرِّب مع ذلك بيننا وبين الشخص الآخر أكثر وأكثر ، فترانا نضرب السور الذى أقامته الطبيعة بيننا وبينه بقوة ونقرعه بعنف » .

وحـــدة ضرورية

« الفوارق الأبدية بين الانسان
والانسان تدفعنى الى الوحدة »

« آه ! لو كان فى استطاعتى اعطاؤك فكرة عن احساسى بالوحدة ! فلست أجـــد من بين الأحيـــاء ولا الأموات من أحس بأن بينى وبينه شبهاً وقرابة . وهذا مخيف ، مخيف جداً » .

أجل انها لمخيفة تلك الوحدة التى عاناها نيتشه ، وتجرع غصصها وآلامها ، منذ أن انقطعت الصلة بينه وبين ڤجنر ، الى أن مات فى أشد أنواع الوحدة هولاً وأبشعها صورة ، وهو وحدة الجنون .

وكأن عوامل الوُحدة والايحاش قد تآمرت كلها فى هذه السنة التى تمت فيها الفرقة بينه وبين ڤجنر ، فصرفت عنـــه المعجبين به من أنصار ڤجنر ، كما صرفت عنه أشد الخـــلان صلة وأقربهم منذ زمن بعيد اليه .

ففى هذه السنة ، ونعنى بها سنة ١٨٧٦ ، تزوج صديقه أوفرْ بك ، فافترقا الاثنان ولم يعودا يعيشان معـــاً بعد

أن ظلا معاً حوالى خمس سنوات . وتزوج أيضاً زميل دراسته الجامعية وأحب أصدقائه اليه ارڤن روده ، ففتر ما كان بين الاثنين من حب ، وخمد لهيب العاطفة الذى كان يتأجج فى نفس روده لصديق صباه ورفيقه الذى لم يكن لينفصل عنه لحظة واحدة طوال سنى دراسته فى ليپتسج ؛ وكانا ، كما قال عنهما زملاؤهما ، كابنى الاله چوپيتر : كاستور وپولكس .

وكلما مرت الأيام زادت وحشته ، وازداد تنكر أصدقائه له ، ولا يكاد يخرج كتاباً جديدا ، حتى يكلفه ذلك فقدان صديق ، وقطع صلة . ففى سنة ١٨٧٨ حينما أخرج كتابه « انسانى ، انسانى جداً » ، أعلن ڤجنر اشمئزازه منه ؛ وشعر روده بالكثير من الدهشة والاستغراب بازاء صديقه ، حتى كاد ينكره انكاراً تاماً .

وعلى هذا النحو استمر نيتشه يفقد الأصدقاء ويبتعد عن حياة الناس وعلاقاتهم ، حتى أصبح فى الأيام الأخيرة فى شبه عزلة تامة عن كل العالم . ولم يعد الناس يحفلون به ولا يقرأون واحداً من كتبه . ولم يعد الناشرون يقبلون أن يطبعوا كتبه ، فكان يضطر الى طبعها بنفسه ، منفقاً فى هذا الطبع المال الضئيل الذى عانى فى اقتصاده أشد أنواع

الحرمان ، أو الذى يعطيه له بعض المشفقين عليه كى تطبع هـذه الكتب . بل لم يقتصر أمر الاهمال وعدم الاكتراث على جمهور الناس ، وانما امتد أيضاً الى من بقى له من الأصدقاء . فلما طبع الجزء الرابع من كتاب « زرادشت » ، لم يستطع أن يطبع أكثر من أربعين نسخة ، وحتى هـذه النسخ الأربعون لم ير من بين السبعين مليوناً ألمـانياً ، الا سبعة فحسب يهدى الكتاب اليهم ليقرأوه ! كل هـذا على الرغم مما اصطنعه من حيل واتخذه من وسـائل كى يجذب اليه القراء : من اتخـاذ أسلوب أدبى كله موسيقى سـاحرة ، لا يكاد يقرؤه المرء أو يسمعـه الا وتذهب به النشوة كل مذهب ؛ ووصف الأشياء وصفاً شعرياً بديعاً ، فيه عاطفة وفيه حرارة ، مع أن ما يكتبه هو فى الفلسفة ، أى فى أشد الموضوعات بعداً عن الشعر والموسيقى والبيان ؛ حين يعرضها صاحبها .

ولكنه فى كل مرة ، وعند كل كتاب ، لم يكن يرى غير الوحدة تزداد ، والاهمال يتضـاعف ، والانصراف عنـه يتسع ويمتد الى آفاق لم يكن يتصور أن يمتـد اليهـا ، فيزداد ألمه ، ويشتد غضبه . وليس آلم للنفس وأدعى الى الحزن والأسى من عدم الاكتراث ، خصوصاً بالنسبـة الى من يعملون أو يكتبون ويفكرون فى تفان مطلق واخلاص

لاحد لهما . وكل سلاح وكل عداوةِ لا قيمة لهما فى نظر العظماء من رجال الفكر أو رجال العمل اللهم الا هذا السلاح ، سلاح عدم الاكتراث : فهم فى مواجهته عاجزون كل العجز ، لا يستطيعون له صداً ولا دفعاً . فهو داء فتاك وحائط صامت يحاول هؤلاء أن ينطحوه ليوهنوه ، ولا يوهنون فى الواقع الا رءوسهم .

ذلك لأن عدم الاكتراث خصم سلبى ، لا قوام له يستطيعون أن يثخنوا فيه ، ويوجهوا اليه حرابهم . وليس صراعهم مع هذا العدو الهوائى اللامادىً ، الا كصراع الجندى فالنتين مع ابليس فى رواية « فاوست » لجيته : أى صراع الانسان مع جنى خبيث لا يستطيع أن يراه ، ولكنه مع ذلك يطعنه فى صميمه ، ولا يستطيع أن يرد طعناته أو يتجنبها على أقل تقدير .

وصرخات نيتشه فى هذا الصدد صرخات مؤلمة مؤثرة : « أن لا أسمع ، بعد دعوة صادرة عن أعماق نفسى مثل كتاب « زرادشت » ، أية اجابة أو كلمة رد أو صدى ، لاشيء ، لا شيء مطلقاً ، وأن لا أجد دائماً غير وحدة صامتة يتضاعف ألمها آلاف المرات ، فى هذا كله ما يفوق كل ما يستطيع المرء تصوره من فزع وهلع ، وان أعظم الناس قوة وأشدهم جلداً وصبراً ليمكن أن يقضى عليه منه » ..

وعبثاً يحاول أن يجد أصدقاء جديدين ، فيهم عِوَض عن أصدقائه القدماء ، ولكنه كان فى كل مرة يعود بخيبة أمل . فمنهم من لا يستطيع أن يملأ الفراغ الذى تركه ڤجنر ، كما هو شأن پول ريه ؛ ومنهم من يخدعه عن نفسه ولا يجد فيه التلميذ المنشود ، وانما يجد فيه واحدة من أولئك الفتيات الجامعيات اللائى يذرعن أوربا بحثاً عن زوج ، كما حدث مع لو أندرياس سالوميه ، هذه الفتاة الروسية التى عرفها بروما فى ربيع سنة ١٨٨٢ بواسطة صديقة پول ريه وصديقته ملڤيدا فون ميزنبوج ، وانفصل عنها نهائياً فى خريف هذا العام ، بعد أن ظن وظن معه صديقه وصديقته ، أنه سيجد فيها ، وهى الفتاة الممتازة بمواهبها العقلية ، تلميذة له ترضى نزعته الى الظفر بتلاميذ والحصول على أتباع لفلسفته ، يستطيع أن يسر اليهم بأعمق أفكاره ، ويدخلهم فى هيكل فلسفته المستورة .

ثم يرسل الى أصدقائه نداءً أخيراً :

« ... هؤلاء أنتم يا أصدقائى ! ــ آه !

ولكن هل أنتم لا تسيرون الىّ ؟

ماذا ! هل تغيرتُ فأصبحت انساناً آخر ، غريباً حتى عن نفسى ؟ ...

أتبتعدون ؟ ــ ايه أيها القلب ، لقد عانيت من هــــذا الشيء الكثير !

ولكنَّ أملكَ لا يزال قوياً بعد :
فدع أبوابك مفتوحة لأصدقاء « جديدين » !
... انهم أصبحوا « قدماء » ــ وهذا ما أبعدهم عنى
فان من يتطور هو وحده القريب منى ، ذو الصلة بى
ايه يا نهار الحياة ! أيها الشباب الثانى !
ايه بستان الصيف !
ايه أيها السرور القلق ، الذى فيه ينتظر المرء واقفاً يراقب ويترصد !

أصدقائى ، اننى لأنتظرهم آناء الليل وأطراف النهار

أىْ أصــدقائى « الجديدين » ! تعالوا الىَّ ! فهــذا وقتكم ! » .

ولكن واحداً من هؤلاء الأصــدقاء « الجــديدين » المنشودين لا يأتى اليه . فالناس جميعاً منصرفون عن هذا الذى زلزل قواعد حيــاتهم ، وكشف أوهامهــم ، وحطم أصنامهم ، وأظهر حقائق وجودهم الرهيبة ســافرةً أمام عيونهم ، عارية أمام نواظرهــم ، فتواروا عنهــا ، وعمن

ارتكب هذا العمل الفاضح خجلاً وعاراً مما رأوه فى أنفسهم .

ولا والله لم يكن يطمع من الناس أن يصفقوا له وأن يسبحوا بحمده . انما كان يريد منهم أن يهاجموه ويحاربوه ، فما أحب الكفاح والنضال الى نفس هذا الذى جعل من الجهاد الغاية من الحياة ، والذى كان يود دائماً أن يعيش فى خطر ! أو ليس هو القائل : « كى تجنى من الوجود أسمى ما فيه ، عش فى خطر ! » وليس أقتل لغريزة الجهاد فى نفسه من صمت الناس عنه وعدم قبولهم تحديه .

فأصبح وحيداً لا يجد من يصارعه غيرَ نفسه ، فأقبل عيها يناضلها ويشن عليها الغارات بعد الغارات . فكان ، كما قال ، « عارفاً بنفسه ، جلاداً لنفسه ، دون رحمة » .

وكانت السنوات الأخيرة من حياته الواعية سنوات وحدة ووحشة ، لم يعانِ مثلها رجل من رجال الفكر من قبل . فكان كما قال كير كجورد عن نفسه : « كشجرة الصنوبر المتوحدة ، منحازاً الى نفسى ، ومتجهاً صوب الطبقات العليا ، وقائماً لا ألقى ظلا ، وليس غيرُ الحمام الوحشى يستطيع أن يبنى عشه وسط غصونى » .

ولم تلبث هذه الوحدة أن انطبعت فى نفس نيتشه ، وأصبحت تلازمه ، كما أصبح هو يلازمها ، أو أصبحت على حد تعبيره « وطنه » الحقيقى : « أيتها الوحدة ، أيتها الوحدة ! أنتِ وطنى » .

والآن :

فهل صحيح أن هذه الوحدة « مخيفة كلَّ الخوف » ، كما ادعى نيتشه فى كلامه الذى صدرنا به هذا الفصل ؟ وهل كان يريد حقاً أن يتخلص منها ؟ أوَ لم يكن هو نفسه يقبل على هذه الوحدة فى شىء من الرضا والاغتباط ؟ أو لم تكن هذه الوحدة قدراً قُدِّر له أن يحياه ، كى يستطيع أن يحقق رسالته ؟ أو لم يكن يخلقها بنفسه ، حين يعز عليه أن يجدها ، وحين لم تكن تفرض عليه من الخارج فرضاً ؟

كلا ، كلا ! وبلى ، بلى !

كلا : لم تكن هذه الوحدة مخيفة كل الخوف بالنسبة الى نيتشه ؛ وان كانت كذلك ، لو كانت الوحدة التى عاناها عند واحد من الناس غيره .

كلا ، لم يكن نيتشه يريد أن يتخلص منها بأى ثمن ، وأن يحيا حياة اجتماع واتصال .

وبلى : كان نيتشه راضياً عنها فى أعماق نفسه ، وان لم يُظهر هذا للناس فى كل الأحيـان ، وان تملكه الضعف والتراخى ساعات قليلة ، فراح يشكوها ، ويندب حظه منها .

بلى ، كانت هذه الوحدة ضرورة من ضرورات تطوره الروحى ، واتتاجه الفكرى ، وخلقــه فلسفته ومذهبه وكانت لازمة له لكى يشعر بهــذا النــوع من الجـزع الخصب ، الذى يسمح وحــده للمفكرين أن ينفذوا الى جوهر الأشـياء وأن يصلوا الى قاع هو ات نفوســهم السحيقة .

وان نيتشــه نفســه لسرعان ما يتدارك خطأه ، أو ان شئت الدقة فقل تراخيه وضعفه ، فيقول مباشرة بعــد أن قال ما قال : « ولكن « الرسالة » التى أحيا من أجلهــا تتحدد خطوطها ، وتتضح أمام ناظرى . هى تتحدد وتتضح كواقعة محزنة كل الحزن ، لا تلبث أن يسمو بها شعورى بأن فيها جلالا ، ان كان ثمت جلال فى رسالة كائن فان » .

ذلك لأن الوحدة كانت دائماً ، وستكون أبد الدهر ، الجو الملائم وحده لنماء عبقرية المفكرين ، وكما قال رِلْكه فى « رسائل الى شاعر ناشىء » : « نحن (أى المفكرين

والشعراء وأصحاب الفن والفكر جميعاً) فى جوهرنا نعيش فى وحدة مخيفة لا تقدر » .

والوحدة نوعان ، تفرق بينهما اللغة الألمانية تفرقة واضحة فى كلمتين منفصلتين : فهناك الوحدة المؤلمة التى يجد المرء فيها نفسه ، كما هى حال من قذف به من طائرة وسط الصحراء وحيداً منفرداً . وهناك الاعتزال الاختيارى ، وهو الانسحاب الارادى الى دائرة وجوده ، وفيه يشعر المرء بنفسه وذاته شعوراً قوياً ، بينما هو فى النوع الأول يجد نفسه خارج الدائرة ، مشتت النفس ، موزعها فى العالم الخارجى القريب ، الذى وُجد فيه فجاءة دون أن يكون عالماً من قبل أنه سيوجد فيه .

والنوع الثانى ، وهو الانسحاب الارادى ، هو وحده الذى نعنيه هنا حين نتحدث عن الوحدة عند المفكرين وأصحاب الفن . فهو وحده الشرط الجوهرى لكل انتاج ، وكل خلق فكرى أو فنى . ولابد للفنان والمفكر أن يلجأ اليه وأن يخلقه خلقاً . وفى هذا يقول نيتشه : « كل من قدر له أن يذيع شيئاً جليلاً فى يوم من الأيام ، لابد له أن يظل وقتاً طويلا مطوياً فى داخل صمته . وكل من قدر له

أن يشعل البرق يوماً ما ، لابد أن يظل سحاباً مدة طويلة » .

وليس خلق هذا النوع من العزلة بالشيء الهين ، بل هو من أشق الأشياء على صاحب الرسالة ، يعانى من أجله الكثير من الصراع والنضال . ورِلكه فى هذا يقول : « لابد من قدرة كبيرة ، وقوة ، لكى يستطيع المرء أن يدخل فى ذاته ، وأن لا يقابل مخلوقاً غير نفسه طوال ساعات » . وهو يصف العوامل الأخرى الخارجية، التى لابد لمن يريد الوحدة وينشد العزلة أن يناضل واياها ،وصفاً بارعاً فى كتابه «دساتير مالتى لوْرِدْز برجه» (وهذا هو اسم بطل القصة) :

« حينما يتحدث الناس عن المتوحدين ، يظنون دائماً أنهم يعرفون أشياء كثيرة ، ويعتقدون أنهم يعرفون ما هو المقصود بهؤلاء . والواقع أنهم لا يعلمون شيئاً . وهم لم يروا فى حياتهم متوحداً واحداً انما هم كرهوه دون أن يعرفوه ، وكانوا جيرانه الذين أرهقوه وأصوات الحجرة المجاورة التى أغرت به ... وحين كان لا يحفل بهم ويفر منهم ، كانوا يذمون كل ما كان يصدر منه ويجدونه قبيحاً ينكرونه وتقتحمه عيونهم ... وكانوا

يرمونه بأنه مخلوق مصاب بمرض مُعْد ، يحصبونه بالحجارة كى يبتعد فى الحال . ولم تكن غريزتهم الراسخة مخطئة فى هذا الظن : لأنه كان عدوهم حقاً » .

وما أصدق هذا الكلام بالنسبة الى نيتشه !

والأنبياء وأصحاب الرسالات جميعاً كانوا يلجأون الى هذه الوحدة ويخلقونها لأنفسهم خلقاً ، خصوصاً فى الدور السابق على اذاعة الرسالة ، كما قال نيتشه فى كلامه السابق . فالنبى كان فى حاجة الى الوحدة قبل الرسالة ، فراح يلتمسها فى غار حراء . والمسيح اشتاق الى الوحدة ابان المحنة ، فذهب ينشدها فى البستان القائم فوق جبل الزيتون .

فاذا تقرر هذا ، فلنعدْ الى وحدة نيتشه كى نحللها ، ونفهم خصائصها ، وطبيعة صِلاته بالناس .

كانت رسالة نيتشه وادراكه التام لهذه الرسالة ، هما العاملين اللذين يشكلان علاقاته بالناس ، ويبينان الى أى حد يكون مقدار اتصاله بهم ، وعيشه عيشة ترابط واجتماع .

فاذا اتصل بالآخرين وتفـانى فيهم ، فذلك لأنه كان يعتقد أن الاتصـال بهم فيه تحقيق لخطوة من الخطوات المؤدية الى تحقيق الرسالة . وهذه هى الحـال بالنسـبة الى صلته بفجنر . فلم تكن هذه الصلة اذاً صـادرة عن رغبة فى الاتصال بالناس مجرد اتصال ، وانما كان الدافع اليها واجب تحقيق الرسالة .

وكان يشعر بضغط هذا الواجب عليه ضغطاً شديداً ؛ كما كان يحس بحرارة ، بوصفه انساناً ، وهو يؤديه. لكنه كان دائمـاً أبداً مضطراً الى التسليم والخضـوع ، لأنه صاحب رسالة ، وصاحب الرسـالة يضحى بكل شىء قد يعوقه عن تنفيذهـا ، فهو قضـاء وقدر لا منـاص من الاذعان له ، ان كان قد قدر له أن يكون قادراً على أداء الرسـالة . ونيتشـه يذعن دائماً لكل ما يراه قدَراً له ومصيراً ، وهذا ما يسميه هو « حُبُّ القدَر » ، ويقول عنه : « حُبُّ القدَر ، هـذا هو طبيعتى وأعمق أعماق جوهرى » . ويَعُدُّ هذه الصيغة صيغة العظمة الطبيعية للانسان .

ومن هنا فقد كان فى حياة نيتشه تناقض ضرورى بين ما يريده بوضفه « انساناً » ، وما يريده بوصفه « صاحب رسالة»:«ان تناقض أحوالى وصورةوجودى ناشئة عن أن

ما أراه ضرورياً بالنسبة الىَّ بوصفى فيلسوفاً تاماً ـ كأن أكون حرًّا من الوظيفة والزوجية والأبوة والوطنية والعقيدة الخ الخ ـ أحس به مع ذلك شيئاً حُرمت منه ومُنعت من التمتع به ، بحسبانى كائناً حياً يشعر بالحياة على نحو حسن بديع ، وليس آلة للتحليل الفكرى فحسب » .

فاذا كانت الرسالة اذاً هى التى تقرر علاقاته بالناس ؛ فانه لا يستطيع أن يرتبط بصلة الا مع نوعين من الناس: نوع يشعر بمثل ما يشعر ، ولهم مثل ما له من رسالة ، ويطوف بروءسهم ما يطوف برأسه من أفكار ؛ ونوع يستطيع أن يفهم هذه الرسالة وأن يكون أميناً عليها ، فيستطيع نيتشه أن يدخله فى أعماقها ويكشف له عن أسرارها .

والأولون يكوِّنون الأصدقاء ، والآخرون يكوِّنون التلاميذ والأتباع .

ولقد كان لنيتشه ولع شديد ورغبة مُلِحَّة فى الظفر بكلا النوعين ، وظل يسعى طوال حياته للحصول عليهما.

فهو دائب البحث عن الأصدقاء الذين يستطيعون أن يحسوا بما يحس ، والذين يعذبهم من المسائل والمشاكل

ما يعــذبه ، ويؤرق عقولهم ما يؤرق عقــله من أفــكار وهموم . وليس يعنيه منهم أن يقولوا « مرحى ، مرحى ، لقد أحسنت وبلغت القمة ! » ؛ وانما يعنيه أن يسمع منهم: « ان هذه المشاكل هى مشاكلى ، وهذه الهموم همومى ، وما تقوله يتصل بأعمق أعماق قلبى ، ويعذب فكرى » . فمثل هذا الكلام الأخير هو وحده الذى يصدر عن الشعور المتبادل والوجدان المشترك ؛ هو وحده الذى يدل على أن صاحبه شخص من أشخاص المــأساة ، يَصلى ما فيهــا ويعنيه ما سيؤول اليه أمرها ، لأنهــا مأساته هو ، وليس متفرجاً لا يعنيه ، ان كان يعنيه شىء حقاً ، الا أن يكون رجلُ المــأساة قد أجاد التمثيل ، وليس فى وسعه أن يقدم معونة غير التهليل والتصفيق .

ذلك لأن صراع نيتشه ، وسط الأفكار والآراء ، ليس الا صراعاً من أجل الحياة نفسها والسمو بها . هو نضال شاق عنيف فى سبيل أن يجعل للحياة معنى ومغزى ، وأن يكتشف كيف يكون الرقى بها والاستعلاء . فكأن هــذا النضال وذلك الصراع اذاً يعنيــان كل انسان ، لأنهمــا يتصلان بحياته ، ومن أجل حيــاته ، والنــاس اذاً أفراد وأشخاص فى المــأساة التى يعانيها نيتشه ، وهى مأساتهم أيضاً وليست مأساته هو فحسب ، فعليهم اذاً أن يشتركوا واياه فيها .

لكنه لا يستطيع أن يظفر بواحد من هؤلاء الأصدقاء الذين من هذا النوع ، فيصيح مرة الى صديقه أوفر بك ويقول : « يعوزنى الرجل الذى أستطيع أن أفكر واياه فى مستقبل الانسانية » . ومرة أخرى يوجه الخطاب الى أخته شاكياً : « منــذ نعومة أظفــارى حتى الآن ، وأنا لا أجد أحداً يحمل فى قلبه وفى أعماق ضميره ما أحمله من هموم وأفكار » .

وهو جاد فى الحصول على تلاميذ وأتباع منذ أن اشتغل بفلسفته ، وانقطعت صلته بفجنر ، وقد كان هو تلميذاً من تلاميذه وتابعاً من أتبــاعه فى بادىء الأمر . « ذلك لأن مؤلفاتنا وتلاميذنا هم وحــدهم الذين يقدمون لحياتنــا بوصلتها والاتجاه الكبير الذى تتجه فيه » . وهو يصطنع من أجل اقتناصهم الكثير من الحيــل والشِّباك : فيكتب كتبه فى صورة بديعة جذابة كى يغرى بها التلاميذ والأتباع فيهرعوا اليه ، ومن أجل هــذا كان يسمى هــذه الكتب « شِباكا » و « شصوصاً » لصيدهم : « أرانى فى أشد الحاجة الى أن يكون لى أتباع حتى فى مَحيــاى : فاذا لم تكن كتبى التى أخرجها حتى الآن تفعل فعل شــصوص الصيد ، فقد أخطأت مرماها ولم تحقق الغرض منها » .

« ان الأحسن والجوهرى لا يمكن أن ينتقلا الا من رجل الى رجل ؛ ولا يمكن ولا يجب أن يكونا شائعين » وتلح الحاجة الى الأتباع وتزداد شدتها ، حتى تدفع نيتشه الى الأرق الشديد وشيء من الهذيان :

« ان حاجتى الى التلاميذ والورثة تجعلنى قلقاً لا أستطيع الصبر والتجلد ؛ ويظهر لى أنها دفعت بى فى السنوات الأخيرة الى ارتكاب كثير من الحماقات » (من رسالته الى أوفر بك فى ١٨٨٥/٣/٣١) . ولا يكاد يجد واحداً ممن يشتم فيه القدرة على أن يكون تلميذاً وتابعاً حتى يبلغ به السرور أعلى درجة . فحين رأى هينرش فون اشتين فى صيف سنة ١٨٨٤ ، بعث يصف هذا الحادث الى صديقه أوفر بك : « أكبر حادث جرى لى فى هذا الصيف هو زيارة البارون فون اشتين . انه نموذج ممتاز للانسانية والرجولة. وأنا أفهمه ، وأشعر بوجدان مشترك واياه ، وعطف نحوه، نظراً لطبيعته وجوهره ، وهى طبيعة الأبطال . وهكذا ، وأخيراً ، أخيراً ! استطعت أن أجد رجلا جديداً ، تابعاً وتلميذاً لى ، ويشعر باحترام غريزى نحوى ! ... لم أكد أتصل به حتى أحسست احساساً قوياً بمهمتى العملية ، التى هى مهمتى فى الحياة متى استطعت أن أحصل على عدد كاف من الشبان ذوى الصفات الخاصة الممتازة » .

غير أن شباكه كانت تخرج فى كل مرة بالقواقع أو تخرج خالية من كل شيء تماماً .

وهكذا خاب أمله فى الظفـر بهؤلاء أو أولئك : فراح يتوهم الأصدقاء والأتباع ، ويخلقهم بخياله خلقـاً : « إن موهبتى الفطرية لخلق الأساطير ستقوم منذ الآن سعياً وراء الصديق » .

لكن ، ماذا يجدى هذا كله !

ليعلم اذاً أن الوحدة مقدوره ، وأنها المصير الذى اختاره القدر له ، بوصفه صاحب رسالة . وليدرك تمام الادراك أن الوحـدة من لوازم العبقرية ، ولا منـاص له من احتمالها وفهمها على هذا النحو ، خصوصاً بالنسبة اليه .

ذلك لأن الوحدة أولاً من طبيعة المعرفـة وملازمة لهـا متى كانت هذه المعرفة قد استحالت الى أن تكون الحيـاة نفسها ، فلم يعد المرء يستطيع أن يفرق بين آرائه ومذهبـه وبين حياته ، وأصبحت المعرفة هى الحيـاة والحيـاة هى المعرفة ، أى لم يعـد هنـاك فارق بين المـذهب وصاحب المذهب : « اذا خَوَّل المرء لنفسه الحق فى أن يجعل من المعرفة (أى مجموعة ما يعرفه وطريقته فى المعرفـة) معنى

حياته ومغزاها ، فان هذا النحو من المعرفة من شأنه أن يجر الى ابتعاد الناس واستغرابهم ، وربما الى الشعور بالابتراد فى جوها » خصوصاً اذا كان هذا النحو من المعرفة قد بلغ الحدة والشدة اللتين كان بهما عند نيتشه ، وهو الذى أعلن حرباً ضروساً شعواء على كل ما قدسته الانسانية حتى الآن ، وأخلصت له الحب . فمن من الناس اذاً يستطيع أن يجد الراحة فى جوه ؟ ومن من الناس يقترب منه ، ولا يشعر بأنه فى مكان غريب أو فوق جبل عال يشعر المرء فيه بأن ضربات دمه تتدافع بتأثير الضغط الجوى المنخفض ، حتى لو كان أعز أصدقائه القدماء ؟

وثمت سبب آخر لهذه الوحدة الضرورية هو أن الصداقة والاتصال الحقيقيان لا يمكن أن يقوما الا اذا كان الطرفان متساويين أو متشابهين على أقل تقدير ، فكل اتصال لا يقوم على مستوى واحد ، سواء أكان الطرف الآخر فى مستوى أعلى أم فى مستوى أحط ، مصيره الاخفاق المحقق من غير شك .

وهذا الشرط الجوهرى لوجود الصداقة الحقيقية لم يتوافر بالنسبة لنيتشه .

فهو من جهة كان يصبو دائماً وينزع بكل وجدانه الى الرجال الممتازين جداً ، الذين تعلو مرتبتهم على مرتبته ·

« ما بالى لا أجد بين الأحياء أناساً ترتفع بصائرهم الى أعلى مما ترتفع اليه بصيرتى ، وتكون مرتبتى أقل من مرتبتهم؟ ومع هذا فانى لا أصبو لغير هؤلاء ! » هو لا يجدهم وانما يجد بدلاً منهم أناساً فارغين مبتذلين ، يصدمونه فى كل مكان ، فيصيح فى وجوههم فى داخل نفسه : « صاخباً أرتطم بساحل تفاهتكم ، صاخباً كالموجة الوحشية حين تَعَضُّ الرمالَ على الرغم منها » . هذه النزعة ، حتى لو تحقق موضوعها ، لا تقوم معها صداقة ، لفقدان التساوى.

وهو من جهة أخرى لا يجد من يساويه أو يدانيه فى المرتبة والجوهر ، من بين جميع رجال عصره ، أو من بين الرجال جميعاً . يتباين جوهره من جوهرهم ، فلا يمكن أحدا — الا من كان فى مثل امتيازه وجوهره تماماً — أن يكون له صديقاً وزميلاً . فيدفعه هذا التباين الأبدى بينه وبين غيره من الناس الى الوحدة ، كما قال .

فليذعن اذاً لهذا المصير ، وليتقبله راضياً ، ما دام يصدر عن جوهره وطبيعة الرسالة التى عليه أن يؤديها : « أشعر بأنه قد قضى علىَّ بالوحدة حتى أصبحت حصنى الحصين. وليس لى فى هذا الآن أىُّ اختيار . وان ما يدعونى الى الاستمرار فى الحياة من واجب ضخم سام لا مثيل له ،

يدعونى أيضاً الى تجنب الناس وعدم التعلق بشخص ما من الأشخاص . ولعل الطهارة المطلقة والسمو التام اللذين دفعنى هذا الواجب اليهما هما العلة فى أنى لا أستطيع بعد أن أشم رائحة الناس ، خصوصاً الشبان الذين يتدافعون الىّ أحياناً . أوه ! انهم مزعجون ثقلاء كالكلاب الصغيرة »
(من خطاب الى مَلْفيدا ، سنة ١٨٨٧) .

بل ليتخذ من الوحدة وعدم اقبال الناس عليه وحبهم له دليلا على سموه ، ومجالاً للزهو والكبرياء : « أنا فخور بنفسى فخراً يحملنى على الاعتقاد بأنه لا يوجد من يقدر على أن يحبنى ، أنا . لأن هذا يفترض مقدماً أنه يعرف من أنا . كما أنى لا أعتقد أنى سأحب انساناً ، لأن هذا يفترض بدوره مقدماً انى سأجد يوماً ما ، وهذه معجزة المعجزات، رجلاً فى مثل مرتبتى ومستواى .... ان كل ما يشغلنى ويقلقنى ويسمو بى ، لم أجد من يشاركنى فيه ويكون لى فيه زميلاً وصديقاً »

مرض صحى

« المرض هـو أول شى
هدانى سواء السبيل »

ولكن القدر الذى قضى عليه أن يكون وحيداً ، محروماً من صداقة الناس صداقة مخلصة حقة ، والذى بخل عليه بأن يكون له زميل مستمر طوال محياه ، قد شاء له أيضاً أن ينعم ـ أو يشقى ـ برفقه صديق ليس من البشر ، ولا نسب له بالكائنات المحسوسة والمتقوّمات ؛ صديق مجرد ، لا يستطيع أن يحسه ولا أن يلمسه ، وانما هو يحس بآثاره، ويلمس أعماله وأفاعيله فى هذا الجسم القوى الممتلىء فى أول الحياة ، النحيل كالشبح عندما يبلغ منتهاه .

أحسبنى قد ذكرت اسم هذا الصديق الغريب الذى لازم نيتشه ابان حياته كلهـا ، ولم يستطع المسكين منه خلاصاً ولا فكاكا . كان هذا الصديق هو المرض : « فى كل أطوار حياتى ، كانت شدة الألم عندى هائلة لا تطاق » .

وكان صديقه هذا صديقاً خبيثاً ماكراً . فكان يزوره فى بادىء الأمر لمـاماً ، وفى شيء كثير من اللباقة والحـذق

والخفة ، حتى لا يزعج صاحبه ازعاجاً شديداً لا يتمكن معه أن يتخذ منه صديقاً حقيقياً ، وحتى لا يتبرم به منذ البداية، فيضيع القصد ويفوت الغرض . فلما أن استوثق منه وأدرك أن صاحبه لم يعد فى غنى عنه دقيقة واحدة ، ألح عليه ولازمه ملازمة شديدة وثيقة ، ثم ما لبث فى النهاية أن ازدادت سيطرته عليه حتى تملكه وتمكن من خناقه ، فافترسه وقضى عليه القضاء الأخير .

ويشاء الاخلاص بهذا الصديق أن لا يحرمه نعمة رفقته منذ أن جاء الى الوجود . فيرث الطفل عن أبيه مرض قصر النظر قصراً شديداً ، عانى نيتشه منه طوال حياته الأمرَّين، حتى كان ، كما تقول أخته وكما شهد بذلك الأطباء من بعد ، الأساس الأول لمعظم الأمراض التى قاسى آلامها نيتشه ؛ وحتى كانت « كلتا عينيه غائصة الى ثلاثة أرباعها فى ليل مظلم بهيم » على حد تعبيره هو . كانت عيناه تتورمان لأقل مجهود تبذلانه ، أو تبكيان بكاء شديداً . واذا استمر فى عمل على الرغم من ذلك ، أصابهما التهاب شديد يحرم صاحبهما من القراءة الأشهر الطوال . حتى اضطر نيتشه ، ولما يتجاوز من العمر الخامسة والعشرين، أن يلجأ الى من يقرأ له أو يكتب تحت املائه ، تخلصاً من الآلام الشديدة التى يلقاها وهو يقرأ أو يكتب بنفسه ؛

وحتى انتهى به الأمـر ، وهو فى سن مبكرة أيضـاً ، أن لا يستطيع المكوث فى النور طويلا ، وأن لا ينعم من النور الا بقدر ضئيل جداً طوال النهار لا يتجاوز ساعة ونصف ساعة . وكان اذا سار يسير بخطى ضئيلة متثاقلة ، يزنهـا وزناً ، ويتحسس الأرض قبلها ، كمن يسير فى بحر لا يدرى مدى غوره .

ثم يزوره مرة ثانيـة حين كان يؤدى سنة الخـدمة العسكرية ابتداء من ٤ أكتوبر سنة ١٨٦٧ . فاذا به يقع من فوق فرسه ، فيصاب فى صدره وفى جنبـه الأيسر ، مما اضطره الى مغادرة الخدمة العسكرية ، ولمـا يقض فيها غير خمسة أشهر .

ويشترك فى حرب السـبعين متطوعـاً ، لا جنـدياً ، (فهذا لم يكن من حقه ، لأنه كان تابعـاً اذ ذاك للدولة السويسرية بوصفه أسـتاذاً فى جامعـة بازل ، وسويسرا كانت على الحيـاد فى تلك الحرب) ولكن ممرضـاً ، فيصاب هـذه المرة بالدوسنتريا ، وكان هـذا أول مرض خطير فى حياة نيتشه من بين أمراضه هو الخاصة ، لا تلك التى ورثهـا عن أبيه أو أجداده . ومنذ هـذه اللحظة ، والصديق يلازم صاحبـه لا يغـادره الا فى فترات قليلة ضئيلة ، لا اشفاقاً منه على صاحبه ، وانما اشفاقاً منه على

نفسه من التعب الذى يقاسيه هو أيضاً فى تعذيب صاحبه ، أو استعداداً للهجوم من جديد ، هجوماً أعنف وأشد قسوة . وهكذا يظل نيتشه عشرين سنة كاملة مملوءاً بالأمراض : لا يكاد ينتهى من داء الا ليبدأ داءاً جديداً ، أو ليقاسى جميع الأدواء والأمراض مرة واحدة .

وسنقوم الآن بتتبع الأدوار التى مرت بها حياة نيتشه المرضية ، لما لهذا من أهمية فى فهمه وفهم تفكيره ، ثم فى بيان الصلة بين انتاجه وبين هذا المرض .

ابتدأ الدور الأول بهذه الدوسنتاريا التى مرض بها نيتشه ، وهو ينقل المرضى والجرحى ويعنى بهم أثناء الحرب بين ألمانيا وفرنسا سنة ١٨٧٠ . فشفى منها بعد قليل . لكن ما لبثت آلام المعدة أن غزته فى فترات متباعدة بعض التباعد بعد ذلك الحين . حتى اذا ما جاءت سنة ١٨٧٣ أصبح الاضطراب فى صحة نيتشه كثيراً وشديداً عنيفاً . فكان المرض يجرّد عليه الحملات تلو الحملات : تارة فى صورة أوجاع فى الرأس وصداع يصحبه ابراق فى العينين ، وطوراً على شكل قىء مؤلم مختنق ، يتلوه شعور عام بشىء يشبه الشلل ، وطوراً ثالثاً يكون هذا المرض اغماءً يفقد صاحبه الشعور لمدة غير قصيرة . كل هذا فى ناحية ، وفى الناحية الأخرى آلام العين والتهاباتها التى لازمته طوال حياته ، ولم

تنصرف عنــه أو لم تَـكَـدْ ؛ ثم شـعور بضغط فى الدماغ يستمر طويلاً ، ولا يكاد ينقطع عنه من بعــد الا سويعات بسيطة وأوقات متناثرة نادرة . فكأن هذين المرضين الأخيرين اذاً ، ونعنى بهما الالتهاب فى العين والضغط فى الدماغ ، قد ظلا وفيين لصاحبهما ، وأصبح من المفروض وجودهما دائماً ، ولم يعودا فى حاجة الى أن يذكرا .

ويستمر هذا الدور الأول حتى ســنة ١٨٨٠ ، وكله مملوء بهذه الحملات المرضية العنيفة ، التى لا تهدأ الا فى فترات قصيرة. ثم بلغ المرض أوجه فى سنة ١٨٧٠ ، خصوصاً فى الشهور الأخيرة منهــا ، حتى كان نيتشه ينتظر نهــايته حينذاك ، ويعتقد بأنه لا بد مـُلاق حتفه فى هذه السنة . أوَ ليست هى السنة التى مات فيهــا أبوه ؟ ويصيح فى نفسه قائلاً : « ألا فلتخفف من عناء مصيرك ، بأن تموت ! » أو يكتب الى أصدقائه فيقــول : « ان الغدّارة قــد أصبحت بالنسبة الىّ الآن ينبوعاً لأفكار سارة تملؤنى ابتهاجاً وغبطة» . ولا يكاد يبتدىء العام الجديد ، حتى يعتقد بأن رسالتــه قد انقضت ، وأن قد آن له أن يغادر الحياة ؛ فيكتب الى أخته فى ١٦/١/١٨٨٠ يقول: «أعتقد أنى أديت مهمتى فى الحياة كما يؤديها رجل لم يمنح الفسحة الكافية من الوقت . فانه لا يزال لدىّ الكثير الذى أود لو أقوله . وفى كل ســاعة أخلو فيها من الألم ، أشعر فيها بأنى غنى بالأفكار » .

ثم يأتى فبراير عام ١٨٨٠ ، وإذا بتطور هائل يحدث عند نيتشه ، وانقلاب ضخم يناقض الحالة السابقة تمام المناقضة . فهو الآن يشعر برسالته شعوراً قوياً ، ويحس بأن وجوده فياض ممتلىء ، وأن مزاجه فى درجة عالية مرتفعة وأصبح يقبل على الحياة فى شغف ونهم ، يريد لو احتضنها وضغط عليها بين ذراعيه . والوجود كله قد صار فى نظره أنشودة فياضة سارة كتب عليها بالخط العريض : « نعم ! » . واذا كان صديقه لا يزال يعوده على صورة هذه الحملات السابقة ، فانه كان فى هذه الأيام الجديدة أخف وطأة وأكثر شفقة عليه ورحمة به .

•

وهذا الدور الثانى ، الذى استمر من سنة ١٨٨١ حتى سنة ١٨٨٤ ، هو أسمى أدوار حياة نيتشه انتاجاً . فهو الدور الذى كتب فيه « الفجر » و « العلم المسرور » والجزأين الأول والثانى من « زرادشت » . وكان يشعر فى أثنائه بأن حياته الوجدانية قد تضاعفت قواها مرات ومرات ، وأن روحه محشوة بالأفكار الكثيرة العميقة المضغوطة فيها ضغطاً شديداً ، لن يلبث أن ينفجر فى هذه الكتب التى كتبها فى ذلك الحين ، خصوصاً كتاب « زرادشت » . وكأن وحياً قد هبط عليه ، بل هو سَمَّى أحواله الروحية التى كان ينتج فيها ابان تلك الفترة باسم

الوحى والالهام ، وراح يصف هذا الوحى وصفاً دقيقاً بارعاً فيقول :

« هل عند واحد من الناس ، فى نهاية القرن التاسع عشر ، فكرة" واضحة عمّا كان الشعراء ، فىعصور التاريخ القوية ، يسمونه الوحى والالهام ؟ لئن كان الجواب بالنفى ، فهأنذا أصفه لهم . ان أقل الناس ايماناً بالمعجزات عسير عليه أن لا يعترف بأنه تجسُّد قوى عليا سامية ، وأنه وسيط بين صاحبه وبينها ومترجم له عنها . ففكرة الوحى ، بمعني أن شيئاً يصبح فى الحال ، بتأكد ويقين ودقة ولطف يجل عن الوصف ، مُبْصر ومسموعاً ، يهزنا ويزلزلنا ، هذه الفكرة هى وصف دقيق صادق لما يحدث بالفعل تماماً . فالمرء فى هذه الحالة ، حالة الوحى ، يشعر بأنه يسمع ــ ولا يبحث ؛ ويأخذ ــ ولا يسأل عمن يعطى والفكرة تنبثق كالبرق مضيئة ضرورية ، لا تردد فى صورتها وشكلها ، ــ فليس للمرء خيار مطلقاً . وهو َتجَلٌ ، يتحلل توتره أحياناً الى سيل من الدموع ، َتجَلٌ فى أثنائه تندفع الخطوات قسراً كالعاصفة ، أو تتراخى وتبطىء ؛ فيجد الانسان نفسه وقد خرج عن طوره وارادته ، وأحس فى وضوح بما لا نهاية له من أنواع القشعريرة الصغيرة التى تسرى فى جميع أنحاء الجسم حتى

نهاية القدمين . وهو غبطة عميقة : فعلُ الألم فى أشد أنواعه والحزن فى أظلم صوره لا يبدو فى أثنائها كفعل شيء مضاد ، وانما كلون ضرورى منشود وسط هذا الفيض من النور ... وكل هذا بلا ارادة ودون اختيار الى أعلى درجة ، لكن فى شيء يشبه العاصفة من الشعور بالاستقلال والحرية والقوة والألوهية . وأغرب ما فيه هو أن الصور والتشبيهات مجبورة لا اختيار فيها فالمرء لا يستطيع أن يميز بعدُ ما هى الصورة وما هو التشبيه . انما يبدو كل شيء كأنه أقرب وسائل التعبير وأدقها وأبسطها ؛ وكما يقول زرادشت : تبدو الأشياء حقاً كأنها تقترب بنفسها وتتقدم من تلقاء ذاتها ، طالبة أن تصبح صوراً وتشبيهات ... وكل ما هو موجود يريد حينئذ أن يستحيل الى كلمات ، وكل ما يتطور يريد أن يتعلم منك الكلام . وهذا هو الوحى كما جربته : ولست أشك لحظةً فى أنه لابد من الرجوع آلافاً من السنين الى الوراء كى أجد انساناً يستطيع أن يقول لى : وتلك تجربتى أيضاً ! — » . -

وفى هذه الحالات السامية كان نيتشه قريباً من المرض . لأن شدة الوجدان وقوته غير طبيعية ، وكانت مشحونة فيه ومضغوطة ضغطاً شديداً يهدد بالانفجار السريع :

« ان وجدانى به من الفرقعات ما تكفى لحظة واحـدة ... لكى تتحول ... وتجعلنى مريضاً تماماً » .

وهذه أول مرة يعانى فيها نيتشه مثل هـذه الحـالات الوجدانية العنيفة . ولئن كان مثلها قد يعانيه غير نيتشـه من العباقرة ، فان درجة هذه الحالات عند نيتشـه أعلى بكثير جداً مما هى عند غيره ، بل هى تختلف عمَّا عنـد الآخرين اختلافاً جوهرياً كاختلاف النـار عن الحـرارة ولهذا فان كارل يَسْپَرْز يفترض وجود «عامل بيولوچى» يرجع اليه السبب فى هذا التطور المفاجىء عنـد نيتشـه ، وهذه الحالات الوجدانية التى لا نظير لهـا عند غيره من العباقرة الذين نعرفهم .

ويلحق بهذا الدور الثانى الثلاث سنوات التالية . وفيها تخف شدة الوحى الى درجة ألا تظهر مثل هذه الحـالات الوجدانيـة العنيفـة التى وصفناهـا . وانمـا نراه يشعر بأن المشـاكل التى تشغله تعـذبه آناء الليل وأطراف النهـار .

وفى نهاية السنة الثالثة ، وأعنى بها سنة ١٨٨٧ ، يبـدأ الدور الأخير من حياة نيتشه الواعية قبل أن يُقـذف به فى بركان الجنون . وهنا تبدو ظواهر جديدة تبلغ أشـد

أدوارهـا ابتداءً من سبتمبر من السنة التاليـة ، وتنتهى بابتداء الجنون الحقيقى فى يناير سنة ١٨٨٩ .

يشعر نيتشه حينئذ بذاته شعوراً مفرطاً قوياً ، ويعتـد بنفسه اعتداداً كبيراً ، حتى أصبح يعتقد أنه قادر على التأثير فى العالم كله تأثيراً كبيراً حاسماً ، وحسب نفسه فى النهاية أنه الاله ديونيزوس ! ويتحـدث عن نفسـه أنه أكبر فيلسـوف ، ويظن أن فلسفته تقسـم تاريخ الانسانيـة قسمين !

ومن ناحية أخـرى نرى نشـاطه يزداد ازدياداً كبيراً لم يكن معهوداً من قبل : فالأفكار تتدافع فى ذهنه وتغلى غلياناً شـديداً وتنبثق منـه كما تنبثق من العين القوية . وهو يكتب بسرعة عجيبة : فلا تأخذ الكتب الأخـيرة من وقته الا جزءاً قصيراً ، اذ تكفى الكتاب الواحد عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً .

ولهجته تصبح لهجة مناظر عنيف ، يحمل على خصـومه حملات قاسية شعواء ، ويهاجم فى غير تحرج ولا اتزان ، بل ينقضُّ بكليته على هؤلاء الأعداء ويصليهم ناراً حامية من قلمه ، كما فعل فى كتابيه « مسألة ڤجنر » و « عدوّ المسيح » .

والحالة السائدة طوال هذا الدور ، والتى ترجع اليها هذه الخصائص كلها ، هى ما يسميه علماء النفس باسم « اليوفوريا » : وهى حالة مرضية يشعر المرء فيها بالسرور والابتهاج دون أن يكون هناك سبب ظاهر أو تناسب بينها وبين العوامل التى تنتجها . وهى أوضح ما تكون فى الساعات السابقة على الموت مباشرة .

ونيتشه فى هذه الفترة يعبر عن هذه الحالة فى رسائله ويكشف عنها بكل وضوح . فهذه الرسائل تفيض بوصف الغبطة التى يشعر بها ، والهناء الزاهر الذى يجده سائداً فى كل ما حوله ، على العكس تماماً مما يبدو من رسائله فى السنوات السابقة لهذه الفترة مباشرة . فبينما كانت الشكوى فى هذه السنوات الأخيرة لا تنقطع ، سواء من مرضه ومن اهمال الناس له وعدم اكتراثهم لكتبه وتفكيره ، نراه الآن ينظر الى الناس جميعاً فيراهم يبسمون له ، ويشعر بأن نوراً من السلام والسعادة يعلو الوجوه ويضىء الكون بأسره . ويكتب الى صديقه جاست فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٨ رسالة يقول فيها : « غننى أغنية جديدة ، ان العالم يتجلى نوره والسموات فى نعيم » .

لكن هذا العالم الباهر النور وتلك السموات الرافلة فى النعيم ليست من هذا العالم الأرضى فى شىء ، وانما هو،

المـأوى الذى سيقوده اليه شيطانه ، بعد أن صرعه وانتصر عليه . هى هذه السنوات الاحدى عشرة التى قدر عليه أن يقضيها فى الحياة ، ولاشعور لديه بالحياة ، وعلى الأرض ، وليس بينه وبين الأرض صلة .

فلم تمض الا أيام قلائل على كتابة الرسالة السابقة ، حتى أصابه الجنون فى الأيام الأولى من شهر ينـاير سنة ١٨٨٩ وهو فى مدينـة تورينو . فلما ذهب اليه صديقه أوفربك فى ٨ يناير وجده قابعاً فوق أريكة ، ولم يكد نيتشـه يراه حتى انقض عليه ، وعانقه عنـاقاً حاراً . ثم ارتفع صـوته بالغنـاء ، ولعب بأنامله على البيـانو ، وظل يثب ويرقص رقصـاً دائرياً ، ثم تكلم من بعـد « فى لهجـة غريبـة سـحرية كلاماً ساميـاً جليلاً يثير قشعريرة لا توصف ، كلاماً يدور حول نفسـه بوصفه خليفـة الاله الذى قضى نحبـه » .

والآن !

أرأيت الى هذه الحياة الحافلة بالأمراض ، المجللة بأشد أنواع الأوصاب والآلام ، المتوجة بتاج من الجنون ؟ هل كان عبثاً كل هـذا المرض ، وثأراً للجسم ممن لم يحفـل بغير الروح ؟ كلا يا سيدى ، وانما كان هذا المرض ، كمـا كانت الوحـدة من قبل ، شرطا من شروط تحقيق الرسالة ،

وكان مصيراً تقرر لابد من لقياه ما دام قد أصبح صاحب رسالة فى الحياة .

وان للمرض عند العباقرة لفلسفة ، وأى فلسفة !

فجيته يرى أن المرض والضعف الجسمانى لازمان عند العباقرة لكى « يستطيعوا الاحساس بالوجدانات النادرة ، ويقدروا على سماع الأصوات السماوية » . ويقول : « اذا رأيت كائناً من الكائنات قد امتاز امتيازاً خاصاً ، فابحث سريعاً عن الناحية التى منها يتألم بحث الفاحص الدقيق ، فستجدها مفتاح كل تكوين وارتقاء » . والآلام الجسمانية عنده دليل وعلامة تكشف عن وجود اهتزازات روحية عاجزة عن حماية نفسها داخل كائن عضوى يحيا فى انسجام مع قوانين الكون والوجود : « حيث يكون السمو العقلى كبيراً ، يكون الألم كبيراً أيضاً » .

والمرض فى نظر نوفالس هو ما امتاز به الانسان على الحيوان والنبات ، وأكثر ما يعين على قيام الأخلاق والدين: « ان الأمراض موضوع من أهم الموضوعات التى تهم الانسانية وتعنيها . ونحن لا نعرف بعدُ كيف ننتفع بها الا معرفة ناقصة . ولعلها أهم مادة وأقوى دافع لنا على التفكير والعمل . فمنها يستطيع الانسان حقاً أن يجنى ثماراً لا حصر

لها ، خصوصاً فى الميـدان العقلى ، وفى ميـدان الأخلاق والدين ، ويعلم الله فى أى ميدان مدهش آخر أيضاً.ألا ليتنى صرت يوماً ما نبياً لهذا الفن ! » .

وتبلغ فلسفة المرض أوجها عند نيتشه . فيضع لها القواعد والأصول ، ويَدْعَم نظرياتها بالبراهين . فهو يتوسـع فى نظرية جيته فيقول : « ان الحالات الشاذة هى التى تكوّن الفنان ، وهى حالات وثيقة الصلة بالظواهر المرضية ، لدرجة أنه من غير الممكن أن يكون الانسان فناناً دون أن يكون مريضاً » ؛ وفى نظـرية نوفالس فيشرحها ويعللهـا : « ان الانسان أكثر مرضاً وهزالاً وتغـيراً من كل حيوان آخر ، هذا لا شك فيه ــ فهو فى جوهره الحيوان المريض . فمن أين أتى هذا ؟ واضـح أن الانسان كان أكثر الحيـوان جرأة وتجديداً ووقاحة ، وهو الذى تحدى القدر بأكثر مما تحدته كل أنواع الحيوان جملة واحدة ؛ وهو كثير القيام بالتجارب على نفسه،ولا يرضى بشىء،ولا يشبع نهمه شىء؛ ودائم الكفاح من أجل السيطرة النهائية التامة ، ضد الحيوان والطبيعة الالهية ؛ وهو المستقبل الخـالد ... الذى يغرزه مستقبلُه فى لحم الحاضر ــ : فحيوان" هذه شجاعته وهذا غناه وخصبه ، كيف لا يكون أكثر أنواع الحيوان مرضاً ؟»).

وان نيتشه ليدين للمرض بكثير مما علا بحياته العقليـة

وسما بها ، وجعل تطوره سريعـاً ، وتحقيقه لرسالته أقرب وأسهل ، حتى قال : « ان المرض هو أول شيء هدانى سواء السبيل » .

أليس هو الذى أعفاه من الاستمرار فى الخدمة العسكرية، ليتفرغ لأعماله العلمية ؟ أليس هو الذى أعفاه من التدريس فى جامعة بازل ، وقد كان هذا التدريس يشغل الكثير من وقته ، ويصرفه عن التفرغ للتفكير والتـأمل ؟ أليس هو الذى أخرجه من بيداء علم الفيلولوچيا الجاف الى عالم نفسه الفسيح المتسـع ؟ أليس هـو الذى خلصـه من الروابط والعلاقات التى بدأت تحيط به وتحصره فى نطاقها ؟

ثم قبل هذا كله ، أليس المرض هو الذى حرره من أسْر الكتب ، فكان ذلك « أكبر خدمة قدمتها لنفسى » كما قال، اذ صرفه الى التأمل الشخصى الخالص ، والتفكير الحـر المستقل ؟

أليس المرض هو الذى أتاح له الفراغ الطويل كى يخلو الى عقله ونفسه وتفكيره وتأمله ؟ لأنه هو الذى « أحوجه الى السكون والكسل والانتظار والصبر ... لكن هذا معناه التفكير أيضاً ! » .

ولئن كان أعظم ما أتت به فلسفة نيتشه من جديد ، هو

تحليلاتها النفسية الدقيقة للانسان ، فنيتشه يدين بهذا كله للمرض . فهو الذى جعل منه عالماً بأخفى خفايا النفس الانسانية وبأدق ما تحتويه من انفعالات ورغبات ، وما يسيرها من دوافع وغرائز ، ذلك لأن المرض قد أخلى بينه وبين نفسه فراح يتعرفها ويفهمها ، ويقيم أقسى التجارب عليها ، وان زاد ذلك فى ألمه وكثر منه عناؤه .

ثم ان حالة المرض قد طبعت تفكيره بطابع جديد ، ماكان يتاح له لولاه . اذ جعله ينظر الى الأشياء فى برود هائل ، فيشرّحها فى قسوة ، وينقدها دون رحمة ولا اشفاق .

والمرض وحده الذى يُشعر الانسان بالصحة ، ويحمله على دراسة الحياة ، وفهم طبيعتها ، لأنه يستثيره الى المقارنة بين هاتين الحالتين المتضادتين . أما اذا استمرت حاله فى صحة دائمة ، فانه لن ينتبه لمعنى الحياة : « أنا أعرف الحياة معرفة جيدة ، لأنى كنت على وشك فقدانها » .

ومن هنا نرى نيتشه يكثر الحديث عن المرض ، مُشيداً بفضله عليه وأثره فى حياته الروحية ، معترفاً بما أسداه له من جميل : « لا أريد أن أودع هذه الفترة من المرض الأليم دون أن أعترف بالجميل الذى طوق عنقى به ، والذى لا أزال أنعم بآثاره التى لا تفنى ولا تنفد . وانى لأدرك تمام

الادراك هذه الميزة التى منحتنيها صحتى المضطربة فامتزت بها على جميع المفكرين المبنيين بالجير والملاط . فالفيلسوف الذى مر بحالات عديدة من الصحة والذى سيمر بحالات أخرى غيرها بلا انقطاع ، مر أيضاً بكثير من أنواع الفلسفات...والمرض،ألا نشعر بأنّا مدفوعون قليلاً لأن نسأل أنفسنا عما اذا لم يكن ضرورياً ، لا غنى لنا عنه ؟ ان الألم الشديد هو وحده الذى يخلص الروح ويحررها ... هذا الألم الطويل البطىء الذى يأخذ حظه من الوقت والذى يستهلكنا كما يحترق الخشب الأخضر، هذا الألم هو وحده الذى يرغمنا على النزول فى أعمق أغوار نفوسنا ... أجل أنا أشك فى أن يكون من شأن هذا الألم تحسين أحوالنا — لكنى أعلم يقيناً أنه يجعلنا أشد عمقاً » . فكأن للمرض اذاً فضلاً آخر وميزة جديدة غير ما عددناه له من قبل من ميزات . تلك هى أنه يكشف لنا طريقاً جديداً من طرق التفكير ، هو التفكير الذى يتجه من المركز الى المحيط ، بدلاً من التفكير الآخر الذى يأتى من الخارج كى يصل الى النقطة الوسطى . فالمرض اذاً يدلنا على « مسالك عدة لأساليب من التفكير كثيرة ومتعارضة » .

وفضل المرض على الأمم والشعوب لا يقل عن فضله على الأفراد الممتازين فلقد « أخذ بعض الشعوب من الأمراض

أعواناً أشداء للنهوض بالحضارة واعلائها : مثـــل الشعب اليوناني الذى عانى فى عصـــوره الأولى كثيراً من الأوبئـــة العصبية الكبرى (من نوع الصرع والرقص عند القديس جى) واستخلص منها نموذجاً ممتازاً لأصحاب ديونيزوس. نعم ! لقد كان هذا الشعب ينعم بصحة جيدة ، ولكن سره هو فى أنه قدس المرض كاله أيضاً بشرط أن يكون ذا قوة». وأوربا نفسها مدينة فى نظر نيتشه للأمراض بالكثـــير من الخير والتقدم : « فأوربا مريض يدين بعظمته لدائه الذى لا يشفى ، وآلامه المتنوعـــة العـــديدة . فان هـــذه الآلام والأخطار المتجددة دائماً انتهى الأمر بها أن ولدت تهيجاً عقلياً يكاد يشبه العبقرية ، أو هو على كل حال أم العبقرية وأصلها الذى منه تنبع » .

فالمرض اذاً شرط لا بد منه لكى يتحقق الانتاج الفكرى الممتاز عند العبقرى ، ولكى تتقدم الحضارة وتعلو عند الأمم القوية والشعوب الممتازة السامية .

ونيتشه يلخص فى النهاية النعمةَ التى أتمها المرضُ عليه فيقول : « ان معنى الآلام الجسمانية الهائلة التى تعرضتُ لها ينحصر كله فى أنها هى ، وهى وحدها ، التى انتشلتنى من الفكرة الفاسدة ، أى المنحطة كل الانحطاط ، التى كانت لدىّ عن رسالتى الحيوية . لأنى بطبيعتى من أشد الناس

تواضعاً ، فلا بد لى من أشـــد الوسائل عنفــاً كى أعرف جوهرى وأدرك ذاتى » .

ولكن !

لكن ليس المرض وحده هو الشرط فى سمـــو العبقرية ، وليس المرض غاية تطلب لذاتها ، بل هو وسيلة كى يصـــل الانسان الى الصحة ، الصحة الحقيقيـــة التى « لا يملكهـــا الانسان فحسب ، وانما يكتسبها أيضاً ويظفر بها ، ويغزوها فى كل حين » ؛ لأن الحياة لا يمكن المرء أن يحياها كاملة الا اذا تملك الطرفين ونعم بهما جميعاً . وجوهر الحياة المليئة السامية هو فى هذا التجاذب الدائم بين الصـــحة والمرض ؛ هو فى هذا التوتر المستمر الذى يجد المرءُ نفسه فيه ، وقد جذبته قوتان متضادتان وارادتان متعارضتان : ارادة الصحة والقوة ، وارادة المرض .

بل ان « المرض نفسه ليس الا محاولة ثقيلة للوصول الى الصحة » ، لأن للمرض فى نظـــر نيتشه شاطئين : أحدهما شاطىء الألم المظلم والآخر شاطىء الشفاء الباهر النور ، على حد تعبير اتسقايج . وهذه الصحة الجديدة المكتسبة بعـــد الألم أسمى بكثير من الصحة السابقة عليه ، لأن المرء يكون قد اكتسب هذه الميزات الكبرى التى ذكرناها من قبل ، عن طريق الألم الذى مر به .

ففى المرض اذاً كسب جديد ، وزيادة فى الروحية ، وسمو فى العقل ، لا يستطيع أن يحصل عليها غير الذى مر بالمرض.

فليس المرض والصحة اذاً مختلفين اختلافاً جوهرياً ، وليس الواحد منهما غاية أو شـيئاً مطلقاً قائمـاً بذاته ، وانما هما يتباينان فى الدرجة فحسب انهما درجتان مختلفتان لجوهر واحد .

ولهذا نجـد نيتشه ، الى جانب اشادته بالمرض ، يشيد بالصحة أيضاً . ويمتلىء فى آخر أيامه برغبة عنيفة ملحة فى الصحة والشفاء . ويرسل الصيحات العالية توكيداً لمعناها .

لكنه لا يستطيع أن يظفر بهذه الصحة التى يصبو اليها ، ولا بهذا الشفاء « الكبير » الذى يتحرق شوقاً الى الحصول عليه . فالقدر لا يريد أن يمنحه هذه الصحة . ومصيره قد قضى عليه بأن يظل فريسة للعلل والأمراض . فماذا يعمل اذاً؟

انه لا يجدها أمام عينيه ، فليخلقها بنفسـه اذاً : « الى الأمام ! هكذا قلت لنفسى ، فغداً ستكون صحيح الجسم ، ويكفيك اليوم أن تتصور أنك صحيح الجسم ... فكانت ارادة الصحة نفسها ، وكان تمثيـل الصحة وسـيلتى الى الشفاء » .

وهكذا تنقلب الصحة الفعلية الى ارادة للصحة فحسب ، ارادة ملحة سـيطرت على نيتشه حتى جعلته ينطق بعكس

ما نطق به من قبل تماماً . فبعـــد أن كان يقول : « فى كل أطوار حياتى ، كانت شدة الألم عندى هائلة لا تطاق » — أصبح الآن يقول ، وهو فى أواخر أيام حيـــاته الواعيـــة : « والخلاصة أنى كنت أثناءها (يقصد بذلك الخمس عشرة سنة الأخيرة) فى صحة جيدة ! » أو يقــول فى شىء يشبه التناقض : « ليست لدى أية خاصية من خصائص المرض ؛ وحتى فى أيام المرض الشديد لم أصبح مريضاً » !

وكما نرى نيتشه هنا يجعل من المرض شرطاً جرهرياً يسبق الصحة ، ســنراه فى فلسفته يجعــل من الألم شرطاً جوهرياً يسبق السرور .

« اذا كان الفكر قد قدر
عليك ، فقدس هذا القدر
تقديساً الهياً ، وضحّ له بأعز
ما لديك وأحسنه » .

أرأيت من خلال هذه اللوحات التى عرضناها عليك ما هى طبيعة نيتشه ؟

أرأيت كيف أن الطابع الرئيسى السائد فى هذه الطبيعة ، والذى يلخصها أحسن تلخيص ، هو « الامتياز الخارق ، الممتلىء شعوراً بذاته ، المتفانى فى الاخلاص لرسالته » ؟

امتيازاً يجعل من حياته حياة غريبة شاذة لا يكاد تاريخ الانسانية الروحىّ أن يجد لها مثيلا ولا قريناً ؛ ومن وجوده مأساة هائلة رائعة : موضوعها كفاح العبقرية من أجل تحقيق رسالتها وما لاقته فى هذا الكفاح من آلام وما تخلله من كوارث وأحداث ، وبطلها شخص مفرد احتملها كلها وحده ، وكانت الوحدة وطنه وقصره الشامخ المخيف ؟

وامتلاءً يحمله على الاستقلال المطلق ، والجرأة التي تكاد تبلغ حد الوقاحة ، وفرض الارادة والشخصية فرضاً يشعر الناس بازائها شعورَهم وهم فى جوار بناء ضخم يتحدى السماء ، فيبتعدون عنه خائفين من أن ينقضّ عليهم ، ويحيا هو فريداً ليس بجواره انسان .

وتفانياً يضحى معه بكل شيء قد يتنافى مع أداء الرسالة على وجهها الأكمل ، ويستحيل فيه ما يراه الآخرون غايات الى أدوات وآلات ، يستخدمها كى يتم واجب الرسالة ويعلو بها الى أسمى أوج تستطيع بلوغه ، أو قدر له الوصول اليه، على الرغم من فداحة الكفّارة التى يتقدم بها بسبب هـذا القلب للأوضاع من غايات الى آلات (كما حدث فى مسألة صداقته لڤجنر) .

وهل رأيت كيف احتمل هذا الفداء وذلك الاستشهاد فى رضى وغبطـة ، بل وطلب للمزيد ، وكأنه يقول للقـدر ، متحدياً ، ما قاله زرادشت للموت : « أهذه هى الحياة ؟ اذاً هاتها مرة أخرى ! » ؟

وهل رأيته أخيراً وقد حقق « أسمى غاية للانسان ، وهى أن يكون ناضجاً تمام النضج للموت » —

فصاح بما صاح به زرادشت للنجم العظيم وهو يغيب : « ايه أيها النجم العظيم ... آنَى لى الآن أن أغيب كما تغيب ... طوبى للكأس التى تريد أن تطفح كيما يفيض منها ماء كالذهب حاملاً فى كل مكان انعكاس ابتهاجك انظر ! ان الكأس تريد أن تفرغ من جديد ... وهكذا بدأ زرادشت يغيب » .

وغاب نيتشه عن الوجود فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٠٠ .

عصر مضطرب

« حضارتنا الأوربية تضطرب كلها منذ زمان فى عذاب توتر يزداد سنة بعد سنة ، كأنها موشكة على كارثة عظمى ؛ فهى قلقة ، عنيفة ، مندفعة ؛ ومثلها مثل السيل يندفع نحو النهاية ... ويخاف أن يراجع نفسه » .

قَرنٌ مُعقَّد

> « القرن التاسع عشر أكثر القرون حيوانية وجهنمية وقبحاً وواقعية وشعبية . وهو من أجل هذا بالذاتّ «أحسنها» وأعظمها شرفاً واخلاصاً وصراحه « وأشدها اذعاناً » للواقع أيا كان وأقربها الى الحقيقة. لكنه ضعيف الارادة، حزين ، ميال للظلمة، جبرى».

صلة المفكر بالقرن الذى يحيا فيه كصلة الابن العاق بأبيه : يرث عنه ملامحه الرئيسية وخصائصه ، ويأخذ منه ما فيه من قوى ودوافع ، ويتجه أول الأمر فى تياره وينطبع بطابعه . وتراه فى البدء يخلص فى توقيره واحترامه ، وينظر اليه فى شيء من التقديس والشعور بالخضوع والاذعان . ثم لا يلبث ، اذا استوثق من نفسه ، وامتلأ ادراكا لذاته ، أن ينقلب عليه ، فيصغر من شأنه ويهون من أمر قواه وما يقدمه اليه ، ويشعر شعوراً زاخراً بأنه يستطيع أن يفوقه ويعلو على الدرجة التى وصل اليها ، بل وأن يقلب ما فيه رأساً على عقب ، كى يشكله على نحو جديد ، ونموذج

مثالى وضعه له فى مخيلته . فتجده حينئذ ثائراً عليه ، حانقاً على كل ما فيه ، راغباً فى تفرقة عناصره ليكوِّن اتحاداً آخر من جديد ، يستعمل فى ايجاده من العوامل المساعدة ما تتيحه له عبقريته وطرافته وقدرة الخلق والابتكار لديه .

وهو فى تصغيره من شأن القرن مدفوع بعاملين متعارضين، أو شبه متعارضين، الأول الوهم فى التقدير، والثانى النموذج الأعلى الذى صوَّره له فى نفسه . فهو يضع من قيمة الثروة التى يقدمها له القرن ، ولا يستطيع أن يقدرها حق قدرها ، لأنه أولاً تسلمها كتلة واحدة ووجدها كما يجد الانسان ثروة فى عُرض الطريق ، لم يتعب فى جمعها جزءاً جزءاً ولا فى الظفر بها قطعةً قطعةً ، فى شىء كثير من الجهد والعنت والتكاليف والكفاح . وكأن القرن قد وجدها هو الآخر كذلك فجأة ودون نضال وكد ، أو كأنها نزلت عليه من السماء ، ولم يكن له من فضل الا فى تسليمها له ؛ فهو الرسول والوسيط فحسب ! وقيم الأشياء يتوقف مقدارها الى حد كبير جداً على مقدار ما بذل فى انتاجها من مجهود ، كما علمنا رجال الاقتصاد . وهو يقلل من قيمة هذه الثروة ، ثانيةً ، لأنه يعيش وسطها فلا يحسن تقديرها، كما لا يستطيع المرء أن يرى مدينة من المدن جيداً الا اذا ابتعد عنها بعض الابتعاد .

ولئن كان هذا العامل شبه سلبى ، فان هناك عاملا ثانياً ايجابياً يدفعه الى التصغير من شأن القرن ، ألا وهو النموذج الأعلى الذى رسمه عقله وعبقريته. وهذا العامل خاص بكبار المفكرين وأصحاب العبقرية ، بينما الأول يكاد الناس جميعاً أن يشتركوا فيه ، على تفاوت فيما بينهم .

وتراهم باسم هذا النموذج يحملون لواء ثورتهم على القرن وعلى الزمن الحاضر الذى يعيشون فيه . وقد يكون هذا النموذج مأخوذاً عن نموذج قديم ، مع بعض التعديل والتحوير بما يتلاءم وروح الحاضر ومقتضيات التطـور . وقد يكون جديداً لم يسبق له من قبل مثيل . فهو نموذج للمستقبل ، وان كان الجـزء الأكبر من مواده مأخوذاً عن الحاضر والمـاضى . وقد يكون أخيراً جامعـاً بين الاثنين : بين الأخذ عن نموذج قديم ، وبين التشبه بنموذج جـديد مقبل . وفى هذا كله يقوم صراع عنيف بين الأزمنة : صراع بين الحاضر والمـاضى فى الحالة الأولى ، وصراع بين الحاضر والمستقبل فى الحالة الثانية ، وصراع بين آناء الزمان الثلاثة فى الحالة الأخيرة .

وياله من صراع رائع يثير الكثير من التشويق لمن يقفون منه موقف النظارة ، ويبعث أشد الحماسة وكوامن غريزة الكفاح فى نفوس من يعانونه ويضطربون فى حومته !

وليس هذا الصراع بين المفكر والقرن عارضاً ، أو خاصاً بمفكر دون مفكر ؛ انما هو قانون عام على أساسه تتوالى التطورات الروحية للانسانية ممثلة فى خلاصتها من المفكرين طوال جميع القرون ، بل هو قانون أساسى من أهم القوانين التى لابد لفلسفة الحضارة من أن تلجأ اليها أول ما تلجأ ، حين تريد تفسير تطور الحضارات ، كما لابد لمن يدرسون المفكرين أن يحسبوا له ألف حساب ، اذا أرادوا أن يفهموا أصحابهم فهماً جيداً خالياً من الغموض والحلقات المفقودة ، خصوصاً اذا كان هؤلاء من ذوى التفكير الحى الثائر الذى يصارع الواقع كى ينتصر عليه وينصِّب نظرة فى العالم جديدة ، تشيع فى الوجود روحاً جديدة وتصوره فى صورة أعلى وأسمى ، تحل محل الواقع الذى وجد المفكرُ نفسه بازائه فى بادىء الأمر .

ولعل تفكير نيتشه من أحسن النماذج لهذا النوع من التفكير ، ان لم يكن أحسنها جميعاً . ولِمَ لا ، وهو الذى كان يعتقد أنه بفلسفته قد قسم العالم الى قسمين ، وبه سيبدأ العالم تاريخاً جديداً : « وليس من المستحيل أن أكون أكبر من هذا : لعلنى حادث حاسم فاصل بين ألفى سنة » . « ان مكانتى الفلسفية مكانة مستقلة كل الاستقلال، على الرغم من كل شعور عندى بأني وريث آلاف من السنين عدة : ان أوربا الحاضرة لا تعرف مطلقاً أية أحداث هائلة

يدور حولها وجودى كله ، ولا بأية عجلة من المشاكل قد ارتبطت ــ كما لا تعرف أن كارثة عظمى تتهيأ للحــدوث ، أنا باعثها وأعرف اسمها ، لكنى لن أقوله أبداً». «أنا أعرف مصيرى . فان اسمى سيقترن به يوماً من الأيام ذكرى شيء هائل ــ ، ذكرى أزمة لم يكن لها من قبلُ مثيل على ظهر الأرض ، واصطدام عميق كل العمق بين الضمائر والعقول بعضها ببعض » (١) .

وقد خص العصر الذى وُجد فيه بمكان فسيح فى كتبه كلها ، خصوصاً كتاب « ارادة القوة » ، فنقده أعنف نقد ، حتى ليمكن أن يقــال ان فلسفة نيتشه كلهــا لم تكن فى جوهرها ونتائجها المهمة الا حملة شــعواء على قرنه ، كما سترى بعد حين . وكلما انتهى من حملة استعد لحملة جديدة، لأنه لم يكن يستطيع مطلقاً أن يتخلص من قرنه فينساه وينفيه من ذاكرته ، لأن الرابطة بينه وبين قرنه ، كما هى الرابطة بين كل مفكر وقرنه ، تشبه رابطة الدم ، لا يستطيع الانسان قطعها مهما حاول ، أو كما قلنا فى أول الفصل : هى الرابطة بين الابن العاقّ والأب ؛ وهى رابطة لا يمكن أحدهما أن ينساها أو يغفلها ، مهما اشتد تنكر الواحد للآخر ، ومهما بلغ الجحود به والعقوق .

---

(١) ما أعجب أن تتحقق هــذه النبوءة فى الحرب العالمية الثانيــة .

ومن أجل هذا كله كان لا مندوحة لنا عن أن تتحدث عن هذا القرن الذى كان نيتشه ابنه البار فى البدء ، العاق الثائر فى النهاية . لكن قبل البدء فى الحديث عن التطور الروحى فى القرن التاسع عشر ، نود أن نسجل ملاحظة أخرى، خاصة بقانون تطور الحضارات ، ومرتبطة بما قلناه حتى الآن . تلك هى أن الثورة التى يقوم بها المفكر أو القرن من المفكرين ضد القرن الذى ولد فيه ، ليس معناها مطلقاً أن الاتجاه الجديد لم يكن موجوداً على أية صورة فى هذا القرن . بل المشاهد دائما هو أن التيار الجديد الذى يعطيه المفكر أو القرن من المفكرين القوةَ الدافعة كان موجوداً فى القرن ، لكنه كان يسير فى مسارب خفية تحت الأرض ، ويسرى فى غرفات مظلمة، لأنه لم يكن قادراً بعد على الظهور على سطح الأرض وحيث النور الباهر . أو تراه وقد اختلط بغيره من التيارات الكبرى التى تفوقه طاقة ودافعاً بمراحل عدة ، فلا يتبينه المرء الا بصعوبة ، وهو بدوره لا يستطيع أن ينتج أثراً واضحاً يلمسه الانسان ، ويعلن هو عن نفسه بنفسه . والا لكانت فى التاريخ هوّات غير معبورة ، وهذا مستحيل من الناحية الوجودية والواقعية معاً . ومن هنا كان التحديد القاطع بين قرن وقرن مستحيلا .

وثمة ملاحظة ثالثة متصلة بالأوليين أوثق اتصال ، وهى أن

حضارة القرن تعينها حضارة القرن السابق عليه سلباً وايجاباً. أعنى أن هذا القرن الأخير يخلف للقرن الأول تراثاً معيناً . فيقف منه هذا القرن الأول موقفين متعارضين : أحدهما ردٌّ فعل ضد ما ساد القرن السابق ، ومحاولةٌ للرجوع الى ما كانت عليه حضارة قرن سابق بعدة قرون ، وثانيهما امتداد لاتجاه القرن السابق . لكن ليس رد الفعل رد فعل فحسب، الغاية منه الرجوع الى قرن سابق ونقله على صورته من دون تغيير ، كما أن الامتداد بالاتجاه السائد فى القرن السابق ليس امتداداً خالصاً ، لا تغيير فيه ؛ بل بالعكس : يحاول رد الفعل أن يجد ، بقدر الامكان،مجالا للتطور الجديد ـ الذى يقوم هو ضده ـ فى داخله . ويكون الامتداد امتداداً فى ناحية واحدة من نواحى الاتجاه السابق عليه ، مع مراعاة النقد الذى وجهه رد الفعل الى الاتجاه الأصلى ، ومحاولة تلافى النقص الذى اكتشفه قدر المستطاع .

وعلى ضوء هذه الملاحظات ، خصوصاً الأخيرة منها ، فلنحاول أن نكشف عن التطور الروحى فى القرن الذى ولد فيه نيتشه وحاربه ، وعن الخصائص التى تفرد بها وتميز .

بلغت روح العصر الحديث فى أوروبا أَوْجَهَا فى القرن الثامن عشر ، وهو القرن الذى تواضع الناس على تسميته باسم « عصر التنوير » أو « قرن التنوير »

والتنوير كما يقول كنت هو خروج الانسان من حالة القاصر التى جلبها على نفسه بنفسه . أما حالة القاصر فمعناها العجز عن أن يستخدم عقله بنفسه ودون قيادة الآخرين . وهو الذى جلبها على نفسه لأن السبب فى هذه الحالة ليس قصوراً فى عقله وعجزاً طبيعياً فيه ، انما السبب فقدان العزيمة القوية والشجاعة لتوجيه نفسه بنفسه !

ومن هنا فان التنوير يطالب الانسان بأن تكون له العزيمة الكافية لاستخدام عقله بنفسه .

والخصائص الرئيسية للتنوير هى : أولا : ايمان الروح أو العقل بقدرته على التحرر من كل ما ورثه من عبودية فكرية وعلى تقرير مصيره بيديه . وثانياً : الأمل الوطيد فى التقدم المستمر نحو حرية الانسانية وكرامتها وسعادتها . وثالثاً : الشعور الواضح بما ألقى على عاتق الانسان من مسئولية كبرى بازاء هذا التقرير لمصيره تقريراً ارادياً مختاراً. ورابعاً : الشجاعة فى اخضاع كل الآراء والمذاهب الموروثة لامتحان العقل وحكمه،وتشكيل الدولة والمجتمع والاقتصاد والقانون والدين والتربية بشكل جديد تبعاً لمبادىء وأسس قوية جديدة . وخامساً وأخيراً : الايمان بتضامن مصالح الانسانية بأسرها وزيادة الاخاء بين الناس جميعاً على أساس هذه الحضارة العقلية المستمرة فى تقدمها وتطورها نحو الكمال .

فعبادة العقل اذاً هى الطابع الرئيسى لهذا القرن ، ومبادىء العقل هى وحدها التى يجب أن يقوم عليها بنـاء الجماعة الانسانية فى مختلف ميادينها الروحية : سواء فى السياسة وفى الأخلاق وفى المعتقدات وفى النظرة الكونية .

ففى السياسة نادى ڤولتير وروسـو وموتتسكييه باقامة نظم الحـكم على أساس عقلى صرف ، صادر عن طبيعـة الانسان وقواها ، دون التجاء الى ميـدان آخر خارج عن العقل والطبيعة أو عال على الكون . فلا حق الهياً مقـدساً للملوك، وليس لأوامر الكنيسة ونواهيها أى حق فى التدخل فى وضع نظام الدولة والسيطرة عليه . ولا صلة للدين بالدولة على صورة سيطرة وتدخل : فما تدخل الدين فى شـئون الدولة ، وما تدخلت الدولة فى شئون الدين ، الا كان فى ذلك الفسادُ المحقق للاثنين . فليستقلَّ كل منهما بعالمـه الخاص ، وليُفصل بين الاثنين تمام الفصل . والعقل هـو المشرع الوحيد الذى يسن قوانين نفسه بنفسه ، وليس لأية سلطة أخرى، كائنة ما كانت أن تفرض عليـه قانوناً ما من القوانين .

وقام آدم سمث فى ميدان الاقتصاد يحمـل لواء مذهب جديد يقوم على الطبيعة الانسانية ومبادىء العقل وحرية الفرد ، ضد المذهب التجـارى القديم الذى كان يخضع

الفرد للدولة وأوامرها المالية فى اتجاهه وفى حياته الاقتصادية كلها . فانتشر هذا المذهب انتشاراً واسعاً حتى أصبح « الدين الجديد لعالم الطبقة الوسطى » فى أوربا ، وكان الأساس لنظام الرأسمالية الذى ساد القرن التاسع عشر بأسره ، ولا زال باقياً حتى اليوم . وأهم ما فى هذا المذهب هو أنه اكتشف أن الأثرة الطبيعية صالحة كل الصلاح لأن تكون مبدءاً للتقدم فى الميدان الاقتصادى تقدماً هائلاً ، فيجب استثارتها وترك المجال أمامها حتى تبذل كل ما فى وسعها للرخاء الاقتصادى ونماء الحياة الاقتصادية ، بأن يكون الفرد حراً فى نشاطه الاقتصادى ، فترفع الدولة يدها من الاقتصاد ، وتتنحى عن رقابتها وسيطرتها ، وتلغى القيود التى فرضتها . فالحرية الاقتصادية اذاً هى الأساس الأول لكل انتعاش اقتصادى . ومعنى هذه الحرية الفردية هو أن العقل عند كل انسان هو الذى يتحكم فى أموره ، يدبرها على حسب مبادئه ، ويسن لها هو بنفسه من القوانين ما يكفل صلاحها وتقدمها . فهو فى هذا الميدان اذاً يصدر عن طبيعته وذاته ، ولا يخضع لشىء خارج عنه ، يفرض عليه قسراً دون ارادة . وهذه خاصية رئيسية من خصائص حركة التنوير ، كما أشرنا اليه من قبل .

وحاول الفلاسفة أن يضعوا للسلوك الانسانى قواعد

مطابقة لما يقضي به العقل ، ومحررة للانسان من القواعد التى وضعتها له الكنيسة . فقالوا ان التجربة وحدها هى التى يجب أن تحدد للانسان ما هو خير وما هو شر : فالنافع هو الخير ، والضار هو الشر . وضمير الانسان هو الحكم الذى لا مُعقِّب لحكمه ، وهو القاضى الذى لا مردّ لقضائه . لكن لما كانت الأخلاق لا ترى الخير بالضرورة فيما هو كائن ، انما فيما يجب أن يكون فلا مناص من الالتجاء الى مبدأ أعلى ونموذج أرفع من التجربة ، به يقاس الخير والشر فى أعمال الناس التى يأتونها فى واقع الحياة والتجربة الحقيقية . فأين نجد اذاً هذا المبدأ المتعالى على التجربة ؟

أنجده فى الدين والأوامر الالهية ، وهى سلطة خارجة عن العقل ؟ كلا ، والا فانا نقع حينئذ فى المحظور الذى حاولنا منذ البدء تجنبه .

انما نريد مبدأ آخر جديداً يعلو على التجربة ويفوقها ، لكنه من جهة أخرى لا يخرج عن العقل ونطاق ذاتيته .

ووجد كَنْت هذا المبدأ ، وسماه « الواجب » . ففى الطبيعة الإنسانية يوجد بالفطرة آمر مطلق يقول للانسان هذا واجبك ، فافعله وليس هذا الواجب مشروطاً بشىء

من الأشياء ، بمعنى أنه لا يرمى المرء وراء تحقيقه الى شىء آخر غير هذا التحقيق : لا المنفعة ، ولا السعادة بمعناها الشائع المبتذل ، ولا طاعة أمر صادر اليه من الخارج ، سواء من الدين ومن الدنيا . والعقل وحده هو الذى يحدد ماهو واجب وما هو غير واجب .

وبهذا نكون قد توصلنا اذاً الى اكتشاف مبدأ يعلو على التجربة ، لأنه يفرض نفسه عليها ويسن لها القوانين ويوجه الارادة الانسانية فى سلوكها الواقعى ؛ وفى الآن نفسه يصدر عن العقل لأنه مركب فيه بالفطرة وموجود فيه من جوهره .

ثم انتقلوا من ميدان الأخلاق الى ميدان الدين . وهنا لم يكن الغرض من ثورتهم وتفكيرهم أن يضعوا العقل مكان الله . كلا ! انما أرادوا أن يفصلوا بين مملكتى العقل والله ، وأن يمنحوا كل واحدة منهما استقلالها التام ، مع الايمان بهما جميعاً فى أطهر صورهما وأنقاها وأبعدها عن الشعوذة والدَّجْل . فهم يؤمنون بالله ، لكنهم لا يؤمنون بحق الكنيسة فى الهيمنة على عقائد الناس ، ولا يعترفون بما أدخلته على الدين من مراسم وطقوس ، أصبحت أو كادت تصبح فى نظرها جوهره وليست فى الواقع الا غباراً يعكر صفوه . وكل ما يطابق العقل من الدين

يجب الاعتقاد به . لذا نرى الكثيرين منهم يحاولون جهدهم اثبات العقائد الدينية الأساسية اثباتاً عقلياً خالصاً . فلوك ، الفيلسوف الانجليزى المشهور ، يبرهن على معقولية المسيحية ومطابقتها لمبادىء العقل ؛ ويقوم لِسِنج فى ألمانيا محاولاً تأييد الدين بالبراهين العقلية ، ثائراً مع ذلك على الكنيسة . ثم يأتى كَنْت أخيراً فيقول ان العقل المجرد ، أى التفكير النظرى ، لا يمكنه التوصل الى الايمان بوجود الله ، ولكننا عن طريق الأخلاق لابد أن نصل الى الايمان بوجوده بوصفه نموذج الكمال والعلة الوحيدة القادرة على ايجاد الخير الأسمى الذى يشعر العقل العملى ، أى التفكير الأخلاقى ، بوجوب تحقيقه للانسان . وعلى هذا النحو يستمر كَنْت محاولاً اثبات العقائد الرئيسية الأخرى مثل خلود الروح والحرية الانسانية ، واذا به ينتهى عن طريق الأخلاق الى الدين .

أما النظرة الكونية فقد وضع لها كَنْت آخر صيغة عرفها هذا القرن بأن فصل فصلا تاماً بين عالمين : عالم التجربة ، وعالم يعلو على التجربة ولكنه فى نطاق العقل . ويسوده العقل المجرد الذى يفرض مبادئه على التجربة والعالم الثانى سابق على العالم الأول وشرط لوجوده ، فيتشكل تبعاً لمقتضيات هذه المبادىء . فكأنها اذاً ،

أى هذه المبادىء ، لا وجود لهـا فى الواقع والتجـربة ، انما هى أشياء يضيفها العقل الى مضـمون التجـربة كى يستطيع أن يتصوره . وأشهر هذه المبادىء : الزمان والمكان والعلية . فلا يستطيع العقل أن يتصور المـادة الا فى مكان، والتغير الا وهو يجرى فى زمان ، والحوادث الا وهى معلولة بعضها لبعض .

ويمتاز عصر التنوير كذلك بأنه اتجه اتجاهاً تاماً نحـو المستقبل محاولاً أن ينسى المـاضى نسياناً كليـاً . أليس هو الذى يقول بالتقدم المستمر فى مستقبل لا نهائى ؟ ومن هنا رأيناه يهمل التاريخ القديم والتقاليـد الموروثة اهمالاً تاماً . ولمـا كان التاريخ لابد أن يُحسب حسابه جيـداً كى يمكن تحقيق المُثل التى يود المرء تحقيقها ، فقد أخفق أصحاب عصر التنوير فى كل المثل التى أعلنوها ، وجاءت مثلهم ساذجة ، فيها افراط فى التفاؤل الأهوج ، البعيـد كل البعـد عن أن يطابق دلالة الواقـع والتجربة . فهـم يثورون ضد الروح القومية ، ويعدّونها بقيـة من بقـايا العصور الوسطى والنظـام الاقطاعى ، وينظرون الى الأمم بأسرها والانسانية جمعاء على أنّها أسرة واحدة ، أو يمكن جمعها فى أسرة واحدة ؛ ويحلم كَنت « بالسلام الأبدى » الدائم ، ويظن أنه يكفى لتحقيقه أن تتخذ الدولُ جميعها النظامَ الجمهورى فى الحكم .

ذلك هو التراث الذى خلفه القرن الثامن عشر للقرن التاسع عشر .

ولد القرن التاسع عشر فى مؤتمر ڤينا سنة ١٨١٥ . فبدأ ينظر الى هذا التراث ويحدق نظره فيه ، فهز رأسه فى بادىء الأمر ، وما لبث أن ثار عليه وحاول أن يقوم بحركة مضادة للاتجاه الذى يسير فيه . فكان رد فعل شديد ملأ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، اذْ استمر حتى سنة ١٨٤٨ .

هذا الرد فعل هو ما يسمونه فى التاريخ باسم مذهب أو حركة « الروماتنيك » .

قامت هذه الحركة تعارض حركة التنوير فى كل ما أتت به وما خلفته لها . وقد بدأت أولَ ما بدأت فى ألمانيا ، لأن ظروف ألمانيا السياسية والفكرية كانت تدعو الى ايجادها فيها قبل غيرها من الدول الأوربية الأخرى . فقد كانت ألمانيا من الناحية السياسية ضعيفة كل الضعف ، ممزقة فيما بينها الى عدة ولايات . وبلدٌ هذا شأنه يحاول دائماً أن يعزى نفسه عن الحاضر ، بالماضى ؛ وتراه يرفع من شأن ماضيه ، لأنه لا مجال للتفاخر الا فيه . ثم ان الشعب الألمانى كان يشعر ، من جهة أخرى ، بأنه فى حاجة

الى الوحدة التامة فتصبح كل الولايات الألمانية المتعددة دولة واحدة . وكان هذا الشعور قوياً يختلج فى ضمير الشعب ، فاندفع يعبر عنه الشعراء ثم الفلاسفة والكتاب . لكن كان لابد لهم من نموذج فى الماضى يثير حميتهم ويدفعهم الى تقليده فى المستقبل ، أو يشيع فى نفوسهم شيئاً من العزاء . فراحوا يعكفون على الماضى يقدسونه لينسوا به هموم الحاضر ، وكان هذا الماضى هو العصور الوسطى ، حين كان الشعب الألمانى جميعه وحدة واحدة فى عهد أوتو الأكبر ، أى فى أيام الأمبراطورية الجرمانية المقدسة . فكأنهم اذاً سينصرفون الى الماضى ، بدلاً من الحاضر والمستقبل كما كانت الحال لدى رجال قرن التنوير. وكأنهم سيعنون بالتاريخ ويستخلصونه من ذاكرة الزمان بكل قواهم ، بعكس أصحاب نزعة التنوير الذين حاولوا نسيان التاريخ نسياناً تاماً .

ومن الناحية الفكرية ، وصلت حركة التنوير الى أعلى صورة وصلت اليها على يد كَنت ، أى فى ألمانيا . ولما كانت قد وصلت الحد النهائى والأوج الذى لا شىء أعلى منه ، فقد كان لابد لها من احدى خصلتين : فاما أن تقف وقفة نهائية ، وهذا مستحيل فى التاريخ على حسب قانون التطور الحضارى ، أو أن تنزل من القمة التى بلغتها .

فاضطرت حركة التنوير اذاً فى ألمانيا أن تبدأ النزول فى اتجاه مضاد لاتجاه صعودها . وكان هذا الاتجاه هو حركة « الروماتنيك » .

ثم امتدت هذه الحركة من ألمانيا الى باقى الدول فى أوربا .

وتكاد خصائصها أن تتعارض تمام التعارض مع حركة التنوير : فبينما هذه الحركة الأخيرة تقول بالفردية والذاتية وتحلل المرء من كل التقاليد الموروثة والظروف التى وجد فيها ، أرادت حركة الروماتنيك أن تزج بالفرد فى وسط الأمة ، وأن تخضعه خضوعاً تاماً أو شبه تام لسلطان الدولة والكنيسة ، وأن تجعله خاضعاً لظروف الزمان الذى وجد فيه والجنس الذى ينتمى اليه والمكان الذى يقيم به ؛ وأن يحيا الماضىَ كله فى نفسه ، ويكوّن منه ، خصوصاً ماضى أمته وتقاليدها وعاداتها وأساطيرها وأحداثها ، تجربة روحية يعانيها فى داخل ذاته . فكأن الانسان فى نظر أصحاب النزعة الروماتنيكية كتلة من الماضى مرتبطة بمكان معين ، ومحدودة بزمان معلوم .

وبينما أصحاب نزعة التنوير يقضون على كل أثر من آثار العصور الوسطى أو يحاولون أن يقضوا عليه ، نرى

أصحاب النزعة الجديدة يقدسون العصور الوسطى ، ويعدّونها أرقى العصور الانسانية وأحفلها بالفضيلة ، وأقربها الى تحقيق مثلهم . ويجد الشعراء لذة ما بعدها لذة فى أن يشموا روائح البخور المتصاعدة من كنائس هذا العصر الوسيط وأديرته ، وأن يستنشقوا هواءه الدينى المخدر ، وأن ينتحوا ناحية من نواحيه التى يضىء فيها نور الشموع الضئيل الحزين .

وبينما رجال قرن التنوير لا يجدون الله الا اذا وصلوا الى ميدان الأخلاق فحسب ، يجد رجال الروماتنيكية الله حالاً فى كل شىء ، بادياً أثره على كل مخلوق : بل يجدون الطبيعة كلها كائناً عضوياً حياً سرت فيه روح الله ، والكون كله هو « النسيج الحى للأبدية » كما يقول جيته .

ولم يعودوا يفصلون بين عالمين : عالم التجربة ، وعالم العقل المجرد ، كما فعل أصحاب نزعة التنوير ؛ انما العقل والتجربة من نسيج واحد ، اختلطت خيوطه واشتبكت ، ولا فصل للواحد عن الآخر ، بل لا وجود لأحد منهما دون الآخر .

وفى ميدان الاقتصاد قام أصحابها يحملون على مذهب آدم سمث ، فيطالبون بالغاء حرية التجارة والصناعة ،

وبوضع كل الحياة الاقتصادية فى يد الدولة ، وبارجاع نظام النقابات الذى ساد العصور الوسطى،وبالاقلاع عن التنظيم العلمى للعمل وتقسيمه ، لأن فى هذا كله حرماناً للصناع الصغار من أعمالهم ، وسيطرة رجال الأعمال الرأسماليين على الحياة الاقتصادية كلها .

وكان ظهور هذه الحركة بأجلى صورها فى الفن والأدب . فاندفع الشعراء وأصحاب الفن يهربون من الحياة الواقعية ويصورون نوعاً آخر من الحياة اشترك فى صنعه خيالهم من جهة ، والعصور الوسطى خصوصاً والماضى عموماً من جهة أخرى .

لكنها انتقلت من الفن والأدب ، وهما ميدانها الحقيقى والوحيد الذى يصلح لها وتصلح له ، الى ميادين أخرى . وهنا لم تفلح ، اللهم الا فى ميدان الدراسات التاريخية : فقد نجحت نجاحاً باهراً على يد المؤرخ الألمانى الشهير نيبور ، وميدان القانون على يد سافينى المشرع الألمانى الذى وضع أسس التشريع الحديث فى ألمانيا .

وكان اخفاقها عظيما . لأنه كان يقوم الى جوارها منذ البدء حركة أخرى هى امتداد لحركة التنوير ، لم تستطع الحركة الرومانتيكية أن تبتلعها ولا أن تؤثر تأثيرا قوياً فى

سيرها واندفاعها الى السيادة والسيطرة . هـذه الحـركة هى حركة « الوضعية » . و « الوضعية » هى هذا المذهب الذى يقصر بحثه ودراسته على ما هو واقعى تعطيه التجربة ، صارفاً نظره عن كل بحث خارج عن الواقع أو وراء الطبيعة بوصفه عبثا لا طائل تحته . فهو مذهب واقعى ، مادى ، موضوعى ، لا يتجه الا الى العالم الأرضى المادى . ومواده كلها هى الظواهر ولا يؤمن بوجود شىء وراء هـذه الظواهر التى نشاهدها ، ويقدمها أمام أنظارنا الواقع .

والذى ساعد على قيام هذه الحركة الجديدة ، وأعطاها قوة دافعة هائلة جعلتها تسود نصف القرن التاسع عشر الثانى كله وأوائل القرن العشرين ، هو تقدم الآلة فى القرن التاسع عشر تقدماً سريعاً خطيراً ، يسير بخطى المَرَدة . حتى كانت الآلية الطابع الرئيسى السائد فى القرن التاسع عشر : بها تأثرت حياته كلها سواء الاقتصادية والسيسيه والفكرية والاجتماعية . وكانت السبب الأول والأخير فى وثبة العلوم الطبيعية بقوة ، وقيام النظام الرأسمالى ، وزيادة عدد السكان فى هـذا القرن زيادة لم يشهد التاريخ لها مثيلاً من قبل .

والوضعية والآلية مظهران لشىء واحد هو العقل العلمى

الواقعى : فالوضعية هى التعبير النظرى ، والآلية هى التعبير العملى عن هذا العقل ، حتى ان الوضعية لَتُعرَّف بأنها « النظرة الكونية الصادرة عن فكر هيأته الآلية » . ولهذا نرى أن كبار القائلين بالمذهب الوضعى كانوا ممن عاشوا والآلات : فأوجست كونت ، مؤسس هذا المذهب ، كان مدرساً فى مدرسة الهندسة ؛ وهربرت اسْپنْسَر ، حامل لواء هذا المذهب فى انجلترا ، كان مهندساً اشترك فى انشاء أول سكة حديدية فى انجلترا .

كانت المادة هى الاله الذى اعترفت به الوضعية ودعت الى عبادته والايمان به ؛ وكانت الآلة هى الرسول لهذا الاله وممثّله أمام أعين الناس ، وداعيهم الى صلاح دنياهم ، فأصبحت لغة المذهب الجديد كلها لغة المادة ولغة الآلة ، وتعبيراته تعبيراتهما .

فليس فى العالم غير المادة ، وليست الروح الا مظهراً من مظاهرها ، فلا داعى اذاً لوجود اثنينية وتعارض بين عالمين مزعومين : عالم مادى ، وعالم روحى ؛ ولا مجال للبحث فى غير هذا العالم : فعلم ما وراء الطبيعة اذاً ألفاظ جوفاء لا تدل على شىء ؛ أو ان دلت ، فعلى فراغ عقول أصحابها .

وكل نظرة فى العالم لابد أن تقوم على أساس المادة والآلة ، فتصل الى قوانين كالقوانين الطبيعية سواء بسواء ، واذا عبرت عن نفسها فلتستعمل ألفاظ المادة والآلة كالطاقة والاختزال . وترى عالماً مثل أوستفلد يقيم بدل نظرية الواجب فى الأخلاق عند كنت ، نظرية أخرى يجب أن يسير على مقتضاها الانسان فى الحياة ، هى : « لا تبدد فى الطاقة ! » ويقول : ان الغرض الأعظم من الحضارة هو أن يهيىء أحسن الأحوال لتحول الطاقة الموجودة فى العالم !

وطبيعى أن تفضى الوضعية الى المادية الصرفة ، فيصبح القانون السائد فى كل أنواع النشاط الانسانى هو قانون المادة الأساسى ، ونعنى به قانون « حفظ الطاقة » . وتنتج المادية بدورها نظرية « المادية التاريخية » التى نادى بها كارل ماركس ، وهى النظرية التى ترمى الى تفسير التاريخ الانسانى كله بوساطة القوى المادية . فتقول ان تطور تاريخ الانسانية بأسره ناشىء عن القوى المادية ! وليس للقوى الروحية وذاتية العقل من أثر مطلقاً فى احداث هذا التطور أو التأثير فى اتجاهه ومجراه ! والوقائع والظواهر كلها من نتاج العوامل

الاقتصادية ، أى المادية ، وليست التيارات الروحية الا « الفضول الفكرى » للمنافع المادية !

فكان فى القرن التاسع عشر اذاً تياران قويان متعارضان : تيار الحركة الروماتتيكية ، وتيار الحركة الوضعية . وكان بينهما طوال القرن صراع حافل بالأحداث : فالمادة تريد أن تسود ، لكن الروح تعارض وتثور . وما جاءت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حتى بلغ اختلالُ التوازن أوجه ، لأن الآلية نمت نمواً عظيماً وقطعت فى طريق التطور خطوات واسعة جداً ، بينما لم تستطع المذاهب الروحية أن تجاريها فتخلفت عنها . لكنها لم تشأ مع ذلك التسليم . واذا بالانسان فى مستهل القرن العشرين يجد أن تطوره الروحى بعيد كل البعد عنأ ن يكون ناضجاً لهذا التطور المادى الهائل ، فكان لابد من وقوع كارثة هائلة بسبب هذا الاختلال الشنيع فى التوازن ، وهذا النزاع العنيف بين قوتى الحضارة : المادية والروحية . وكانت الحرب العظمى الأولى هى هذه الكارثة التى انتهى ببدئها القرن التاسع عشر . وعلى هذا النحو وحده يجب أن تفهم .

بل لازلنا حتى اليوم نعانى آثار هذا الصراع ؛ حتى

ان پول ڤلري الشاعر الفيلسوف الفرنسي يرى في عصرنا الحاضر « نزاعاً لا نهاية له بين أشياء لا تعرف الموت ، وأشياء أخرى لا تستطيع أن تعيش » ، ويعني بالأولى الروحانيات ، وبالثانية المـاديات التي تتغير وتفنى بسرعة .

أعراضُ انحلال

« طابع الانحـــلال بارز فى كل
ما ينبىء عن الانسان الحديث : غير
أن هناك الى جوار هـــذا الانحلال
والمرض مبـــاشرة ، علامات قدرة
للروح وقوة لم تجربا بعـــد . وان
الأسباب التى تجعل من جمهـــور
الناس صغاراً حقراء ، لهى عينهـــا
التى تدفع بالقـــادرين الأقوياء الى
العظمة والارتقاء »

لتطور الحضـــارات منطق قاس ، يقضى بأن يأتى على كل حضـــارة دور تنتهى ببدئه « الحضـــارة » بمعناهـــا الصحيح ، ليحل محلها نوع آخر هو « المدنية » .

فى هـــذا الدور الجـــديد ، دور « المدنية » ، تكون « الحضارة » قد استنفدت كل قواها الخالقـــة المبدِعة ، ولم تعد قادرة على انتاج شىء جديد . فيصبح همها أن تفسر التراث الذى خلفتـــه الحضـــارة الصحيحـــة ، وأن تعيش على استهلاكه شيئاً فشيئاً ، كما يبدد الوارث مال أبيه دون أن يضيف اليه جديداً أو حتى دون أن يحتفظ

به على حاله . وحياة رجل الحضارة ، كما لاحظ اشپنجلر ، تتجه الى باطنه وداخل ذاته ، أى الى أعماقه وقواه الخصبة التى يفيض بها ، بينما حياة رجل المدنية تتجه نحو الخارج، أى نحو المكان المحيط به ، ووسط الأجسام المادية والحوادث الصادرة من البيئة والوسط . ذلك لأن الرجل الأول يعطى ويمنح ويبذل ما لديه من ثروة وغنى روحى يسخو به على الآخرين ، بينما الرجل الثانى يجد نفسه عقيماً ، فقيراً من كل ثراء ذاتى ، وقوة حية تشيع فى روحه ويستطيع أن يعيش عليها ، فيضطر تبعاً لذلك الى سد هذا العجز بالالتجاء الى القوة الخارجة عنه ، يستجديها ويأخذ منها ما تسمح هى بانفاقه . ثم ان الرجل الأول يشعر فى داخل نفسه بسوْرة جامحة تدفع به الى البذل والفيض بقوته ، كى يصرِّفها ويخفف من ضغطها المتزايد الشديد ، بينما رجل المدنية يحس بأن هناك عوائق وسدوداً تقف دون حرية الخلق والابتكار لديه ، وبوجوب القيام بفحص دقيق لما هو موجود فى الخارج ، كى يستطيع أن يطبق عليه ويستخدمه . ومن هنا نجد العقل وأقيسته تسود حياته ، وتشغله فى كل عمل من أعماله : فهو يقدِّر الدَّخل والانفاق ، ويُجرى الحساب والموازنة ، ويحسب المنفعة والنتيجة ، بينما الغرائز وما تشتمل عليه من قوى زاخرة غير واعية هى التى تسير الحضارة .

والشعور بالمسئولية عند رجل المدنية شعور تافه غامض ، لأن المسئولية لا تصدر الا عن الذات والشعور بالذات شعوراً جلياً ملآن ، وهذا غير متحقق لدى رجل المدنية ، لأن حياته كما قلنا متجهة الى الخارج . ومن هنا تراه يطلب دائماً الحماية الخارجية والضمانات من الآخرين. وتراه يهرب من ذاته وأعماقها وكأنها هوة عميقة مخيفة لا يقوى على التحديق بنظره فيها ، فيفر منها الى عالم آخر خارجى عنه .

والأخلاق عند رجل المدنية غيرها عند رجل الحضارة : فالأولى أخلاق شعبية والثانية أخلاق بطولة ، على حد تعبير اشپنجلر . لأن الأول ينظر الى الحياة والعالم من وجهة نظر الحاجة اليومية والواقع المُلحّ ، ويحاول جهده أن يتجنب واجب الحياة الثقيل . أما الثانى فيفهم واجب الحياة بكل ما فيه من مصاعب ومشقة ، وما سيلقاه فى تحمله من آلام ، لكنه مع ذلك يقبل هذا الواجب ، ويُقبل على أدائه فى رضى وغبطة ، بل وفى شىء من الزهو والتفاخر .

والدين والحياة الدينية الخصبة القوية الحية من مميزات الحضارة : تجدهما فى كل مظاهرها من فن وعلم ونظم اجتماعية وسياسية لأن حياة الفرد الداخلية ثرّة غنية

بينما المدنية تكاد تخلو من الروح الدينية ، وتقفر منها شيئاً فشيئاً . ولسنا نقصد بالدين والروح الدينية هنا مظاهر الدين أو اتباع تعاليم دين معين ، انما نقصد هذا الغنى الروحى ، وتلك الحالة النفسية العميقة ، التى يشعر الانسان فيها بقوة وقدرة عظيمة على الايمان بشىء والتعلق به والاخلاص والتفانى من أجله والابتهاج بالتضحية فى سبيله ، أياً كان هذا الشىء .

وان شئت مثلا يريك الفارق بين الحضارة والمدنية على النحو الذى بيناه ، فقارن الحضارة الاسلامية عامة قبل القرن الرابع الهجرى ثم قارنها بعد ابتداء هذا القرن . فستجد أن خصائص لحضارة ، كما شرحناها هنا ، ظاهرة جلية فى الحياة الاسلامية قبل هذا القرن الرابع الهجرى ، كما ستجد أن الحياة الاسلامية منذ هذا القرن الرابع مطبوعة بطابع المدنية الذى رسمنا لك مظاهره وخطوطه الرئيسية . أو قارن الحضارة المصرية (بمعناها الواسع) فى عهد الدولة القديمة ، بالحضارة المصرية فى عهد الدولة الجديدة ، ترَ صفات الحضارة (بمعناها الضيق المحدد) تسِمُ الدولة القديمة ، وترَ صفات المدنية تصبغ الدولة الحديثة بصبغتها .

وان أردت مثلاً قريباً ، فانظر الى أوربا الحديثة منذ

أوائل العصر القوطى حتى عهد ناپليون ، وما كان فيها من خصب وقوى فياضة زاخرة وقدرة على الانتاج والخلق والابتكار ، والى أوربا منذ سقوط ناپليون أى منذ مستهل القرن التاسع عشر سنة ١٨١٥ .

ولما كانت أوربا منذ هذا التاريخ هى ما يعنينا هنا الآن ، فلنحاول أن نطبق عليها ما قلناه عن المدنية . فنلاحظ أولاً أن النظرات الكبرى والمذاهب الفلسفية الشامخة والآثار الفنية الضخمة قد انتهت بابتداء القرن التاسع عشر . فلم نعد نرى نظريات علمية فسيحه النطاق فى تطبيقها ، غنية فى نتائجها وما يستخلص منها ــ كما هى الحال بالنسبة الى نظريات كپلر وجاليليو ونيوتن . والفلسفة وقفت أبنيتها العالية المحكمة عند كنت ، ولم يصبح لدينا فى القرن التاسع عشر الا شروح لمذهب كنت أو تلفيق بين المذاهب الفلسفية المختلفة ، أو رجعية كلها تقليد وليس فيها شىء جديد ذو قيمة . والآثار الفنية على طراز آثار مكلنچلو ورمبرنت انعدمت أو كادت . وفى هذا كله نشاهد فقرا تاما أو شبه تام فى القرن التاسع عشر ، مما يدل على أن الحياة الروحية الزاخرة المنتجة الفياضة قد نضب معينها ، وأن القدرة على الخلق والابداع أخذت فى الزوال .

ونرى أن الكم قد بدأ يحل محل الكيف فى تقدير الأشياء : فكل شيء تقاس قيمته بحجمه ومقداره ، لابنوعه وصفاته . وأصبح الناس يتحدثون عن « الأغلبية » و « المجموع » و « أكبر عدد ممكن » ، الى آخر هذه الصيغ التى جرت على ألسنة الناس فى هذا القرن التاسع عشر ، بعد أن علمها لهم الكتاب والمفكرون . ولئن دل هذا على شيء ، فهو على أن الحياة الروحية قد استنفدت قواها وأصابها العدم والاملاق .

وتبلغ التفاهة بحياة الناس الروحية حداً يجعلهم ينظرون الى الأشياء الخارجية ، التى ليست الا أدوات تافهة بالنسبة الى غايات الحياة السامية ، نظرة اجلال أو تقديس . فتراهم يكثرون الحديث عن الطعام وأى أنواعه أشهى أو أنفع للصحة ، وعن المشروبات الروحية وفوائدها ومضارها ، وعن الجسم وصفاته المطلوبة .

ثم ماذا ؟

ثم يفقدون الشعور بما عليهم من المسئولية ، فيفرون من عالمهم الروحى الباطن ، ويصبح هذا الفرار وحياتهم شيئاً واحداً كما لاحظ ماكس پيكار حين قال عنهم : « ان الحياة والفرار (من نفوسهم وذاتيتهم) شيء واحد . وليس للانسان بعدُ اختيار بين الفرار وعدم الفرار ،

فالفرار أصبح حالة دائمة وشيئاً طبيعيا كالهواء » .
وتجدهم يهيبون بالحكومات للتدخل والحماية وفرض القيود باسم كذا وكذا من الأشياء .

ويبدو طابع المدنية بأجلى مظاهره فى الأخلاق . فتصبح الأخلاق مجموعة قواعد عملية يحيا بها الانسان فى حياته العادية اليومية ، ولا غنى له عنها ، فحاجته اليها كحاجة المريض الى بيانات الطبيب وارشاداته اليومية . وذلك لعجز حياة الناس الباطنة عن أن تنظم أحوالهم ، وتبين لهم بأنفسهم الطريق السوىّ الذى يسلكونه للوصول الى غاية ، أو الخروج من مأزق وحالة جديدة لابد للمرء أن يتكيف واياها . فالمرونة اذاً تعوزهم ، والقدرة على أن يشرعوا بأنفسهم لأنفسهم ما يحتاجون اليه من أخلاق مفقودة" لديهم . وبدلاً من أن يدركوا قوى الطبيعة وأحداثها ويفهموا واجب الحياة الثقيل ، ويقبلوا هذا كله فى شجاعة وعزيمة وحرص ، ويشعروا بأنهم فوق هذا كله وقادرون عليه ، تراهم يحاولون أن يتجنبوه قدر استطاعتهم بوسائل ضعيفة عاجزة مثل السلام الدائم ، أو الانسانية ، الخ ، ويشتد بهم العجز وضعف الارادة فيحملون على الوجود والحياة ، ويجدون السعادة فى القضاء على ارادة الحياة وفى الفناء ، كما انتهى الى هذا شوپنهور .

وتذهب الروح الدينية ، بالمعنى الذى حددناه آنفاً ، من نفوس الجميع ، كما هو ظاهر فى تصوير ادوار مانيه ، المصور الفرنسى المشهور وزعيم الحركة التأثرية فى التصوير ، لو قورن بتصوير بلاسكث ، المصور الأسبانى الكبير ، أو فى موسيقى ڤجنر ، لو قورنت بموسيقى هايدن . وكما هو واضح أيضاً فى مذهب الماركسية .

تم تستمر « المدنية » فى سيرها حتى تصل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الى حالة من الشك والانحلال : فيها يطّرح الناس ما كان لهم بالأمس من مُثل عليا : دينية وسياسية وفنية وأخلاقية ، وتصبح كل القيم المقدسة حتى ذلك الحين أوهاماً وأباطيل ، ولايجدون بعد معنى للحياة ، وغاية لهم من الوجود ، ويشعرون بأنهم قد خدِعوا فى كل القيم التى اتخذوها حتى الآن ، وينقلب هذا الشعور الى يأس من كل شىء ، وانكار لكل شىء . فالشك اذاً ، والانكار المطلق هو الطابع السائد لهذه الحالة ، ولذا سميت باسم « الروح الانكارية » .

وهذه الروح الانكارية هى التى وصفها نيتشه وصفاً دقيقاً وكشف عن خفاياها ، وأوضح أعراضها . وبعد أن تم له هذا حمل عليها حملة شعواء : فبين عللها وكيف تعالج ، وشخص داءها وهبَّ يطلب لها الدواء .

رأى نيتشه أن الانحلال والروح الانكارية فى أوربا قد بدآ ، وأنهما لابد أن يسودا القرنين التاليين ، فهذا ضرورة من ضرورات تاريخ الحضارات وتطورها . ومن أجل هذا نراه يقول فى مقدمة كتابه « ارادة القوة » ، وهو الكتاب الذى وصف فى الجزء الأول منه هذا الانحلال وتلك الروح الانكارية ، ما يلى : « ان ما أقصه عليكم الآن هو تاريخ القرنين التاليين . فأنا أصف اذاً ما هو آت ، ومالا يمكن الا أن يأتى ، وأعنى به « قيام » الروح الانكارية « الانحلالية » . ويمكن قص هذا التاريخ منذ الآن : لأن الضرورة ذاتها هى التى تعمل عملها هنا ؛ وهذا المستقبل يتحدث عن نفسه فى مئات من الدلائل والعلامات ، وهذا المصير يعلن عن نفسه فى كل مكان ، وكل الآذان قد أصبحت مرهفة لسماع موسيقى المستقبل هذه » .

والآن ، ما هو معنى هذا الانحلال وتلك الروح الانكارية ؟ معناها أن القيم العليا لم تعد قيماً بعد ، وأن الناس قد أعوزتها الغاية من الوجود ، وأعوزها الجواب على سؤالهم لأنفسهم لماذا هم يحيون ويوجدون . « فمياه الدين تنحسر وتترك من ورائها الغدران والمستنقعات ، والأمم تتباعد عن بعضها البعض ويسود بينها الشقاق والعداوة ... والعلوم تصبح أشتاتاً وتقضى

على أشد ما آمن به الناس واعتقدوه قوة ورسوخاً ... نعم ان هناك قوى هائلة لازالت موجودة ، لكنها قوى وحشية ، بدائية ، ليس فيها رحمة ولا أثر من رحمة ... ويكاد كل شىء الآن على ظهر الأرض تسيره أشد القوى شراً وفظاعة ، تسيره الأثرة الراسخة فى نفوس المالكين ، وأصحاب السيادة الحربية » . وكل شىء مضطرب مزعزع ، والطريق الذى نسير فيه زاخر بالأخطار ؛ و « الثلج الذى لا زال يحملنا فى الطريق قد أصبح رقيقاً جداً » . وأينما فتشت فى الرجل الحديث وجدت انحلالا لا يوصف ، ووجدت عجزاً مفرطاً ، وفقراً ويأساً وقلقاً .

وعوامل هذا الانحلال الخارجية عديدة ، وأولها « الآلة » . لأن الآلة ، ولو أنها من نتاج أسمى القوى الفكرية ، فانها لا تحرك من قوى الذين يستعملونها الا أدناها وأبعدها عن الابداع والتفكير . ولا تستطيع أن تدفع الانسان الى السمو والارتقاء ، ولا تقدر على اصلاح حاله وجعل حياته حياة سامية . وحركاتها الراتبة تثير الملل اليائس فى النفس ، وتعلم المرء الكسل ، وتفقد الانسان كل استقلال ذاتى ، فتجعل منه آلة مثلها ، مسخراً لغرض ما من الأغراض .

وثانى هذه العوامل الخارجية سيطرة الدهماء ونفوذهم

المتزايد . فالروح الشعبية التى أصبحت تخضع كل شيء لمعاييرها وتريد أن تنزل بكل العظماء المتازين الى مستواها ، هى موضع الخطر الأكبر فى هذا العصر . فالروح السطحية فى التفكير ، وعدم المبالاة بالأسس الروحية والقيم العليا للحضارة ، وسوء استعمال ما انتهى اليه العلم من نتائج ، والاقبال على المتوسط من كل شيء — كل هذا من خصائص الروح الشعبية : « كل شيء يسقط فى الماء ولا شيء يغوص بعدُ الى أعماق الينبوع » .

وقد شاعت هذه الروح الشعبية وأصبحت ذات حول وسلطان وكادت الطبقة الممتازة أن تفنى ، وهى الطبقة « الى تثبت الايمان بعظمة الانسان وقدرته بفضل ما لها من قوة وما فيها من غنى وخصوبة روحية » ، بينما « الطبقة المنحطة » (العامة ، الجمهور ، المجموع) لا تعرف الاعتدال والتواضع ، وتنفخ فى حاجاتها الوضعية لتجعل منها قيماً سامية كونية . ومن هنا تنحط الحياة كلها والوجود بأسره : لأنه بمقدار ما يسود الجمهور ، فانه يسيطر على المتازين الأفذاذ الى درجة أن يفقد هؤلاء ايمانهم بأنفسهم ، ويصبحوا بدورهم انكاريين انحلاليين » .

وهناك أحوال نفسية ثلاث تنشأ عنها هذه الروح الانكارية .

فحينما يحاوح الناس أن يجدوا فى الوجود المتطور « معنى » معيناً ، ليس موجودا فيه ، ينتهى أمرهم الى فقدان قوتهم وعزيمتهم والى أن ييأسوا وينكروا كل القيم . « وهذا المعنى قد يكون « تحقق » قانون أخلاقى سام ، ونظام أخلاقى للكون ، وقد يكون نماء الحب والانسجام فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وقد يكون الاقتراب من حالة سعادة عامة ، بل قد يكون أخيراً السعى وراء حالة فناء عامة ــ فأية غاية مهما كانت هى معنى » . وفى كل هذه الأحوال يفترض الانسان مقدما أن لعملية التطور غرضاً وغاية أخرى غير ذاتها ، وأن الوجود قد قصد به الى « معنى » لابد أن يتحقق . لكن لا يلبث أن يكتشف أنه كان واهماً فى افتراض وجوب وجود هذا المعنى ، ويتبين أنه كان مخدوعاً حين أراد أن يجد غاية ، وليس ثمت غاية ، وغرضاً وليس هناك من غرض آخر خارج عنه ، فهو هو غرض نفسه . وحينئذ يشعر يخجل أمام نفسه . وسواء أكان هذا الغرض غرضاً معيناً محدوداً ، أم كان الأغراض التى وضعتها الانسانية جميعا ، فالخداع فيهما جميعا ينتهى بالمرء الى الانكار : انكار كل قيمة للوجود ، وكل معنى للتطور والحياة .

ثم يكون اذا اعتقد المرء بأن التطور وأحداث الوجود كلها تكوِّن كلاً واحداً منظما ، يسير على سياق منطقى خاص ، كما فعل هيجل فى فلسفته التاريخية حين رأى أن التاريخ ليس الا تحقيق الروح المطلقة أو الفكرة الالهية ؛ وتبعا لهذا الاعتقاد يشعر الانسان بأنه ذرة من وحدة كبرى يخضع لها ولا يستقل بنفسه عنها ، ومن هنا يقول لنفسه : « ان خير الكل يقتضى تفانى الفرد » . ولكن هذا « الكل » المزعوم لا وجود له فى الواقع ، فيشعر بأنه قد خدع فى نشدانه وحدة فى الوجود . ولما كان يعلق على هذه الوحدة كل قيمة للوجود ، فانه سرعان ما ينكر قيمة الوجود ، ومن هنا ينشأ الانكار .

هذان نوعان من الخداع يدفعان الى انكار قيمة الوجود : خداع فى أن للوجود غاية ومعنى معيناً ، وخداع فى أن بالوجود وحدة تامة ونظاماً . وهناك نوع ثالث لعله أن يكون أهم من النوعين السابقين ، لأنه أكثر الجميع شيوعاً ، وأعمقها فى حياة جمهور الناس أثراً . وذلك أن يحكم الانسان على أن الوجود فى الدنيا باطل ، وأن هذه الحياة أوهام وخسران ..

فيذهب من بعد ساعياً وراء عالم آخر غير هذا العالم ، يعدُّه العالم الحقيقى . لكن يخيل اليه من بعد أنه خدع

« ويسلم بأن الوجود الواقعى هو الوجود الوحيد ، ويحول بين نفسه وبين أن تفر الى عوالم أخرى ... ومع هذا فــلا يستطيع أن يحتمل هذا العالم الذى لم يعــد يريد انكاره بعد » ؛ حينئذ لا مناص أمام الانسان من احدى خصلتين : فاما أن يطرح هذا العالم الآخر وراء ظهره بوصفه خرافــة ووهماً ، وهنا يتبدد أمله ولن يعود شيء ذا قيمة فى نظره ؛ أو ينكر الوجود الواقعى ، وتعنى هــذا أن ينكر نفسه ، ولا يصبح له قِبَــل" بالحيــاة أياً كانت . وعلى كل حال فسواء انتهى الى النتيجة الأولى أم الى النتيجة الثانية ، فهو واصل الى الانكار المطلق : الأول الى انكار كل القيم ، والثانى الى انكار قيمة الحياة : « فالرجــل الانكارى هو الرجل الذى يحكم على العالم ، كما هو موجود ، بأنه من الواجب ألاّ يوجد ؛ وعلى العالم كما يجب أن يوجد ، بأنه غير موجود. والنتيجة تبعاً لهذا هى أن الوجود لامعنى له».

وهذه الحال من الانكار المطلق هى الحال التى وصلت اليها أوروبا فى أواخر القرن التاسع عشر ، فلم يعد الناس يؤمنون بشيء ، ولا يجدون قيمة فى أى شأن من شــئون الحياة والوجــود . فتملكهم شــك قاتل ، واضطراب فى النفس وبلبلة فى التفكير . وكان التشاؤم وانكار الحيــاة هما الطابع الغالب على تفكيرهم ونظرتهم فى الوجود .

نظر نيتشه الى هذه الحال اليائسة فصاح فى وجهها صيحة عالية ، فقال ان العالم سار حتى الآن على أوهام ، واعتمد على قيم باطلة ، فكانت النتيجة أن انتهى الى هذا المصير المحزن الذى انتهى اليه . أما نحن فلن نيأس من علاجها ، بل بالعكس : سنتخذ من هذه الحال دافعاً يدفعنا الى تخليص الانسانية منها ، وشق طريق واسع لمستقبل للانسانية زاهر عظيم . فهى حال ضرورية لا بد أن توجد حينما تريد الانسانية أن تحول مجرى تاريخها؛ «والانحلال ضرورة لا بد منها ، وحال لازم لكل عصر ولكل شعب » . والانحلال فى ذاته ليس شيئاً يستحق أن يحارب ، انما الذى يجب أن يحارب ويوقف عند حده هو انتقال العدوى الى أجزاء الكائن العضوى السليمة .

فلا نجزع اذاً حين نرى مظاهر الانحلال وأعراض الروح الانكارية بادية فى كل ما يقوم به الرجل الحديث ، ظاهرة فى كل مرافق الحياة الأوربية ؛ قد انطبعت به نظرات المفكرين فى الوجود ، وآثار الفن كلها : « فالواقع أن كل نمو كبير يستدعى معه تحللا هائلا وفناءاً : والألم وأعراض الانحطاط هى من مستلزمات عصور التقدم الهائل الخطير ؛ وكل حركة قوية خصبة من حركات الانسانية تأتى معها بحركة انكارية. وان ظهور التشاؤم فى العالم فى أشد صوره ، وهو الروح

الانكارية ، لهو الدليل على نمو جوهرى حاسم ، والعلامة على الانتقال الى أحوال وأطوار فى الوجود جـديدة » . «فهو اذاً نتيجة من نتائج نمو الحياة وليس فى وسع الانسان أن يزيله بيديه ... والعقل يبرره » .

لِمَ نيأس ، « والتشاؤم الحديث تعبير عن بطلان العالم الحديث فحسب ، لا عن بطلان العالم والوجود بوجه عام؟»

فلنحاول اذاً أن ننقذ الانسانية من هذا الانحلال الذى تردت فيه ، بأن نبدد أولاً كل الأوهام التى قدستها حتى الآن وكان هذا التقديس من جانبهـا السبب فى ضياعهـا وخسرانها ، وأن نحطم هذه الأصنام الباطلة التى عبدتهـا وأقامت لها الهياكل والمعابد . حتى اذا ما انتهينا من هـذا كله ـ وهو عمل شاق يحتاج الى قوة الجبابرة وشـجاعة لا حد لها ـ بدأنا نذيع على الانسانية الرسالة الجديدة ، ونعلن لهـا الوحى الذى ان عملت بمقتضاه فستبلغ أعلى درجات السمو والارتقاء .

تحطيم الاصنـــام

« من يريد الخلق والابداع ، فى الخير أو فى الشر ، لا بد أن يبدأ أولا بالافناء واهدار القيم » .

أصـــنام الأخلاق

« الظواهر الأخلاقية لا وجود لها في ذاتها،وكل ما هنالك تفسيرأخلاقي للظواهر فحسب . وهـــذا التفسير نفســـه صادر عن ينبوع خارج عن الأخلاق » .

الانسانية تعيش الآن على عبـادة أصـــنام : أصـــنام في الأخلاق ، وأصنام في السياسة ، وأصنام في الفلسفة .

تلك آلهة باطلة اخترعتها ثم عبدتها ، فكان أن ضلت سواء السبيل، وأخذت تتخبط وتتدافع حتى انقضّت على نهايتها، وكأنها كانت تريد منذ البدء الفناءَ . فوصلت الى هـــذه الحال من الاضمحلال التي شخصناها بين يديك في الفصل السابق ، وكشفنا لك عن أعراضها المخيفة .

فاذا كنا نريد أن نخلص الانسانية من هذه الحال ، وأن نفتح لها طريقاً فسيحاً معبداً أمام مستقبل زاهر ، واذا كنا حريصين حقاً على أن نجعـــل لوجودنا معنى سامياً ، وأن نرتفع بالحياة في سلم التصاعد نحو القداسة ونحو العلاء ،

فلنصطنع الشجاعة فى أروع مظاهرها ، والصراحة فى أفضح صورها ،كى نواجه حقائق نفوسنا وأحوالنا فى صبر وثبات، غير خجلين ولا مستحين ، فليس فى الخجل أو الاستحياء شفاء من أى داء .

للشكاك والهواة أن يتملوا بمنظر الانسانية وهى تتردى فى هاوية الانحلال ، دون أن يحاولوا انقاذها ، أى انقاذ أنفسهم هم أيضاً ؛ ولهم أن يؤوبوا من هذا التملى بالشك القاتل واليأس الملح،وأن يخلدوا الى هذا العدم.وللمتفائلين البلهاء أن يتوهموا خلاف ما يدل عليه الواقع ، فيقولوا : ليس فى الامكان أحسن مما كان ، وهذا العالم خير عالم بين جميع العوالم الممكنة ؛ ثم يركنوا الى هذه الأوهام ويجدوا فيها عزاء وسلوى يعيشون فيهما بدلا من العيش فى الحياة الواقعية الحقيقية . وللفلاسفة الضعيفى الارادة الخائرين ، على الرغم من عمق تفكيرهم واخلاصهم ، أن يكتشفوا حقيقة العالم وهى أن هذا العالم من صنع عقولنا نحن ، وأنه لا وجود له فى الخارج ، وأن هناك وراء هذا العالم عالماً آخر هو عالم « الأشياء فى ذاتها » ، وأن ارادة الحياة هى القوة المحركة للوجود والعلة الأولى فى كل الكائنات ، ولكى تتحقق تقتضى من الكائن أن يعانى الكثير من الآلام، فالخير فى القضاء عليها ، أى أن الغاية من الحياة اذاً تكون القضاء على الحياة !

لهؤلاء جميعاً أن ييأسوا ويفقدوا الأمل فى انقاذ الانسانية؛ أما الممتازون ذوو الارادة المخلصة القوية ، فليتخذوا من هذا الاضمحلال وسيلة الى النضال والجهاد من أجل القضاء على كل الأوهام التى تعيش عليها الانسانية أو التى هى العلة فى انحلالها ، لكى يبنوا من بعــد بناءً المستقبل الشامخ الوطيد .

على الرجل الممتاز أن ينظر الى الحياة على أنها كفاح هائل ضد الأكاذيب وألوان الخداع التى انساقت الانسانيــة فى تيارها ، وأن يعلم أن رسالته هى اهدار كل القيم الباطلة التى اتخذها الناس فى قياسهم للخير والشر،والباطل والحق، والقبيح والجميل ، واعلان الحرب الشعواء ، التى لا رحمة فيها ولا لين ، على كل ما فى الحضارة الحالية من ضعف وانحلال وجبن : « اننى أحلم بقيام جماعة من الرجال تامين مطلقين ، أشداء لا يتهاونون ولا يتساهلون ، يطلقون على أنفسهم اسم « الهدامين » ، فيخضعون كل شىء لنقدهم ، ويضحون بأنفسهم من أجل الحقيقة . يجب أن يظهر كل ما هو شر وباطل علناً فى وضح النهار ! انا لا نريد أن نبنى قبل الأوان ، بل لسنا نعرف ان كان قدر لنا أن نبنى يوماً ما ، وأن ليس الأحسن ألا نبنى مطلقاً . وهناك متشائمون كسالى ومستسلمون ، ولكنا نحن لن نكون أبداً من بين هؤلاء » .

وهذا الرجل الممتاز هو صاحب « العقل الحر » ،والعقل الحر ليس معناه الفوضى فى التفكير ،والعاطفية فى حرية الاعتقاد. انما معناه التخلص من كل المعانى السابقة الموروثة والتحرر من سيطرة الأفكار السالفة الآتية عن الوسط أو العصر أو التراث الروحى للانسانية .

ومثل هذا العقل الحر فى حاجة الى شجاعة لا حد لها كى يستطيع أن يواجه كل الأوهام، والى صراحة تامة كى لا يجد حرجاً فى أن يظهر كل الحقائق التى تنطوى عليها الطبيعة الانسانية ؛ والى قوة عزيمة وجلد ، حتى لا يندفع الى اليأس والانكارية ، حين يغزوه الاعياء . والعقل الحر هو الذى لا يجزع اذا رأى من الآراء ما يخالف المألوف ، فله مطلق الحق فى أن يخلق من الأفكار الجديدة ما يستطيع ، والذى يتعلم كيف لا يثق فى « الحالمين النبلاء » ، وهم المفكرون الكبار الذين وضعوا المذاهب الفلسفية حتى الآن .

أما العقل المستعبد فهو الذى يرى صواباً ، ودون نظر الى اعتبار آخر ، كل ما له ماض طويل ، وكل ما يبدو اعتقاده سهلا ، وكل ما هو نافع ، وأخيراً كل ما ضحى من أجله ، فلا يود أن يتصور أن كل هذه التضحية ذهبت عبثاً.

وبهذا « العقل الحر » يقوم نيتشه بالحملة على أوهام الانسانية .

للانسانية شرعة من القيم تسير عليها فى تقديرها للمعلومات والأفعال والوجدانات . فيقال : هذا العمل خير ، وذاك العمل شر ، وهذا الرأى باطل ، وذاك الرأى الآخر حق ؛ وهذا الأثر الفنى يثير الاحساس بالقبح .

كل هذه أحكام يرجع فى تقديرها الى مجموعة من المعايير اصطلح الناس عليها ، واكتشفها لهم المفكرون من علماء وفلاسفة وأصحاب فن ؛ وعلى أساسها يسيرون فى حياتهم وينظمون أسباب وجودهم ومعاشهم ، ويعامل البعض منهم الآخر . وهذه المعايير هى ما يسمونها « القيم » .

وقيمة الأشياء ليست فى ذاتها ، وانما الانسان هو الذى يضع القيم للأشياء . فهى تنشأ عن موقف الفرد بالنسبة الى الأشياء تبعاً لطبيعته وجوهره ، أو موقف مجموعة ما من الناس ، كبرت أو صغرت اذا اتفقت على وضع قيمة معينة لشىء بالذات . فهى تتوقف اذاً على الفرد ، أى على من يعطى القيم ، وليس للشىء دخل فى تقدير القيمة وانما هو على الحياد ، ان صح هذا التعبير . فخالق القيم اذاً هو الانسان .

لكن لما كان الناس يختلفون فى تقديرهم للأشياء ، وفى وضع القيم ، حسب طبائعهم ، أو تبعاً للزمان والمكان اللذين

يحيون فيهما ؛ ولمـا كان هذا الاختلاف قـد يفضى الى الفوضى فى التقدير ، فيحكم كل على حسب هواه ، مما قد لا تتلاءم معه الحياة الاجتماعية والوجود بوجه عام ، فقد حاول الناس أن يجدوا للقيم مصدراً آخر غير الانسان ، هذا الحيوان الحر المتقلب . حاولوا أن يجدوها فى الأشياء نفسها ، حتى تكون القيم ثابتة لا تختلف باختلاف الأفراد، وحتى تكون مرجعاً مشتركا يلجأ النـاس اليه جميعـاً فى التقدير ، فتستقيم الأمور فيما بينهم وبين بعض . فذهب رجال الدين الى القول بأن القيم كلها مستمدة من الله ، فهو مانح القيم للأشياء ، يقدرها حسب ارادته التى يعلن عنهـا بواسطة الرسل والنبيين والكتب المقدسـة . وذهب بعض الفلاسفة الى القول بوجـود عالم أعلى من هـذا العالم الأرضى ، وفيه القيم قد وضعت كلها فى أعلى صورها ؛ ومن هنا فاذا أردنا أن نقوِّم شيئاً فما علينا الا أن نقيسه بهذه القيم المثالية العليا ؛ وهذا ما قال به أفلاطون . ومنهم من رأى أن الالتجاء الى شىء آخر خارج عن العقل الانسانى ، الذى هو مصدر كل وجود خارجى وبغيره لا يوجد العالم الخارجى ، التجاء الى شىء وهمى باطل ، وأن الواجب هو الرجوع الى العقل نفسه والجوهر الذاتى للانسان ، فقال بأن القيم تصدر عن العقل المجرد ، بصرف النظر عما فى التجربة وفى الواقع ، كما فعل كَنت فى قوله «بالأمر المطلق».

ومن هنا قال هؤلاء جميعاً بأن هناك شيئاً اسمه « الخير فى ذاته » أو « الحق فى ذاته » أو « الجمال فى ذاته » . وأصبحت تسمع الناس يقولون : « يجب علينا أن نفعل الخير لأنه الخير ، ونقدس الحق لأنه الحق ، ونتمتع بالجمال لأنه الجمال » ـ بدل أن يقولوا : هذا يتفق مع طبيعتى ، فأنا أفعله ، وهذا ما يُصلح حياتى وينفعنى ويؤدى بى الى النجاح ، فأنا أعتقده ، وهذا يتلاءم وذوقى ويزيد من حياتى الوجدانية ، فأنا أمتع نفسى متعة فنية به » .

ولهؤلاء جميعاً يقول نيتشه : أناتكم ! فأنتم لا تخدعون بهذا غير أنفسكم . تعالوا معى ولنبحث بحثاً علمياً هادئاً فى المصادر الحقيقية للقيم التى اصطلح عليها الناس ، وحينئذ سأكشف لكم عن تلبيسكم وما تحاولون أن توهموا أنفسكم والناس به . ولن أتجنى عليكم، فأحمل سلاحاً غير سلاحكم، انما سأستعمل سلاحكم أنتم وهو «قول الصدق». فلنتعاهد جميعاً على أن نقول الصدق ، حتى تنكشف الحقيقة وتتخلص الانسانية مما عسى أن تكون قد خدعت فيه من أوهام أردتها فيما هى فيه الآن . واللعنة بعدُ على الكاذبين!

ولنبدأ بالأخلاق !

***

لنحدد أولا المنهج الذى سنسير عليه فى هــذا البحث الأخلاقى . لهذا المنهج ثلاث خطوات : الأولى هى أن نصنف الأحكام الأخلاقية التى صدرت فى المــاضى عند مختلف الشعوب ، ومن هذا التصنيف يتوافــر لدينــا تاريخ عام للأخلاق . فاذا انتهينا من اعداد هذا التاريخ ، فعلينــا أن نفسر الوقائع الأخلاقية ونعرف ما تدل عليه ؛ فنحدد أى نوع من الناس كانت عندهم هذه الأخلاق ، وما الصلة بين طبائعهم وأحوالهم النفسية وبين هذه القيم الأخلاقية التى اتخذوها . ومن هنا نستطيع أن نستخرج الصنوف المختلفة للأخلاق . فنعرف مثلاً أن هذا الصنف من الأخلاق يمتاز بهذه أو تلك من الصفات ، وأنه يوجد عند هذا النوع أو ذاك من الناس . وأنه تعبير عن طبائعهم وغرائزهم الأصلية. ثم تلى هذه الخطوة خطوة أخيرة وهى خطوة الحكم على كل صنف من هذه الأصناف ، فنعلم حينئذ أى الأصــناف أقدر على البقاء فى الحياة والارتفاع بها ، والسمو بطبيعتها.

والخطوة الأولى قد قام بها الأخلاقيون الانجليز من قبل أمثال استيوَرْت مِلْ واسپنسر ولبثوك وتيلور . وهؤلاء عرفهم نيتشه ودان لهم بالكثــير من الملحوظات فى هــذا الباب . لكنهم لم يستطيعوا أن يخطوا الخطوتين التاليتين ، فكان على نيتشه أن يخطوهما ويفوق جميع من سبقه .

وأول نتيجة استخلصها نيتشه باستخدامه هذا المنهج هى أنه رأى أن هناك أنواعاً عدة من الأخلاق ، وأن لكل نوع أو صنف منها طابعه الذى يميزه ، وأن هذا الطابع الخاص انما نشأ عن كون مصادر الأخـــلاق عديدة ، وأن المعايير والقيم الأخلاقية يخلقها أناس مختلفون . واختلاف الأخلاق عند الناس يدل على أن مجموعة من الأحكام الأخلاقية بعينها لا يمكن أن يرجعها الانسان الى النوع الانسانى فى ذاته ، « وانما هى ترجع الى وجود شعوب وأجناس الخ ، شعوب تريد أن تؤكد ذاتها بازاء شعوب أخرى ، وطبقات تريد أن تجعل بينها وبين الطبقات الأدنى منها حداً فاصلاً » .

ثم انه يجب التفرقة بين الفعل الأخلاقى ، وبين الحكم الأخلاقى . فالحكم الأخلاقى على الأفعال غير ثابت ومختلف باختلاف الناس . وله دوافع عدة تؤدى الى اصداره على النحو الذى يصدر عليه . وهنـــا يحمل نيتشـــه على كل الأحكام الأخلاقية التى أصدرتها الانسانية ، مبيناً فى تحليل دقيق الينابيع التى منها استقيت هذه الأحكام ، كاشفاً عن المصادر الحقيقية القوية معاً التى تصـــدر عنها ، فاضـــحاً الأوهام التى وقعت الانسانية فى أحابيلها حتى الآن ، والتى أوقعت نفسها هى فيها عن طريق الغالبيـــة العظمى منهـــا ، وهى الطبقة المنحطة . وانتهى من هذا الى نظريته المشهورة

فى التفرقة بين نوعين من الأخلاق : **أخلاق السادة ، وأخلاق العبيد**، أى الأخلاق التى كان مصدرها الممتازين من الانسانية ، والأخلاق التى كان مصدرها رعاعها والطبقات المنحطة فيها .

قال نيتشه : « فى أثناء رحلاتى التى قمت بها خلال أنواع الأخلاق الرفيعة أو الوضيعة التى سادت العالم ، والتى لا زالت تسوده حتى اليوم ، لاحظت وجود عدة صفات معينة بدت مقرونة بعضها ببعض ، وظهرت دائماً فى وقت واحد ، حتى انى استطعت أن أكتشف وجود نوعين رئيسيين من الأخلاق مختلفين اختلافاً جوهرياً : فهناك أخلاق للسادة وأخرى للعبيد ... وذلك لأن تحديد القيم الأخلاقية قام به: اما جنس السادة المسيطرين الشاعرين شعوراً كاملاً والفخورين بوجود مسافة طويلة تفصل بينهم وبين الجنس المسود المغلوب . أو قام بهذا التحديد جماعة الأتباع والرعية والعبيد المنحطين من كل الأنواع » فالأخلاق ترجع فى مجموعها اذاً الى طابعين أو صنفين رئيسيين : أخلاق السادة، وأخلاق العبيد .

ذلك لأن الحضارات الكبرى نشأت فى البدء بأن قامت طائفة من الأرستقراطيين الممتازين على شكل حيوانات

مفترسة شقراء تذرع الأرض فى آسيا وأوربا وجزر المحيط الهادى ، مغيرة على كل الأراضى التى تمر بهـا . وهكذا نشأت الحضارة اليونانية والرومانية والچرمانية .

فاذا مرت هـذه الطائفـة بشعب من الشعوب أخضعته وفرضت عليه سلطانها ، واحتقرته وباعدت ما بينها وبينه من مسافات ، مكونة طبقة خاصة متمايزة من الطبقة المسودة والرعية . واخترعت لنفسها شرعة من القيم الأخلاقية تؤكد بها سيادتها واستمرار سطوتها وسـيطرتها . « فالأحكام الشرعية التى تصـدرها الطائفة الحربيـة تقوم على قـوة جسمية وصحة زاهرة وتراها تعنى بكل ما يتصل بالقـوة والغزو والحرب والمخـاطرة والصيد والرقص والألعـاب البدنية ، وعلى العموم كل ما يكشف عن حيوية فياضة حرة مسرورة » .

أما تحديد القيم الأخلاقية عند الرجل من أبنـاء هـذه الطبقة فمتصل بطبيعتـه وأطماعه والمركز الذى هو فيـه بالنسبة الى الطبقات التى فى مركز أحط من مركزه .

فهو يسمى « الجيد » من بين النـاس من هو قرينـه ومساويه فى القوة والكمال ، ويسمى « الردىء » من هو أحط منه مكانة ومن يخضع له . ومن هنا فان أحكام الخير

والشر ، وكل القيم الأخلاقية ، تقع على الأفراد ، لا على الأفعال التي يأتونها .

وهذا الأرستقراطي محب للغزو ، معتز بقوته ، قاس على نفسه وعلى الآخرين . يحتقر الرحمة ، ويشمئز من الضعف والضعة وجميع أنواع استخذاء . وأبغض شيء لديه الكذب ونحوه من نفاق وملق . ولا يتسامح ، ولا يعرف أنصاف الحلول والمساومة والمداهنة .

لكنه مع ذلك يميل الى العفو عن الآخرين ، لا لأنه يحب العطف ، لكن لأن قوته غزيرة ، فتراها تفيض بنفسها على الآخرين ؛ ومع هذا فانه لا يقبل مطلقاً من الآخرين العفو ، لأنه بقوته يأخذ ماله دون أن ينتظر حتى يتفضل به عليه الآخرون .

ولا يحفل بالحياة ولا نعمها ، ولا بالطمأنينة والسلام ، انما يجد النعيم في الانتصار والقوة والتحطيم ، ويشعر بسرور عميق وهو يعذب الآخرين . وما يقدم اليه من شر يقابله بالمثل بل بأضعافه . وهو يقدس التقاليد والماضي ، ويتخذ من ذكرياته مجالا للتفاخر وينبوعاً للقوة . لهذا فهو يوقر أجداده ، ويقدم لأرواحهم القرابين . ولا يلبث هؤلاء شيئاً فشيئاً حتى يصبحوا آلهته التي يعبدها .

وفى عبادته لهم يقدس صفاته النبيلة هو نفسه ، ويجعلهم رمزاً لكل الفضائل التى يتحلى بها الأرستقراطى .

ولما كانت هذه الطائفة الأقلية دائماً ، فانها تعمل جهدها كى تحافظ على صفاتها ، وتظل نقية ، لا يتطرق اليها الانحلال باتصال الشعوب المسودة أو الطبقات الدنيا بها . ومن أجل هذا تعنى بالتربية ، وبكل ما يتصل بحياة الأسرة ، حتى تضمن لنفسها استمرار السيادة والبقاء .

ويحاول نيتشه أن يثبت وجود صلة لغوية فى الاشتقاق بين الكلمات التى تدل على صفات الأرستقراطية التى ذكرناها هنا وبين لفظة « الجيد » وما شابهها . فمثلاً مُناظِر لفظة « الجيد » فى اللاتينية لعله مشتق من لفظ آخر يدل على « المحارب » . ولكن العلماء الفيلولوجيين الذين أتوا بعد نيتشه ، مثل بريال الفرنسى ، رفضوا كل هذه الفروض التى افترضها ، وأثبتوا خطأها . وعلى كل حال فان نيتشه له الفضل ، على الرغم من هذا كله ، فى أنه وجه أنظار الفيلولوجيين الى البحث فى هذه الناحية ، واستطاع بعضهم أن يظفر ببضعة اكتشافات مهمة تتصل باشتقاق الكلمات التى تدل على معان أخلاقية .

لكن هل يرضى المسودون والرعية عن هذه الحالة التى

وضعهم فيها الأرستقراطيون ؟ كلا ، بل يحاولون أن يثوروا عليها ، ويتحرروا منها . ولما كانوا ضعافاً ، لا يستطيعون أن يقابلوا عمل الأرستقراطيين بالمثل ، فانهم يخلقون قيماً أخلاقية جديدة تخالف القيم التى وضعها الأرستقراطيون . فيعدّون شراً ما يراه هؤلاء خيراً ، والعكس بالعكس . فاذا كانت صورة الرجل الجيد عند الأرستقراطيين هى صورة الرجل المحارب المغامر ، الذى يريد السيطرة والغزو ، ويفيض بالقوة ، ويحتقر التواضع والجبن ، ولا يعرف الرحمة والتلطف ، فان صورة الرجل الخير عند الآخرين ، عند هؤلاء العبيد والمسودين ، هى صورة الرجل المسالم الوديع ، المتواضع ، الذى لا مطمع له فى غزو ولا رغبة له فى سيادة ؛ والذى يحسب الضعف فضيلة ، والتعاطف والرحمة أسمى القيم الأخلاقية . وبينما تجد الأرستقراطيين يقبلون على الحياة ، يريدون أن يعلوا بها ويجعلوها خصبة مليئة ، تجد العبيد يعزفون عن الحياة ويتشاءمون منها ، وينظرون اليها فى شىء من الجزع وعدم الثقة ، وكأنها شىء مخيف أمامهم . فالمسود لا يثق ، ويركن الى الشك دائماً . وبينما كان الأرستقراطى يفرق بين « الجيد » و « الردىء » ، ترى العبد والمسود يفرق بين « الخير » و « والشرّير » . ومن هو الشرير فى نظره ؟ الشرير هو بالطبع هذا الذى أخضعه وأثار فى نفسه

الخوف منه ، هو هذا الأرستقراطى القوى السيد المسيطر . فالشر فى نظره اذاً هو القوة والبطولة ، هو كل هــذه الصفات النبيلة التى امتاز بهـا الأرستقراطى وكانت سر تفوقه وسيادته . واذا كانت الصراحة هى الطابع الرئيسى فى أقوال الأرستقراطى ، تجد المسود لا يستطيع أن يكون صريحاً لجبنه وضعفه ، فيلجأ الى المكر والمداورة والمراوغة. والنفاق أظهر طبائعه .

ولكن المسود لا يستطيع أن يسمى هذه الصفات التى يبجلها ويرى فيها الخير بأسمائها الحقيقية ، وانما يقلب القيم ويسميها بعكس ما هى عليــه فى الواقع . فيسمى العجز « احساناً وطيبــة » ؛ ويسمى عدم قدرته على رد الفعل مباشرة وبالمثل « صبراً » . ويعــدّ هــذا الصبر من أمهات الفضائل ، ويسمى حاجته الى الآخرين وعجزه عن الاعتماد على نفسه « رحمة » ، ويسمى عجزه عن ادراك المطامــع الساميــة والبحث عن المطالب العاليــة « تواضعاً » ! وهكذ وهكذا ، تجده يهدر القيم الصالحة النبيلة ، ويضــع مكانهــا قيماً تدل على الضعف والذلة والخنوع والعجز ، وتصدر عن طبيعــة كطبيعــة الدودة الزاحفة على الأرض ، فى مقابل طبيعــة الحيوان المفترس القوى التى يتميز بها الأرستقراطى . وتراه يعارض هــذه

القيم « العليا » فى نظره بما لدى الأرستقراطى من قيم « شريرة » فيقول : ان البائسين وحدهم هم الأخيار ، والفقراء والعاجزين والحقراء هم وحدهم الصالحون . وهؤلاء الذين يتألمون ويتعذبون ، هؤلاء المرضى المعوزون المشوهون هم وحدهم أيضاً الطيبون الأبرار الذين باركهم الله ؛ وهم وحدهم الذين سيحظون بالنعيم . أما أنتم معشر النبلاء الأقوياء ، فأنتم الأشرار ، القساة ؛ أنتم الطماعون ، النهمون ؛ أنتم الفجّار ، وستظلون أبد الآبدين ملعونين قد بؤتم بغضب من الله .

ومصدر كل هذه القيم الجديدة التى يضعها العبيد والمسودون هو الشعور بالعجز ، ثم الحقد العنيف الدفين على الأقوياء الأرستقراطيين النبلاء . ولا يلبث هذا الشعور والحقد أن ينقلبا الى أشياء فى قدرتها أن تخلق قيما أخلاقية . وهنا يكتشف نيتشه ينبوعاً فياضاً استقت منه الأخلاق السائدة حتى اليوم ما لديها من قيم ، ويسمى هذا الينبوع باسم « الذَّحْل » (١) . وهو الشعور المتكرر

(١) فى « المقابسات » للتوحيدى ص ٣١٥ (طبع مصر سنة ١٩٢٩) تعريف للذحل بأنه « حقد يقع معه رصد الفرصة للانتقام » . والحقد « هو غضب يبقى فى النفس على وجه الدهر » ؛ والغضب « هو غليان دم القلب لشهوة الانتقام »

باساءة سابقة لقيها الانسان ، ولم يستطع أن يردها ويتشفى ممن قدمها ، لعجز فيه عن رد الفعل فى الحال ، فتراه يتذكرها من بعد ، ويجترها بين حين وحين ، مما يزيد فى قوة هذا الشعور ، ويضاعف من طاقته ، ولا يلبث حتى يتجمع ، ويضغط بعضه بعضاً ، ويغلى فى نفس صاحبه غليان الماء من تحته نار قوية وهو مغلق عليه فى مِرْجل ؛ فيحاول أن يجد مصرفاً له فى قنوات أخرى غير القناة الأصلية الطبيعية ، وهى رد الفعل المباشر ومقابلة العمل بالمثل . فيلجأ الى طرق خفية غير مباشرة ، يرد بواسطتها على الاساءة الأولى التى تلقاها ولم يستطع الاجابة عنها فى الحال . ويصف ماكس شيلر هذا الشعور وصفاً دقيقاً بارعاً ، فى البحث الطويل الذى خصصه لتحليل هذا الشعور وبيان ما له من أثر فى خلق القيم الأخلاقية ، فيقول : « ان الذحل نوع من التسمم النفسانى الذاتى ، وله علل وآثار محددة كل التحديد . فهو موقف نفسانى مستمر ، يصدر عن كبْت بعض الأحوال والانفعالات الروحية كبتاً منظماً . وهذه الأحوال والانفعالات هى فى ذاتها عادية صادرة عن جوهر الطبيعة الانسانية وتركيبها الأساسى . وأثر هذا الموقف هو قلب بعض أنواع القيم غير الحقيقية ، وقلب الأحكام التقويمية المناظِرة لهذه القيم . وأولى هذه الأحوال والانفعالات جدارة بالاعتبار هى : عاطفة الانتقام

ودافعه ، والبغض ، والسوء ، والحقد ، واللؤم . لكن أهم عنصر فى تكوين الذحل هو دافع الانتقام » .

فالسادة يحتقرون العبيد ويرهقونهم ، ويجدون كل شيء مباحا بازائهم : من تنكيل بهم وتعذيب وقسوة ، واعتداء على كرامتهم ، وحط من مركزهم . ويعدّونهم ميداناً واسعاً لابراز حب السطو والغزو ، واظهار السيطرة ، وتصريف شعورهم القوى بفيض قوتهم . فالطابع السائد اذاً فى سلوكهم بازائهم هو الاحتقار والامتهان .

وحينئذ يتولد عند العبيد بازاء هذه الاهانات القاسية والاساءات المتوالية شعور « الذَّحل » : فهم من جهة لا يستطيعون أن يسكتوا عنها . لأن الطابع الرئيسى فى خلق الانسان هو القوة وغريزة السيطرة ، ومهما حاول أن يكبتهما فى نفسه فلابد أن يظهرا حين تتاح لهما الفرصة للظهور ، وهما بدورهما يدفعان الانسان دفعاً قوياً الى تهيئة هذه الفرص واعداد الظروف الملائمة كى تنتجا آثارهما . وهو من جهة أخرى لا يقدر على أن يرد الفعل رداً سريعاً ، ولا أن يجيب عن هذه الاساءات وتلك الاهانات فى الحال ، لشعوره بعجزه . ومن هنا يكتم عاطفة الانتقام فى نفسه ، ويظل على هذا النحو يخفى هذا الشعور مرة

يعد مرة ، ولكنه مع ذلك يجتره ، ويتذكره ، ويلجأ الى مضغه بأسنان العجز الذى يشعر به فى داخل نفسه ، ويستمر الشعور المكبوت يتجمع الواحد بعد الآخر ؛ ويستمر فى تردده ويستمر صاحبه فى ادارته فى ميدان نفسه الداخلى وتقليبه على أوجهه الحقيقية وغير الحقيقية حتى تتولد من هذا كله طاقة هائلة مضغوطة فى حيز ضئيل جداً ، مما يزيد فى خطورتها وقدرتها على التدمير . ثم تستمر هذه الطاقة تدافع وتتخبط فى داخل نفس صاحبها ، منتظرة متحينة ، مترقبة مترصدة ، حتى اذا فتح لها منفذ انطلقت سريعة ، تنقضُّ على غريمها ، وتهدم كل ما بناه ، وتهدر كل ماعنده من قيم . فتجمعها بطىء يحدث قليلا قليلا ، وتكوينها هادىء لا يكاد يظهر على السطح . لكن فعلها اذا التأم شملها سريع جداً ، عنيف جداً ، تنقضُّ كالعاصفة القوية .

والآن ، فلنبحث كيف تنشأ ثورة العبيد على السادة لكى يهدموا الأخلاق النبيلة ويهدروا القيم الأرستقراطية ، وليثأروا لأنفسهم مما احتملوه وعانوه ، ويجعلو شرعة قيمهم هم تنتصر وتسود ، وتفرض مثلها وقيمها حتى على السادة أنفسهم .

« ان ثورة العبيد فى الأخلاق تبدأ حين يصبح « الذحل » نفسه خالقاً ، يلد القيم . هذا الذحل الصادر عن هؤلاء

المخلوقين الذين حرموا من القدرة على ردّ الفعل الحقيقى ، وهو العمل الايجابى فلا يجدون عوضاً الا فى انتقام وهمى . فبينما تنشأ كل أخلاق أرستقراطية عن توكيد لذاتها وقول « نعم » لنفسها يسوده شعور بالانتصار ، تجد أخلاق العبيد تبدأ بأن تقول : « لا » ، لكل ما لا يكون جزءاً منها ، وكل ما « يخالفها » ، وكل ما هو « ليس اياها » : « ولا » هذه هى عملها الايجابى الخالق . وهذا القلب فى النظرة التى تضع القيم ـ تلك النظرة الموحى بها بالضرورة من العالم الخارجى ، بدل أن تصدر عن الذات وتقوم على الذاتية ـ هو من خصائص « الذحل » : فأخلاق العبيد فى حاجة دائماً وقبل كل شىء الى عالم خارجى مضاد لها ، كى تنشأ وتقوم ؛ أو لا بد لها ، كما يقول أصحاب علم وظائف الأعضاء ، من مهيجات خارجية ، كى تعمل ، ـ وعملها هو فى جوهره رد فعل . والعكس يحدث اذا كان تقدير القيم صادراً عن السادة : حينئذ تجد أن هذا التقدير يعمل وينمو بذاته ، ولا يبحث عما يضاده الا ليؤكد ذاته فى سرور مضاعف ، وليقول « نعم » لنفسه فى شىء من الاعتراف المتفاخر بما عنده من نبل روحى باطن .

بدأ العبيد اذاً ثورتهم على القيم الأرستقراطية ، واخترعوا قيماً جديدة تعارض هذه القيم .

فما هى هذه القيم المضادة لقيم الأرستقراطيين ؟
وكيف نشأت هذه القيم ، وعن أى قيم أخرى تطورت ؟

هنا يقوم نيتشه بتحليل هــذه القيم الجــديدة ، ويصف كيف تكونت المثل العليا التى استحدثوها ، هؤلاء الأرقاء الثائرون ، وما هى الأدوار التى تمر بها فى مصانعهم حتى تخرج مصنوعة معدة لكى يفرضوها من بعد على الناس . استمع الى ما يقوله فى تهكم لاذع خلاب :

« هل يريد أحد أن ينزل الهوة العجيبة الخفيــة ، التى يستطيع المرء أن يرى فيها كيف تصنع (المثل العليا) على الأرض ؟ من يشعر بأن لديه الشجاعة الكافية ؟ ... هيــا بنا ، أنظر ! من هنا يستطيع المرء أن يلقى نظرة على هذا المصنع المظلم ، لكن على رسلك قليلاً ، سيدى الجسور : فلا بد لعينيك أن تتعودا رؤية هذا النور الباطل الخداع ... آه ! لقد وصلت ! حسناً ! تكلم الآن ! خبرنى بما يجرى فى هذه الأعماق ؟ قل لى ماذا ترى ، أيها الرجــل الخطير الاستطلاع ؟ هأنذا أصغى اليك الآن بنفسى .

ــ انى لا أرى شيئاً ، ولكنى أسمع أشياء ... أسمع لغطاً خفياً ، وهمساً ضعيفاً ، ونأمة خبيثة حذرة تنبعث من جميع الزوايا والأركان . ويبدو لى أن هناك كذباً ، وأن

كل صوت تشوبه عذوبة فاتنـــة مغرية : فهنـــاك ألاعيب وأكاذيب تجعل من الضعف « فضيلة » ، هـــذا لا شـــك فيه ، ــ وكل شيء كما قلت ــ .

ــ ثم ماذا !

ــ ومن العجز الذى لا يقوى على الانتقام لنفســـه . « احساناً » ؛ ومن الوضاعة الجبانة ، « تواضعاً » ؛ ومن الخضـــوع لمن يبغضهم المرء ، « طاعة » (أى طاعة لآمر يأمرهم بهذا الخضوع ــ يسمونه الله) . ووقوف الضعفاء موقفاً سلبياً ، وجبنهم جبناً شديداً يقف عند الباب وينتظر فى استسلام ، هذا كله يسمونه « صبراً » ، ويعدّونه ــ هو أيضاً ــ « فضيلة » أحياناً ؛ وقولهم « لا أستطيع الانتقام لنفسى » يصبح « لا أريد الانتقـــام لنفسى » ، بل قـــد يصير « أنا أعفو عنهم » (« لأنهم هم أنفسهم لا يعرفون ما يعملون ــ ونحن وحدنا نعرف ما هم يعملون ») . ــ ويتحدثون عن « حب الأعداء » ــ ويتصبب العرق منهم على شكل قطرات غليظة .

ــ ثم ماذا !

ــ وانهم لبائســـون من غير شك ، كل هؤلاء الأفاكين المزورين ، على الرغم من تساندهم وتجمعهم مع بعضهـــم

البعض ، — ولكنهم يزعمون على الرغم من هذا كله أن بؤسهم علامة على أن الله ميزهم واختارهم ؛ أولا يضرب الرجل كلابه التى يحبها ؟ — ولعل هذا الشقاء نفســه أن يكون اعداداً ومحنة وموعظة ، ولعله أن يكون شيئاً سيدفع يوماً ما مضاعفاً بفــائدة ضخمة ؛ لا بالذهب ، كلا وانما بالنعيم الأبدى ...

— ثم ماذا !

— ثم هم يريدون أن يوقعوا فى روعى ليس فقط أنهم أحسن من الأقوياء وسادة العالم ، — مع أنهم مضطرون الى أن يلعقوا بصاق هؤلاء السادة (لا خوفاً منهم ، كلا ، لاخوف مطلقاً ، لكن لأن الله يأمر باطاعة أولى الأمر !) — ، بل أيضاً أنهم أسعد حظاً منهم . ولكن كفى ! كفى ! فلم يعد لى قبل باحتمال هذا . الهواء ! الهواء ! ان هــذا المصنع الذى يصنع فيه المثل الأعلى يبــدو لى أنه يزكم الأنوف بأكاذيبه .

— مهلاً ! مهلاً ! انتظر لحظة أخرى ! فلم تقل لى بعد شيئاً عن هؤلاء السحرة الذين يقدرون على تحويل الأسود الحالك الى أبيض كبياض اللبن والطهـارة : ألم تلاحظ

براعتهم الكبرى وخفة أيديهم الجريئة ، وفنهم اللبق ، اللطيف ، الخبيث ؟ اتنبه ! هذه الكائنات المتخفية الورمة انتقاماً وكراهية ـ ماذا تعمل بهذا الانتقام والكراهية ؟ أو هل سمعتهم ينطقون بهذه الكلمات ؟ وهل يخطر ببالك ، اذا لم تسمع غير مجرد كلامهم ، أنك وسط أصحاب الذحل ؟

ـ فاهم ما تقول ، وهأنذا أرعى سمعى من جديد (ولكنى مضطر ، مع الأسف الشديد ، الى سد أنفى) . الآن ، والآن فحسب ، أفهم ما قالوه وكرروه مراراً منذ زمان طويل : « نحن معشر الأخيار ، نحن العادلون » . فما يطلبونه ليس انتقاماً ، وانما « انتصار العدالة » ؛ وما يكرهونه ليس هو عدوهم ؛ كلا ! وانما « الظلم والفسق » ؛ والذى يشيع فى نفوسهم ليس هو الأمل فى الانتقام ، ونشوة الانتقام العذبة (ـ « أعذب من العسل » ، كما قال هوميروس) ، وانما « نصر الله ، الله العادل ، على الفاسقين الفجار » . وما بقى لهم على الأرض ليحبوه ليس اخوانهم فى الكراهية والحقد ، وانما « اخوانهم فى الحب » ، وهم الأخيار العادلون فى الأرض » .

وعلى هذا النحو يقلب العبيد الثائرون ما اصطلح عليه

السادة الأرستقراطيون من أوضاع ، ويضعون مكان القيم الأرستقراطية قيما أخرى يمليها الضعف ، ويشرعها العجز ، ويدفعها الى الظهور حب الانتقام والرغبة فى التشفى ، وتقوم كلها على أساس الكراهية الزرقاء التى يحملونها فى نفوسهم نحو هؤلاء السادة .

الا أنهم لا يستطيعون أن يصرحوا بحقيقة هذه القيم الجديدة والبواعث على شرعها لأنفسهم وللاخرين ، بأن العجز هو الذى وضعها أو حملهم على وضعها . ولا يجرؤون على الاعتراف ، ان لأنفسهم أو للآخرين ، فيقلبون الوضع مرة ثانية ، ويزعمون أن هذه القيم وضعت باختيارهم ، وكانوا فى هذا الوضع أحراراً غير مضطرين ولا مكرهين . ومن هنا تراهم يفرقون بين الفاعل وفعله ، والعلة ومعلولها ، والقوة وآثارها . فالعامة تفرق بين الصاعقة والبرق ، الذى هو البريق الذى تحدثه ويظهر منها ، وتقول ان هناك ذاتاً اسمها الصاعقة ، والبرق عملها ومظهرها . كذلك الحال فى الأخلاق : يفرق بين القوة وآثارها ، وكأن وراء الرجل القوى شيئاً ثابتاً على الحياد له الحرية فى اظهار قوته أو عدم اظهارها . « والواقع أنه لا وجود لمثل هذا الشىء الثابت ، ولا وجود لكائن وراء الفعل أو الأثر أو التغير . وليس « الفاعل » الا مضافاً الى الفعل وفضولا عليه ــ والفعل هو كل شىء » .

وهذه التفرقة ، التى وقع فيها حتى العلماء أنفسهم ، سرعان ما يتلقفها هؤلاء العبيد العجزة ، لكى يمكنهم القول بأنه من المتاح للقوى أن يصبح ضعيفاً ، وللنسور أن تصير بُغاثاً ، ومن هنا فانهم اذا قانوا ، وهم العجزة المضطهدون المتهنون : « لنكن على عكس الأشرار ، أى لنكن أخياراً ! والخير هو من لا يقسو على أحد ، ولا يعتدى على انسان ، ولا يهاجم ، ولا يدرك ثأره بنفسه ، بل يدع للرب مهمة الانتقام ؛ وهو يلبث متخفياً مثلنا ، متجنباً مواجهة الشر ، ولا ينتظر من الحياة الا الضئيل ، مثلنا نحن معشر الصابرين المتواضعين العادلين » ــ اذا قالوا هذا فان معناه بكل بساطة هو : « نحن معاشر الضعفاء ، قد قدر علينا نهائياً أن نكون عجزة ضعفاء ، ومن الخير ألا نفعل شيئاً لسنا بقادرين على فعله قدرة كافية » . ومع هذا يوهمون الناس بأن هذا فضيلة « وكأن ضعف الضعيف ــ أى جوهره وفعله ، وحقيقته الكلية الوحيدة التى لا شك فيها ولا سبيل الى الخلاص منها أو انكارها ــ شىء مراد مختار ، وفعل صادر من تلقاء النفس ، بل وفضيلة وميزة . وهذا النوع من الناس فى حاجة الى الايمان بوجود « ذات » على الحياد ، لديها حرية ارادة ، وهذه الحاجة صادرة عن غريزة المحافظة على

الذات ، وتوكيد الذات ، وهى الغريزة التى بها يحاول كل كذب أن يبرر نفسه » .

فكأنهم اذاً قد اخترعوا شيئين جديدين ، بخلاف القيم الجديدة التى وضعوها ، كى يبرروا بهما هذه القيم ، ويحيطوها بهالة من القداسة والسمو ، بل والقوة والتفوق على قيم الأرستقراطيين . وهذان الشيئان هما : أولاً وجود ذات وحقيقة منفصلة عن الجسم ، ولها كيانها الخاص ويسمونها « الروح » . وثانياً : القول بحرية الارادة ، وأن الانسان يستطيع أن يخرج عن طبيعته وجوهره ويصبح عكسهما تماماً . فعن طريق هذين الاختراعين ، اللذين بقيا ايماناً فى نفوسهم لا يزعزعه مزعزع ، تمكن الضعفاء والمضطهدون من كل الأنواع من أن يخدعوا أنفسهم ، ثم غيرهم من بعد ، فيزعموا أن الضعف بارادتهم واختيارهم وليس مفروضاً عليهم ، وأن هذا الفعل أو ذاك ، مما يضطرهم اليه العجز ، ميزة وفضيلة . وضاعف مخترعو هاتين الوسيلتين ايمان الناس بهما عن طريق الملحقات التى بنيت عليهما أو بالأحرى والأصرح بُنيا عليها : مثل فكرة العقاب والثواب والزهد والتبتل الخ .

فاذا استطاعت هذه الثورة أن تنجح ، وهذه القيم أن تسود وتسيطر ، نشأت طائفة من المرضى المنحلين المتحدين.

مع بعضهم بعضاً . ومن هنا تنشأ مهمة جديدة ، هى مهمة المحافظة على هذه الطائفة ورعايتها . فتدفع ارادة القوة مرة ثانية ، كما دفعت العبيد من قبل الى الثورة ، بعضاً من هؤلاء العبيد ممن امتازوا بالحيلة والدهاء وأتقنوا المناورات والكيد ، كى يقوموا بالرعاية . وهؤلاء هم رعاة طائفة العبيد يحمونهم من شر الأرستقراطيين ، ويحرسون القيم التى وضعوها لأنفسهم ، كما يحمونهم أيضاً ضد أنفسهم ، فلا شقاق فى داخل الطائفة ، ولا خروج على القيم التى تواضعت عليها . « فيجب على الواحد منهم أن يكون عدواً لدوداً طبيعياً ومحتقراً عنيدا لكل صحة ولكل قوة ، ولكل من هو قاس وحشى عنيف جسور صلب ، على مثال الحيوانات المفترسة » ؛ وأن يقوم بحرب شعواء عنيفة ضد السادة المتكبرين أولى النخوة ، ولكنها ليست حرباً تقوم على القوة والبسالة والشجاعة والمغامرة ، بل هى حرب دعامتها اللؤم والخبث ، ووسائلها الكيد والدس والوقيعة ، فهذا وحده اللائق بهم . أليسوا هم أعداء العنف ، وخصوم القوة والصولة ؟

هذا الراعى أو رجل الدين يجمع فى نفسه بين قسوة الدب الأبيض ، وصبر النمر البارد ، وخصوصاً بين هذين وبين خبث الثعلب . فتراه يسير بوقار وجد مثل الدب ،

حذراً بارداً خداعاً ، يحمل قوى خفية ، عاملا على أن يبذر فى كل مكان ، حتى بين من هم على شاكلته ، كل أنواع الآلام والشقاق والتناقض . فهو بارع كل البراعة فى لسيطرة على هؤلاء المرضى المتألمين ، ويظهر للرعية فى مظهر الطبيب الذى سيشفيها من أمراضها ، ويقدم لها البلسم لجراحها ، والدواء لأدوائها . لكنه محتاج الى أن يجرح قبل أن يشفى ، وأن يطعن قبل أن يحاول الابراء . فيتقدم الى الجرح بما يسكن الألم الناشىء عنه ، ولكنه يحقنه بالسم فى نفس الوقت . ويستخدم كل ما أوتى من حيلة وبراعة لكى يضمن لنفسه السيطرة على الطائفة والسيادة على أفرادها ، فيناضل فى لباقة وكياسة ، مع عناد وشدة متخفية ، ضد الفوضى وبذور الخلل التى تهدد رعيته ، حيث تتجمع فى نفوس أفرادها باستمرار هذه المادة المفرقعة ، ونعنى بها « الذحل » على النحو الذى حددنا به هذا اللفظ من قبل . فيلجأ من أجل هذا الى عدة وسائل ليس من شأنها شفاء هؤلاء المرضى ، انما تسكين الألم موقتاً . فهو طبيب خبيث لا يود لمريضه البُرءَ ، وذلك كى يستمر فى عيادته . والا ، فاذا شفى هؤلاء ، فقد ضاعت القيم التى وضعت ، وصاروا أصحاء ، فيفقد هو حينئذ كل ما له من سيطرة عليهم ، ومن ثم لا تجد ارادة القوة أين تتحقق ، بعد أن فقدت ميدانها الحقيقى . وأشهر هذه

الوسائل التى يستخدمها : أولا خنق كل العواطف الحيوية، وتنويم كل رغبة فى الحياة ، وكل ما يشعر بالحياة وقوتها وفيضها فينزل بعاطفة الحياة الى أقل درجات حرارتها انخفاضاً . وثانياً شغل هؤلاء المرضى بالعمل الآلى القائم على مزاولة حركات راتبة تتكرر بانتظام ودقة مما يفقد مزاولها الشعور . لأن كل مجموعة حركات تتكرر كل يوم، أو فى كل يوم عدة مرات ، من شأنها أن تحتكر انتباهه ، وتحيله الى شىء آلى ، وتصرفه عن التفكير فى نفسه وسلوكه ، مما قد ينبهه الى ما هو فيه من خداع ، ويحمله على الخلاص من هذه الأوهام وطرح كل القيم المفروضة عليه ، قيم العبيد . وثالثاً ايجاد نوع من السرور والغبطة بسيط ، خصوصاً هذا الذى ينشأ عن « حب الجار » ، وتنظيم الرعية واثارة عاطفة القوة فى أفرادها ، وخنق الاشمئزاز الفردى وتحويله الى رغبة فى اسعاد الطائفة . وأخيراً يلجأ الراعى الى وسيلة رابعة ، هى اثارة أكبر كمية ممكنة من العاطفة المتأججة والحماسة النارية ، والانفعالات الحادة المشتعلة . فالحالة المتولدة عن هذه الأحوال النفسية العنيفة تبتلع ، وتجرف فى تيارها بحيث لا تبين ، كلَّ الآلام الصغيرة الناشئة عن الاشمئزاز واليأس والقلق . وهذه الوسيلة الأخيرة أخطر الوسائل جميعاً ، لأنها تزيد المرض ، أما الوسائل الثلاث الأخرى فتسكن المرض دون

أن تزيده .

تلك اذاً ثورة العبيد ، وقلبهم للقيم الأرستقراطية ، وسيطرتهم بقيمهم الجديدة على القيم النبيلة ، ووسائلهم للاحتفاظ بها ، وضمان بقائها وسيادتها .

وهذا هو تاريخ الأخلاق جميعها على مر عصور الانسانية: صراع بين قيم السادة وقيم العبيد فى الأخلاق ، ومحاولة كُلٍّ السيادةَ والسيطرة على الأخرى ، ونضال بين هذين النوعين من القيم : « جيد وردىء » و « خيِّر وشرير » . ولا يزال هذا النضال وذلك الصراع قائمين حتى اليوم ، على الرغم من أن قيم العبيد قد انتصرت وأصبحت هى السائدة اليوم . وكلما مرت الأيام ، سما هذا النضال وصار أكثر روحية،حتى انه لا تكاد توجد علامة على سمو الطبيعة الانسانية وامتيازها العقلى أجلى وأظهر من اجتماع هذا النضال فى عقول يتمثل فيها ميدان حرب حقيقى لهذه الأفكار والقيم . ورمز هذا النضال المكتوب بحروف بارزة باقية فوق تاريخ الانسانية كله هو : « روما ضد يهوذا ، يهوذا ضد روما » .

ذلك لأن اليهود ، فى نظر نيتشه ، هم أول من قاموا

بثورة العبيد فى الأخلاق . فهم الذين تجاسروا ، بمنطقهم الهائل ، أن يقلبوا معادلة قيم السادة : خيِّر = نبيل = قوى = جميل = سعيد = محبوب من الله ، الى معادلة قيم العبيد : خيِّر = وضيع = ضعيف = مشوَّه = بائس = مملوء بالخطايا . والشعب اليهودى هو الشعب الذى شاع فى نفسه الذحل فى أعنف درجاته وأخطرها ، لكثرة ما لاقاه من اضطهاد من سادوه منذ زوال دولتهم القديمة العريقة . فلما تجمع هذا الذحل ووصل الى أقصى درجات غليانه ، ثار على قيم سادته من الرومان . والرومان كانوا حينئذ سادة أقوياء نبلاء ، فكانت القيم التى وضعوها لأخلاقهم هى القيم الأرستقراطية التى ذكرناها لك من قبل. فكان بين الاثنين : بين اليهود وبين الرومان ، كفاح قاس ، بلغ أعنف صوره فى المسيحية ، التى ليست فى نظر نيتشه الا صورة من صور اليهودية ، فعنها أخذت التراث من القيم ، وكان كبار رؤسائها من اليهود : أمثال القديس بولس والقديس بطرس ؛ فهى خليفة اليهودية اذاً .

حملت المسيحية لواء النضال ضد السادة ، وكان لها النصر ولقيمها الظفر فى النهاية ، فى القرن الثانى المسيحى. فسادت القيم المسيحية فى أوروبا وفى الكثير من بقاع العالم التى دخلتها ، واستمرت هذه السيادة حتى اليوم . ولكن

النضال استمر مع ذلك ولم يهدأ . ففى عصر النهضة بدأت المثل والقيم الأرستقراطية تستيقظ من جديد ، وقام رجال النهضة يعارضون بالقيم القديمة ، قيم الرومان واليونان الصادرة عن أخلاق السادة ، ما أتت به المسيحية من قيم سادت طوال العصور الوسطى ، وهى القيم الصادرة عن ثورة العبيد الأخلاقية . وهكذا تحـركت روما القديمـة واهتزت ، وكأنهـا تستيقظ من سـبات عميق ، بعـد أن حطمتها وكتمت أنفاسها روما المتهودة المتنصِّرة . لـكن ما لبث يهوذا أن انتصر على روما مرة ثانية ، بفضل حركة الاصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوتر ، وهى حـركة شعبية مبعثها الذحل (الألمـانى والانجليزى) . فران على روما القديمة ، التى كانت قد بدأت تحيا من جديد ، صمت كصمت القبور . ثم انتصر مرة ثالثة انتصاراً حاسماً هائلا عن طريق الثورة الفرنسية : فحينئذ وقعت آخر طبقـة من النبلاء والأرستقراطيين والسادة ، وهى الطبقة التى عاشت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى فرنسا ، صريعـة للغرائز الشعبية المليئة بالذحل ، فكانت الثـورة الفرنسية ظفراً صاخباً لقيم العبيد . « ولـكن حدث فى الحال ، ووسط هذا الصخب ، شىء هائل جداً لم يكن متوقعاً مطلقاً : اذ قام المثل الأعلى القديم على قدميه فى جلال وجسارة أمام أعين الانسانية وضميرها ، ودوَّى من جديد ، وبطريقـة ليس

لقوتها وبساطتها ونفاذها مثيل من قبل ، فى وجه شعار الذحل الكاذب الذى يؤكد « امتياز الأغلبية » امتيازاً مطلقاً على العدد القليل والفرد ، وفى وجه ارادة الانحطاط والانحلال والنزول بالمستوى والسقوط ، وفى وجه اضمحلال الانسانية ـ نقول دوّى فى وجه هذا كله صوت. شعار هائل خلاب يؤكد « امتياز العدد القليل » على الأغلبية ! اذ ظهر ناپليون كآخر اشارة الى الطريق الآخر (طريق قيم السادة) . وهو رجل لا نظير له ... قد تجسد المثل الأعلى فى أعظم صوره ؛ ناپليون ، هذا المزيج من « غير الانسانى » ومن « فوق الانسانى » . ولكن ناپليون سقط سريعاً ، وزال بزواله آخر شعاع من نور قيم السادة فى أوربا .

وهكذا استطاع نيتشه بهذا البحث العميق الدقيق فى تاريخ الأخلاق أن يكشف الأصول التى تؤخذ عنها القيم الأخلاقية ، وأن يبين كيف تتطور هذه القيم تبعاً لأصحابها الذين يضعونها ، وأن يكشف عن حقيقة القيم السائدة بين الناس فى الأخلاق . وخرج من هذا البحث بعدة نتائج على أقصى درجة من الأهمية : أُولاها أن العلة فى الانحلال الأوربى الذى غمر عصره ، ثم فيما عانته الانسانية كلها على مر عصورها من اضمحلال ، هو انتصار القيم الأخلاقية

الصادرة عن العبيد ، وسيطرة أخلاقيــة العبيد وشِرْعة أحكامهــا على أخلاقيــة السادة وشرعــة القيم النبيــلة الأرستقراطية ، ووضع قيم الضعف مكان قيم القوة ، وجعل العجز فضيلة ومستلزمات العجز صفات حميدة يحرص على طلبها ، وأصحابها هم الأخيار ؛ أما أصحاب قيم القــوة فأشرار . وثانيها أن منبع الأخلاق والأحكام التقويمية فى الأخلاق ليس أوامر الله ونواهيه كما تقول المسيحية ؛ كما أنه ليس العقل الانسانى بما ركب فيــه من جوهــر يأمر بالخير ويميز بينه وبين الشر ، وبما فى طبيعته من « آمــر مطلق » يدعو الى فعل الواجب دون شرط ، ومن غير حاجة الى استخلاص القوانين الأخلاقية من التجربة ، كما يقول الفلاسفة وعلى رأسهم كَنت . وانما هى الطبيعة الانسانية بما فيها من غرائز ، وعلى رأس هــذه الغرائز جميعاً غريزة حب السيطرة وارادة القوة . وليست هناك أفعال أخلاقية فى ذاتها ، انما هناك تفسير للأفعال الانسانية وتقويم لها ، حسب طبيعة الفاعل والمقوِّم ، وما تطمح اليه هذه الطبيعة من حب للسيطرة وارادة للقوة . والشىء الذى يقع عليــه التقويم فى ذاته ليس أخلاقياً ، وليس مضاداً للأخلاق ، وانما هو على الحياد .

والأخلاقيــة فى مجموعها هى لغــة الأحــوال النفسية

الرمزية" وهذه الأحوال بدورها لغة الوظائف العضوية الرمزية كذلك ، فهى ترجع فى النهاية الى أحوال الجسم الفسيولوچية ، ويقصد نيتشه بهذه الأحوال الفسيولوچية معناها الواسع للدلالة على « الطبيعة » أو « الواقع » أو « الحقيقة الفعلية » . فالأخلاق عنده نوع من أنواع تفسير الواقع والحقيقة الفعلية والطبيعية ، وكل هذا لديه بمعنى واحد . وما دام الأمر على هذا النحو فيجب على الأخلاق أن تكون متفقة مع مقتضيات الطبيعة وأحوال الواقع وجوهر الحقيقة الفعلية . فهل القيم الأخلاقية السائدة ، والتى قلنا ان مصدرها العبيد وثورتهم الأخلاقية ، تتفق مع الطبيعة والواقع والحقيقة الفعلية ؟ وهل الأحكام التقويمية فى الأخلاق (ويقصد نيتشه « بالأخلاق » دائماً الأخلاق السائدة ، لا الأخلاق أياً كانت ، فهذه لا ينكرها ولا يمكن أن ينكرها) تكشف لنا حقاً عن الطبيعة ، والواقع والحقيقة الفعلية فى أحدٍ مظاهرها ؟

كلا ! فهذه الأخلاق غريبة عن الواقع ، وأحكامها التقويمية تمر على الحقيقة الفعلية . وعن هذا الطريق تخدعنا فتجعلنا نحن أنفسنا مزوَّرين غير حقيقيين ، وبدلاً من أن تجعلنا سادة على الطبيعة بطريقة طبيعية (« لن يُخْضع الانسان الطبيعة الا اذا بدأ باطاعتها » ،

كما قال بيكون) تدفع بنا الى عالم لا وجود له فى الواقع، حتى اننا طالما كنا نسلك سلوكاً أخلاقياً ، فاننا نهمل فى الواقع كل ما هو ممكن حقيقة" « ونجعل من الصدفة قانوناً يسودنا » . وليست الفلسفة الأخلاقية كلها فى نظر نيتشه الا أوهاماً وتخيلات : « ولا تعثر فى كل تطور الأخلاق على أية حقيقة : فكل مبادئها أكاذيب ، وكل تحليلاتها النفسية تلبيسات وتزوير ، وكل أشكال المنطق التى أدخلها الناس فى مملكة الأكاذيب هذه ، ليست الا سفسطات » .

ذلك لأن جوهر الحقيقة الفعلية هو الحياة الواقعية التى نحياها وهذه الأخلاق تدعونا الى انكار الحياة الواقعية ، والغاية من الحياة نفسها ، وهذه الأخلاق تجعل الحياة تابعة لشىء آخر خارج عنها ووسيلة لغاية أخرى غيرها . والمثل العليا التى تدعونا هذه الأخلاق الى تحقيقها أو السعى وراءها ــ ترمى الى افقار الحياة الحقيقية والانحطاط بها الى أدنى مستوى للحيوية ممكن ، بينما يجب عليها ، ما دامت الحياة الحقيقية هى كل شىء ، أن تسمو بالحياة وأن تجعلها خصبة مليئة .

كما أن هذه الأخلاق تعارض قوانين الطبيعة الحقيقية فهى تدعو مثلا" الى الشفقة على الضعفاء والمضمحلين

والمنحطين والعمل على بقائهم بكل الوسائل الصناعية ، مثل كل هذه المنشئات التى ترمى الى حماية العجزة والمنحلين ، مع أن قانوناً مهماً من أهم قوانين الطبيعة الحقيقية ، هـو قانون الانتخاب الطبيعى ، يعمل على زوال الكائنات غير الصالحة ، والتى لا تستطيع من أجل هذا أن تخرج ظافرةً من معركة الجهاد من أجل الوجود والبقاء .

وهى تدعو كذلك الى المساواة بين النـاس جميعـاً ، ووضعهم فى مستوى واحد عن بكرة أبيهم ، مع أن أول قانون للوجود الحى الطبيعى هو التميز والتفرقة ووضع الكائنات وضعاً رأسـياً ، لا أفقيـاً ، أى جعلهم فى نظام تصاعدى ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات .

فالأخلاق اذاً منافيـة للطبيعة ، متعارضـة مع الواقع ، مضادة للحقيقة الفعلية . ومن أجل هـذا لا بد من القضاء عليها وتحطيم قيمها المتواضع عليها . وهذا ما يسمونه باسم « اللا أخلاقية » عند نيتشه ، أو « لا أخلاقية نيتشه » .

ولكن هذه الحملة التى يقوم بها نيتشه على الأخـلاق لا يمكن مطلقاً أن تفهم وتقدر ويقتنع المرء بها الا اذا عرف نظرية نيتشه فى الحياة وجوهر الحقيقة الفعلية ونظرته فى الكون بأكملها ، أى اذا عرف الجانب الايجابى من النظرية

الأخلاقية عند نيتشه ، بعد أن عرف هذا الجانب السلبى ، وهو نقــد الأخــلاق السائدة عن طريق بيــان مصدرها وحقيقتها . فلننتظر اذاً حتى نعرف هذا الجانب الايجابى ، عند حديثنا عن « ارادة القوة » فى القسم الأخير من هذا الكتاب .

وباكتشاف نيتشه لحقيقة القيم السائدة منذ ألفى سنة ومصدر هــذه القيم ، قام بأكبر عمل وأخطره فى حيــاة الانسانية ، عمل « ينقسم به تاريخ الانسانية الى قسمين » على حد تعبــيره . « لأن صاعقــة الحق نزلت على أعظم ما قـُدِّس حتى الآن : وان من يدركْ أى شىء حـُطـِّم عن هذا الطريق ، يستطعْ أن يرى هل بقى فى يديه شىء بعدُ مطلقاً . فمن يكتشف حقيقة الأخلاق ، يكتشفْ فى الآن نفسه بطلان كل القيم التى يؤمن بها الناس أو كانوا بهــا يؤمنون » . لأنا سنرى كيف أثرت هذه القيم الصادرة عن العبيد فى الميادين الأخرى ، غير ميدان الأخلاق ، وكيف طبعت بطابعها مرافق النشاط الانسانى جميعها .

أصنام الفلسفة

« تاريخ الفلسفة غضبة ثائرة على مقتضيات الحياة والشعور بقيم الحياة ، والوقوف الى جانب الحياة. ولم يتردد الفلاسفة مطلقاً فى القول بوجود عالم يشترطون فيه أن يكون مناقضاً لعالمنا هذا، وأن يتيح الفرصة لهم للنيل من هذا العالم » .

صنم الفلاسفة الأكبر هو العقل : آمنوا بقدرته على اكتشاف الحقيقة والوجود ، وجعلوه الحاكم المطلق ، والحكم الذى لا مرد لحكمه ولا معقب لقضائه ؛ وحسبوا قوانينه قوانين الوجود ، ومبادىء الفكر حقائق مستخلصة من طبيعة الوجود ذاته ، وتعبر حقيقةً عن علاقات واقعية كائنة بين الأشياء الموجودة . ثم فصلوه عن الحياة ، وجعلوه فوق الوجود ، لا جزءاً منه يعبر عن ناحية من نواحيه العديدة ، فقال البعض ان مبادئه متعالية قبلية ، أى سابقة على التجربة وعليها تقاس محتويات التجربة ، وبها وحدها تدرك . وقال البعض الآخر انه العالم جميعه ، فهو فى باطنه وداخله . وقال فريق ثالث ان التطور التاريخى ليس الا

العقل وهو يعرض نفسه ... وهكذا ، وهكذا ، جعلوا منه الهاً ، ذا سلطة الهية وجوهر الهى .

ورأى نيتشه أن انحلال الفلسفة يرجع فى النهاية الى فكرة الفلاسفة فى العقل هذه ، وأن أخطر شىء يهدد الحياة والوجود الحقيقى هو العقل مفهوماً على هذا النحو ، وأن الأوهام الأخرى التى وقع فى شراكها الفلاسفة تكاد ترجع كلها اليه أو على الأقل ثانوية بالنسبة له . فكان عليه اذاً أن يبدأ بتحطيم هذا الصنم الأكبر ، وحينئذ يسهل عليه من بعد أن يحطم ما عداه من أصنام .

هاجم نيتشه العقل من وجهات نظر ثلاث :

١ ـ فقال أولاً ان المنطق ، وهو ابن العقل البكر ، وهم مقصود : فمبادىء الفكر (الشىء ، الجوهر ، الذات ، الموضوع ، العلية ، الغائية الخ) ليست غير أوهام ضرورية للحياة ، نافعة مفيدة ، وأدوات للظفر والتملك . اذ العقل يرى نفسه فى حاجة اليها ، كى يقوم بالتفكير . فيخترعها اختراعاً ، ويفرضها على العالم والوجود الحقيقى فرضاً . وانه لمن سوء استعمال الحقوق أن يزعم أنها قوانين الوجود ، وأن ينقلها من عنده الى الكون الخارجى ، مع أنها شروطه هو التى لا يستطيع بغيرها التفكير ، أى تحقيق الغرض من

وجوده . أما أن يكون سير الحوادث وحدوث الظواهر على صورة هذه المبادىء ، فهذا ما لا يستطيع أن يثبته ، ولا يؤكد وجوبه . فكأن هذه المبادىء اذاً ليست حقائق، وانما متخيلات .

ثم يقوم نيتشه بتحليل ما يسمونه « قوانين الفكر الضرورية » المزعومة : وهى قانون الذاتية القائل بأن الشيء هو هو نفسه وليس غيره ؛ وقانون التناقض القائل بأن الشيء الواحد لا يتصف بصفة ونقيضها . فيقول ان الذاتية شرط فى التفكير ، ولكنها ليست شرطاً فى الوجود . فافتراض أن الوجود يظل كما هو هو ، ذاتياً مع نفسه ، « ضرورى لامكان التفكير والاستنتاج : والمنطق لا يشتغل الا بالصيغ الدالة على استمرار الشيء على حال ذاته » ، ولكنه ليس حقيقة واقعية فى الوجود ، لأن الوجود تغير مستمر ، وصيرورة دائمة . وما افتراض الذاتية ، بدلا من التغير فى الوجود ، الا من اختراع العقل وحده كى يقوى على الادراك .

أما قانون التناقض فقائم على القانون السالف ، حتى ليمكن أن يقال ان الاثنين مظهران لقانون واحد : أحدهما مظهر سلبى والآخر مظهر ايجابى.وليس القول بهذا القانون الخاص بالتناقض الا وهماً كذلك ، فهو لا يدل فى الواقع

الا على « أننا لا نستطيع ، نحن ، أن نثبت شيئاً واحداً بالذات وننفيه فى آن واحد » ؛ وكل ما فى المسألة اذاً أنا عاجزون عن القيام بهذه العملية الخاصة بعقلنا وحده ؛ لكن ليس هناك « ضرورة » تقضى بذلك بالنسبة الى الوجود نفسه . « فالقانون لا يتضمن معياراً للحقيقة ، وانما يتضمن أمراً بما يجب أن يُعدّ حقيقة » .

ومصدر هذين القانونين من الناحية النفسية هو اعتقاد « الذات » بأنها تظل كما هى دائماً . وينتقل المرء بهذا الاعتقاد من « ذاته » الى الوجود ، ويفترضه فيه أو بالأحرى يفرضه عليه .

والواقع أن العقل وسيلة للحياة وحسب ، لكنه عاجز عن أن يدرك الوجود الحقيقى ، أو الحقيقة ، ونعنى بها الصيرورة الدائمة : « ان عقلنا لم يهيأ لادراك الصيرورة ، وانما ينحو نحو بيان الثبات العام » . والصيرورة تناقض العقل ، وليس بين الاثنين مقياس مشترك ، بل كل منهما ينافى الآخر .

وما دام العقل كذلك ، فمهمتنا الآن اذاً أن نحدد نطاق العقل ونعين الحدود المشروعة التى فى داخلها يجوز استخدامه .

٢ ــ وقال نيتشه ، ثانيةً ، ان العقل فى حياة الانسان لا حاجة اليــه ، وهو خطر ، وغير ممكن . فلا حاجة الى العقل فى حياة الانسان « لأن عدم معقولية شيء من الأشياء ليست حجة ضد وجوده، بل الأحرى أنها شرط لوجود هذا الشيء » ، لأن الوجود كما قلنا ــ ونعنى بالوجود هنــا الصيرورة ، فهى حقيقة الوجــود وجوهره ــ يتناقض مع العقل ويتنافى مع المعرفــة العقليــة ، حتى ان نيتشه قال : « ان الذى يمكن تصوره عقلياً ، لا بد أن يكون وهمــاً لا حقيقة له » .

كما أن العقل خطر ، لأنه يدعى معرفة كل شيء وادراك كل شيء . ولو كان الأمر كذلك ، اذاً لمــا استطاع الناس أن يحيوا طويلاً : « فلو كانت الانسانية قد سارت حقــاً على مقتضى العقل،أعنى على أساس «أفكارها» و «علمها» اذاً لكان قد قضى عليها منذ زمن طويل » . لأنها فى الواقع لم تعلم عن طريق العقل الا الشيء الضئيل جداً ، مما لا يكفى مطلقاً للوفاء بمقتضيات الحياة كلها .

وهو أيضاً غير ممكن . لأنه ليس هناك عقل واحد ،وانه هناك عقول كثيرة تتمايز ، ومن هنــا يختلف الرأى بازا الأمر الواحد ويتشعب . فلا مجال اذاً للتحدث عن «العقل بصيغة الاطلاق والعموم .

٣ ــ وينكر نيتشه ، ثالثاً ، هذا الوهم الذى انساق فى تياره الفلاسفة ، حين زعموا وجود عقل كلى يحكم الكون ويسوده ، فتصبح الظواهر كلها وأحداثه معقولة : « فالعقل الوحيد الذى نعرفه هو هذا العقل الضئيل الموجود فى الانسان » . والعقل شىء نادر فى الوجود ، ومعظم ما فى الحياة يسير دون عقل . حتى عقلنا نحن أنفسنا ، وهو العقل الوحيد الذى نعرفه ، ليس عقلاً خالصاً كله : « عند الجميع ثمت شىء واحد مستحيل ــ هو المعقولية . وكل ما هنالك جزء ضئيل من العقل ، متناثر بين الكوكب والكوكب ، وهذه الخميرة موضوعة للأشياء كلها » .

فواهمون اذاً هؤلاء الفلاسفة الذين يتصورون الوجود كله على هيئة عقل مطلق .

ولهذه الأسباب حمل نيتشه على الفلسفة كلها ، أو بعبارة أدق ، على كل الفلاسفة الذين قالوا بالوجود الثابت ، بدلاً من القول بالصيرورة ، وتصوروا العقل على هذا النحو الذى بيناه فى أول هذا الفصل ، وعارضهم معارضة شديدة. فاذا قال پرمنيدس : « ان الانسان لا يستطيع أن يتصور بعقله ما هو غير موجود » ، رد عليه نيتشه فقال : « ان ما يمكن تصوره عقلياً لا بد قطعاً أن يكون وهماً لا حقيقة له » . بل يتجاوز هذه الردود الهادئة بعض الشىء الى

ردود أخرى تلبس ثوب التناقض الوهمى فيقول : « أما أنا فأرى فى المنطق نفسه نوعاً من عدم المعقولية والصدفة » .

وكان نصيب سقراط من هذه الحملة النصيب الأوفى ، لأنه أول من قدس العقل ودعا الى عبادته فى كل شىء ، حتى ظن أن العقل وحده أو المعرفة (فالمعنى واحد) تستطيع أن تجعل المرء خيراً : فالفضيلة تقوم على المعرفة فى نظره ،ولهذا فان نيتشه يحسب أن سقراط هو بدء انحلال الفلسفة اليونانية ، وأن فلسفته ومن تلاه من فلاسفة فلسفة اضمحلال .

ويتساءل نيتشه عما اذا لم تكن ثورة سقراط فى الفلسفة صادرة عن ذحل شعبى ، وتشفياً من الفلاسفة الممتازين السابقين عليه ، وانتقاماً منهم لوضاعته ، وتكون حينئذ من نوع ثورة العبيد على السادة ، لكن فى ميدان الفلسفة.

وهكذا حطم نيتشه الصنم الأكبر ، وبقى عليه أن يحطم بضعة أصنام صغيرة أخرى . وأول هذه الأصنام الصغيرة القول بوجود عالم آخر بجانب هذا العالم ، عالم يسمونه عالم الحقائق فى مقابل عالم الظواهر ، الذى هو عالمنا المدرَك ، وما يستتبع هذا من التفرقة بين ظواهر الأشياء ، وبين الأشياء فى ذاتها على حد تعبير كَنت ؛ أو بين الأشباح وبين نور الصوَر الوهاج فى أسطورة الكهف لدى أفلاطون .

« عالم الحقــائق » المزعوم هــذا ليس هو الآخر الا خداعاً بصرياً أخلاقياً . والقول به ناشىء عن غريزة تحقير الحياة وصب اللعنة عليها واثارة التهم حولهــا : فنحب أن نثأر لأنفسنا من الحياة ، وقد أدبرنا عنها ، بأن نتوهم وجود حياة أخــرى غيرها « وأحسن » منهــا . « وليس تقسيم العالم الى عالم « ظاهرى » وعالم حقيقى » ، سواء أكان على طريقة المسيحية أم على طريقة كَنت (وهو فى النهاية ليس الا مسيحياً خبيثــاً) ، الا من ايحــاء الاضمحلال ، وعرضاً من أعراض انحطاط الحياة وسقوطها » . فالقول اذاً بوجود مثل هذا العالم « الحقيقى » أو « عالم الأشياء فى ذاتها » أكذوبة يشرح نيتشه تاريخها والأدوار التى مرت بها ، حتى طرحت أخيراً ، وأصبحت فى النهاية أســطورة وخرافة . فيقول ، تحت عنوان : « كيف انتهى « العــالم الحقيقى » الى أن يكون أسطورة : تاريخ أكذوبة » ــ انها مرت بالأدوار الآتية :

« ١ ــ العالم الحقيقى : يمكن الحكيم الورع الفاضل أن يصل الى ادراكه ــ هو يحيا فيه ، وهو هذا العالم .

(أقدم صورة لهذه الفكرة . ــ وهى على هذه الصورة بارعة نسبياً ، بسيطة متقنة . ــ وهى شرح لهذه القضية : « أنا ، أفلاطون ، أنا الحقيقة ») .

٢ ــ العالم الحقيقى : لا يمكن الوصول اليــه الآن . لكن وعد به الحكيم الورع الفاضــل (« مرتكب الخطايا الذى يتوب ») .

(تقدم فى الفكرة : فأصـــبحت أدق وأخبث وأبعد عن الادراك ــ وصارت امرأة ، ونصرانية) .

٣ ــ العالم الحقيقى : لا يمكن الوصول اليه ، ولا يمكن البرهنة عليه ، وليس موعوداً ، لكن بوصـــفه موجوداً فى الذهن هو سلوى والزام وآمر أى أن الأخــلاق هى التى تفترض وجوده عزاء للانسان عن العــالم الحقيقى الذى لا يستطيع فيه أن يصل الى تحقيق الفضيلة .

(لا زالت الشمس القديمة فى الأفق ، ولكنها منظورة من خلال الضباب والشك) .

والفكرة أصبحت دقيقة،شاحبة، شمالية ، من كينجزبرج.

(وهى البلد التى وُلد فيها كَنْت أى أنها أصبحت فى الصورة التى أعطاها لها كنت بمذهبه النقدى ، وهو المذهب الخاص بنقد العقل من أجل تحديد قيمته فى الوصول الى المعرفة الحقيقية) .

٤ ــ العالم الحقيقى : لا يمكن الوصول اليه ؟ على كل حال لم يوصل اليه حتى الآن . ولأنه لم يوصل اليه مطلقاً، فانه « غير معلوم » كذلك ، وتبعاً لهذا فانه لا يقدم سلوى أو خلاصاً أو الزاماً (الالزام أى الأمر بالواجب) ، فأى شيء يمكن أن يلزمنا به شيء غير معلوم ؟

(صباح أغبر ، أول تثاؤب العقل ، صياح ديك المذهب الوضعى) .

٥ ــ العالم الحقيقى : فكرة لا نفع فيها ولا غناء ، لا تصلح حتى لأن تخلق الالزام والأمر بالواجب ــ فكرة لا فائدة فيها قد أصبحت زائدة ، وتبعاً لهذا فهى فكرة منقوضة : فلنقض عليها اذن ولنُلْغِها .

(الضحى ؛ الافطار ؛ عودة العقل السليم والابتهاج ؛ حمرة خجل أفلاطون ؛ ضجيج العقول الحرة الشيطانى) .

٦ ــ لقد ألغينا العالم الحقيقى : فأى عالم بقى لنا اذاً ؟ لعله العالم الظاهرى ؟ لكن كلا ! لقد قضينا على العالم الظاهرى ، فى الوقت نفسه الذى قضينا فيه على العالم الحقيقى !

(الظهر ؛ لحظــة أصغر ظل ؛ نهــاية أطول أكذوبة ؛ أوج الانسانية ؛ هنا يبدأ زرادشت) » .

فليبدأ الآن زرادشت وحيه ، وليعلن على الملأ رسالتــه هو ، التى أتى بها للانسانية من أجل خلاصهــا ، بعــد أن كشف لهــا عن أوهامهــا التى آمنت بهــــا ، وحطم أصنامها التى عبدتها ، وطهر الحَرَمَ مما وضع فيــه من نَجَس وأباطيل .

وحى زرادشت

« أنا المبشر بالبرق ، وهذا البرق

اســـمه الانســـــان الأعـــلى »

ارادة القوة

« حيث توجد حياة ، توجد أيضاً
إرادة : ارادة قوة لا ارادة حياة » .

« ما الخير ؟ ـ كل ما يعلو ، فى الانسان ، بشعور القوة وارادة القوة ، والقوة نفسها .

ما الشر ؟ ـ كل ما يصدر عن الضعف .

ما السعادة ؟ ـ الشعور بأن القوة تنمو وتزيد ، ـ وبأن مقاومة ما قد قضى عليها .

لا رضى ، بل قوة أكثر وأكثر ؛ لا سلام مطلقاً ، بل حرباً ؛ لا فضيلة ، بل مهارة ...

الضعفاء العجزة يجب أن يفنوا : هذا أول مبدأ من مبادىء حبنا للانسانية . ويجب أيضاً أن يساعدوا على هذا الفناء .

أى الرذائل أشد ضرراً ؟ ـ الشفقة على الضعفاء العاجزين ... » .

تلك شرْعة القيم الجديدة ، التى جاء زرادشت يعلنها للانسانية وقد بلغت أقصى درجات الانحلال ، وفتكت بها قيم الضعف والاضمحلال . وكلها صادرة عن فكرة القوة وتقديس القوة ؛ لأنه رأى أن ارادة القوة هى جوهر الوجود ، وعن طريقها يمكن تفسير كلٍّ مظاهر الوجود .

فليس الوجود الا « الحياة » ؛

وليست الحياة الا « ارادة » ؛

وليست هذه الارادة الا « ارادة القوة » ؛

وبمقدار شعورنا بالحياة والقوة ، يكون ادراكنا للوجود ؛ وعن طريقهما فحسب ، نستطيع أن نعرف ما الوجود : فالوجود « تعميم فكرة « الحياة » . . . و « الارادة » ، و « العقل » ، « والصيرورة » . ذلك لأن الحياة « تقويم » ، « ولكى يحيا الانسان لابد له من أن يضع قيما » ، ومعنى هذا أن يفاضل ويوازن ويعطى لهذا الشىء من القيمة أكبر مما يعطيه للآخر ، ويميل الى هذا ولا يريد ذاك ؛ أو يقول هذا كذا ويجب أن يكون كذا ، ولست أريد هذا على هذا النحو الذى هو عليه ، بل أريده على نحو آخر غير ما هو عليه فى الطبيعة .

« وهذا التقويم نفسه هو الوجود أيضاً ! ــ وحينما نقول « لا » ، نعبر أيضاً عما نحن عليه » ، أى عن جوهر وجودنا . فالحياة والوجود اذا شىء واحد ، لأن كليهما تقويم ؛ وكأن الحياة اذاً تقويم وارادة . لكن أى نوع من الارادة هى ؟

ان الحياة لا تستطيع أن تحيا الا على حساب حياة أخرى ، لأن الحياة هى النمو ، وهى الرغبة فى الاقتناء ، والزيادة فى الاقتناء . وما دامت الحياة نمواً ورغبة فى الاقتناء ، فانها محتاجة الى شىء آخر خلافها وخارجها كى تتحقق . فكأن الحياة اذاً ارادة استيلاء على الآخرين ، وارادة سطو واستغلال . وطابعها المميز هو الاغتصاب وهضم ما للآخرين . فهى اذاً عنصر افناء وهدم وايذاء ، ولا يمكن أن تفهم على غير هذا النحو .

لكن هذا الاستيلاء والافناء لا يمكن أن يَتِمَّا دون أن يصادفا مقاومة ، بل لابد للحياة الواحدة من أن تجد مقاومة من أنواع الحياة الأخرى التى تصطدم واياها . ولهذا فان الحياة « كفاح » دائم « بشرط أن نفهم هذه الكلمة فهماً واسعاً عميقاً يجعلنا نفهم العلاقة بين السيد والمسود بوصفها نضالا ، والعلاقة بين الخاضع والسيد بحسبانها مقاومة » .

الا أن الحياة لا تحيا على حساب الآخرين فحسب ، بل أيضاً على حساب نفسها . فالحياة لابد أن تنتصر على نفسها ، بأن تطرح دائماً من ذاتها شيئاً يريد أن يفنى ويموت : « لابد للانسان أن يريد الزوال ، كى يستطيع النشأة من جديد ... فالتطور : بأن يلبس المرء مئات الأرواح ـ ، هذا هو حياتك ، وهذا ما قدر عليك » .

ومعنى هذا كله أن الحياة « ارادة قوة » ، أى ارادة سيطرة واستيلاء وتملك وتسلط واخضاع .

ولما كانت ارادة القوة لا يمكن أن تظهر الا بوساطة الكفاح ، « فانها تبحث دائماً عن كل ما يقاومها » . ولما كانت المقاومة صداً ووقوفاً فى وجه الشيء المقاوم ، أى معاكسة بمعنى عام ، فانها تستلزم بالضرورة الألم . فكأن ارادة القوة ، أى الحياة ، والألم لا ينفصلان : « ان ارادة القوة تنزع نحو المقاومات ، ونحو الألم . وفى جوهر كل حياة عضوية ارادة ألم » . والحياة فى حاجة ضرورية الى الاستشهاد والمعارضة ، ولا غنى لها مطلقاً عن الخصومة والعداوة .

وكلما كثرت المقاومة واشتدت الخصومة ، زادت قيمة الحياة وأصبحت ارادة القوة أكبر ثروة وأعظم خصباً .

فالحياة التى تريد أن تعلو ، والارادة التى تريد أن تتحقق فى صُوَر أجل وأعلى ، لابد لها من أن تحرص على طلب المقاومات بنفسها وأن تستثير الخصومات وألوان النضال طائعة مختارة ، وأن تخلق لنفسها حالة توتر دائم سواء أكان هذا بينها وبين نفسها ، أم بينها وبين الأشياء الخارجة عنها . فالحياة السامية حياة تنشد الخطر وتلح فى طلبه ، ولا تستطيع أن تتصور وجودها دون تصوره محفوفاً بالأخطار ، محاصراً بالتهديدات ، مضغوطاً عليه ، ومسوراً بالمقاومات . فكأنَّ ارادة القوة اذاً هى فى الوقت نفسه « ارادة الخطر » : « أن يجعل الانسان حياته فى خطر : هذا هو نتيجة ارادة فياضة سخية ، لأن كل خطر كبير يستثير حبنا للاستطلاع بنسبة ما لدينا من قوة وشجاعة » . ومن أجل هذا يقول نيتشه هذه العبارة الرائعة ، التى لا أكاد أجد عبارة أخرى تفوقها أو تدانيها ، والتى يجب أن يلخص فيها كل انسان نظرته فى الوجود وسلوكه فى الحياة : « كى تجنى من الوجود أعظم الثمار ، وتنعم بما فيه ، عش فى خطر ! » أو بعبارة أوجز وأقوى : « كى تجنى من الوجود أسمى ما فيه ، عش فى خطر ! » .

وليس الألم اذاً شيئاً سلبياً كما ادعى بعض الفلاسفة حيث قالوا انه الخلو من اللذة ؛ وليست اللذة هى الغرض

من الحياة ، وليست السعادة ، كما تفهم عادة ، الغـاية من الوجود عند الانسان . « لأنه اذا كان جوهر الوجود الباطن ارادة القوة ، والألم الشعور بعدم القدرة عـلى المقاومة والسيادة : أفلا يجب علينا حينئذ أن نعدَّ اللذة والألم حقيقتين ضروريتين ؟ وهل الارادة ممكنة بغير هاتين الذبذبتين : ذبذبة « نعم » وذبذبة « كلا » ؟ — لكن من الذى يشعر باللذة ؟ . . . لكن من الذى يريد القوة ؟ . . . هذه أسئلة لا معنى لها ، ما دام الجوهر نفسه ارادة القوة ، وتبعاً له الشعور باللذة والشعور بالألم ! » .

فاللذة لا تنشأ عن اشباع الرغبـة وارضـاء الارادة ، انما تنشأ عن استمرار الارادة ، وعن انتصارهـا على كل ما يقف فى طريقها : « ان الشعور باللذة أساسه عدم ارضاء الارادة ، بأن لا تكون قد شبعت بعـد ، بسبب انعـدام الخصم والمقاومة ، لأن عدم الارضاء هذا يهيج الشـعور بالحياة ، وهو دافع كبير لاستثارتها ، وليس شيئاً يضرها ويؤذيها » . « وليست اللذة والألم الا شيئين لاحقين ، وظاهر ثانوية تابعة — وان ما يريده الانسان حقاً ، وما يريده كل جزء من الكيان العضوى ، مهما صغر هـذا الجزء ، هو الزيادة فى القوة » ، وليس تجنب الألم والسعى وراء اللذة وطلبها .

والآن !

فاذا كان جوهر الوجود ارادة القوة ، لا ارادة الحياة ؛ واذا كان التنازع من أجل العلاء بالحيـاة ونماء القوة ، لا من أجل حفظ الحياة ، ومجرد استمرار البقاء ؛ فمـا أشد خطأ شوپنهور وداروں ، وان كان فيما يقولان شيء من الحق غير منكور !

لقد قال شوپنهور ان العالم ارادة ، وان جوهر الوجود كله هو الارادة ، ولمـا كانت الارادة شيئاً يدفع الانسان دائماً ، ويبث فيه رغبات متجددة باستمرار ، ولمـا كانت هى كل شيء فى الوجود وليس خارجها شيء ، فانها ستظل دائماً دون اشباع وارضاء لأنها لا تستطيع أن تجد شيئاً خارجها يمكن أنْ يشبع رغباتها ويرضى شهواتهـا : فتظل دائماً على هذه الحال من عدم الرضى والتعطش . وهى لن تجد الا نفسها تحت كل الأقنعة العديدة الظاهرة فى الحياة . ومن أجل هذا كله فليس للوجود غاية ، والنتيجة العمليـة هى القضاء على ارادة الحياة ، أى الفناء ؛ فارادة الحيـاة اذاً شيء كان يجب ألا يوجد .

فشوپنهور اذاً يقـول ان الارادة ، التى هى جوهـر الوجود ، هى ارادة الحياة . وراح من بعدُ يبحث عن غاية

لها خارج الحيـــاة نفسهـــا . فلما لم يعثر على شيء ، لأن الارادة هى كل شيء ، لعن الحياة ونشـــد خلاص الكون منها ، وهنا يخطيء شوپنهور لأنه طلب للحياة غاية خارجها ، مع أنه ليس للحياة غاية الا نفسها .

فالحياة فى جوهرها نماء واكثار وزيادة وتركيز متزايد للقوى الكونية فى الذات الفردية . وهى اندفاع الى اثراء نفسها والعلاء بها ، وجعلهـــا خصـــبة كأشـــد ما تكون الخصوبة ، مليئة كأكمل ما يكون الامتلاء ؛ فالأصل هى ذاتها . وهى بهـــذا المعنى مقـــدار لا حصر له من القوى أو الامكانيات التى تميل بطبيعتها الى انماء نشاط عملية الحياة وزيادة قوتها وقدرتها . والى عملية الحياة هـــذه يرجع كل شيء فى الوجود ، أما هى فى ذاتهـــا فلا يمكن ارجاعها الى شيء آخر ، ولا تحليلها الى عنـــاصر أخـــرى غيرها هى ذاتها : فهى جوهر بسيط أولى . ونماء الحيـــاة يأتى عن طريق تحقق هذه الامكانيـــات واســـتغلال تلك القوى التى تحتويها الحياة . وبمقدار هـــذا الاستغلال وذلك التحقق ، يكون سمو الحياة .

فكأن كل درجة من درجات الحياة لا تجد الغاية منها فى شيء مطلق نهائى خارج عن الحياة ، وانما تجدهـــا فى

الدرجة التالية عليها ، وهى الدرجة التى فيها يحقق ماكان ممكناً فى الدرجة السابقة قدرته على الفعل أكثر وأكثر ، والتى فيها تصبح الحياة أكثر امتلاءاً وأعظم خصباً وثروة . ففى كل درجة اذاً نزعة للحياة الى الارتفاع بنفسها الى درجة أعلى منها وأغنى وأوسع . واذا كانت للحياة غاية ، فهى هذه النزعة الى الانتقال من الدرجة الواحدة الى الدرجة الأعلى عنها ، وهى هذه الدفعة الى السمو بنفسها على نفسها . وغاية كل درجة من درجات الحياة هى الدرجة الأسمى منها ، تلك التى ترفع اليها ما كمن فيها من قوى انتقلت الى الفعل ، فاتنقلت معها الدرجة الى درجة أعلى منها .

وهذا النمو والعلاء بدرجات الحياة يحدث دون انقطاع . لأن الحياة تحتوى قوى لانهائية . وهذه القوى لا تنتقل الى الفعل كلها دفعة واحدة ، بل ان القليل جداً جداً منها هو الذى يؤثر ويحدث فعله . أما الباقى من القوى ، وهو لانهائى ، فيظل بعضه قابعاً فى نفسه ؛ وبعضه تبتلعه سلاسل من الحوادث آتية من اتجاهات مختلفة ، وتصطدم به عرضاً ، فيفنى أثره ، وينقطع فعله ؛ وبعضه ينحى عن طريقه الطبيعى لسوء ظروفه وما وجد فيه من أحوال . ولو كانت الأحوال طبيعية له ملائمة لنشاطه ، اذاً لظهر وأنتج أثره .

وعملية الحياة تتلخص كلها فى هـذا العلاء على هـذا النحو . وسر الوجود كله والغاية الأولى والأخيرة منه هى فى هذا النمو المتزايد القائم على ما فيه هو نفسه من قوى كامنة . فالغاية من الحياة اذاً هى فى « علائها على نفسها » : العلاء لأن الحياة ارادة قوة ، أى ارادة نمو وزيادة واثراء متزايد وخصب متكاثر وتوسع مستمر ؛ وهذا العلاء لن يكون الا على نفسها هى ، لأن هذه الحياة هى كل شىء وليس هناك شىء آخر غير هذه الحياة ، كما قلنا مراراً من قبل . ففى هذه العبارة اذاً : « الحياة تعلو على نفسهـا » تلخيص" تام لكل فلسفة نيتشه فى الوجود . ومنها نستطيع أن نستخلص كل ما قال به من أفكار . ذلك لأن أفكار نيتشه ونظرته فى الوجود تقوم جميعها على أساسين اثنين : الأول ارادة القوة (وهى موجودة هنا فى لفظ « العلاء ») ، والثانى أن الحياة هى الوجـود الحقيقى كله ولا وجـود غيرها ، أو بعبارة أدق أن هذه الحياة وهـذا الوجـود (والاثنان بمعنى واحد) هى الحقيقة كلها ، وليس هناك مطلقاً أى شىء آخر غيرهما مما يسميه الفلاسـفة « عالم الحقائق » ، فى مقابل « عالم الظواهـر » كما يسـمون هذه الحياة وهذا الوجود . وقد رأينا من قبل كيف حمل نيتشه على « عالم الحقائق » المزعوم هذا حملة شعواء .

هذا هو خطأ شوپنهور : فهو مصيب حين قال ان الحياة

ارادة ، وان جوهر الوجود كله هو الارادة ؛ وان هـذه الارادة تدفع الانسان دائماً الى الأمام ، وتخلق له فى كل آن رغبات جديدة وان الارادة لا يمكن اشباع نهمها ، ولا ارضاء سوْرتها . ولكنه مخطىء أشنع الخطأ حين جعل للوجود غاية غير هذا الوجود ، وحين راح يطلب للحياة غاية خارج الحياة ، لأنه لا حياة غير هذه الحياة ، ولا وجود غير هذا الوجود : هما كل شيء ولا شيء يوجد خارجاً عنهما . وهو مخطىء أشد الخطأ كذلك حين جعل الارادة ، التى هى جوهر الوجود ، ارادة وجود وحياة . فارادة الوجود لا وجود لها ، « لأن : ما هو غير موجود ، لا يمكن أن يريد ، وما هو موجود كيف يمكن أن يريد الوجود أيضاً ! ولكن الحق هو أنه حيث توجد حياة ، توجد أيضاً ارادة ، ارادة قوة لا ارادة حياة » .

أما دارون فأفحش خطأ من شوپنهور . فمذهبه فى « تنازع البقاء » مذهب باطل ، اذا كان يريد أن يفسر به جوهر الحياة والوجود . فليست الحياة تنازع البقاء ، فتلك حالة شاذة ، وانما تنازع القوة وتنازع السيطرة . « ان ارادة حفظ الحياة تعبير عن ضائقة ومأزق ، وعن تضييق لغريزة الحياة ، الجوهرية الحقيقية ، التى هى التوسع فى القوة ، بل ان هذه الغريزة غالباً ما تجعل حفظ

الحياة فى خطر وتضحى به ... والذى يسود الطبيعة ليس هو الضائقة والمـأزق ، بل الفيض والتبـذير ، حتى الى درجة الجنون . وليس تنـازع البقـاء الا حالة شـاذة ؛ وتضييقاً موقتاً على ارادة الحياة . فالنزاع الكبـير منـه والصغير ، يدور فى كل مكان ومن كل الوجـوه حول السيادة والنمو والاتسـاع ، حول القوة ، وتبعاً لارادة القوة التى هى ارادة الحياة » .

ويتصل بخطأ دارن خطأ زميله اسپنسر . فليست الحياة كما يقول تلاؤم طبيعة الفرد وأحواله الداخلية مع الأحوال والطبيعة الخارجية . وانما هى ارادة القوة التى تُخضـع لنفسها من الداخل ما هو « خارجى » ، وتستولى عليه ، وتدخله فى باطنها وتمتصه .

وارادة القوة هى مقياس القيم فى الحيـاة : فتحـديد المستوى رتعيين الطبقات ، كل هذا تفصل فيه . وليس فى الحياة شىء ذو قيمة غير درجة القوة ، « والقيمة هى أكبر مقدار من القوة يستطيع الانسـان أن يحصله ويستولى عليه » ، ولكن المهم ليس هو كمية القوة ، بل كيفيتها .

وأيان فتشت فى كل مرافق الحياة ومظاهر الوجـود ، فلن تجد غير ارادة القوة . فهى الدافع الحقيقى فى النفس ، وهى العامل الجوهرى فى الجماعة والدولة .

ففى النفس وما يصدر عنها من أحوال يستطيع المرء أن يرى ارادة القوة ، بعد أن يمزق الأقنعة العديدة التى تستتر من ورائها : فسواء أصاب الانسان الناس بشر أم أصابهم بخير ، فانه فى كلتا الحالتين يمارس قوته ويستخدمها . فالطبائع القوية تبحث عن أندادها من الأقوياء وتسعى للنضال والتنافس واياها قدر المستطاع . والطبائع الضعيفة لا تجد أملاً فى القيام بغزوات كبرى كالطبائع القوية ، فتلجأ الى الشفقة ، تجد فيها شعوراً لذيذاً بالقوة . وان من أقدم وسائل السلوى ، حين يصاب المرء بنكبة من النكبات ، أن يدع الآخرين يتألمون ، بأن يشاركوه فى الألم ، وفى هذا من الشعور بالقوة مافيه . والمتواضعون يزوّدون أنفسهم بشعور القوة بأن يحكموا على الآخرين بأنهم مذنبون ، على أقل تقدير . وحتى أبعد الأشياء ، فى الظاهر ، عن أن تكون صادرة عن الشعور بالقوة وارادة القوة ، ونعنى بها الأفكار الفلسفية وأعمال الزهد والتقوى والتدين ، يبعث عليها الشعور بالقوة وارادة القوة : فالزهاد يشعرون بالقوة فى تعذيبهم لأنفسهم : « ان السعادة بوصفها الشعور الحى كل الحياة بالقوة ، لم يكن فى مكان آخر على ظهر الأرض أكبر مما هو فى نفوس الزهاد المؤمنين بالمعجزات » . أما ما يسميه الناس باسم التفانى والتضحية والنزاهة فأول أسبابها

« أن الناس يخضعون بالعادة لكل ماله قوة » لأن القوة تكلفهم كثيراً من التعب وتتطلب الشجاعة ، ولكنها في الحقيقة تخفى من ورائها ارادة قوة . فالضعفاء يقولون : « نحن نخضع ، كى نستطيع أن نحصل على الشعور بالقوة » ، والأقوياء « يشعرون بلذة لا توصف ، حين يشعرون بأنهم « أخضعوا » أنفسهم » .

وفى الجماعة والدولة تلعب ارادة القوة معظم الأدوار تقريباً ، وتراها تمتد بجذورها الى كل شيء . فتجدها أول ما تجدها فى عبادة المال فى العصر الحديث . فالناس الحريصون على جمع المال الكثير لا تدفعهم الى ذلك الحاجة ، بل الرغبة فى السيطرة والشعور بالقوة .

ثم فى تصور الناس للتاريخ ، فتجدهم يحاولون أن يخضعوا التاريخ لارادة القوة عندهم ، فيفسروه تفسيراً جديداً يشعرهم بالقوة .

وتجدها بأجلى مظاهرها فى السياسة . فالضعفاء عديمو الحول والقوة يطالبون أولاً بالعدالة من جانب هؤلاء الذين يملكون القوة ؛ ويطالبون ثانياً بالحرية ، أى أنهم يريدون أن يتخلصوا من هؤلاء الذين بيدهم القوة ؛ وفى الدرجة الثالثة يطالبون بالتساوى فى الحقوق ، أى

أنهم يريدون ، ما دامت السلطة ليست فى أيديهم ، أن يحولوا بين من بأيديهم السلطة وبين أن ينمّوها .

ونحن قد وجدناها من قبل فى الأخلاق فى أحدِّ صورها وأعنفها ، حيث رأينا كيف تنشأ الأخلاق والقيم الأخلاقية من تنازع السلطان والغلبة والقوة بين السادة وبين العبيد . فالعبيد يخترعون قيماً أخلاقية لا غرض لهم منها الا اخضاع السادة لهم عن طريقها ، وليست فى الواقع الا أسلحة مسمومة يستخدمونها كى يتحرروا أولاً من نير سادتهم ؛ وثانياً لكى يسيطروا عليهم بمجرد زوال سلطتهم . ووجدنا الرعاة من بينهم يستخدمون أخبث الوسائل كى يضمنوا سيطرتهم عليهم ، ويكونوا فى مركز القوة .

ولكن مَنْ الضعيف ، ومن القوى ؟

الضعيف الشخصية هو المضطرب التركيب الروحى ، العديم الوحدة ، أما القوى فهو الذى « تتجه فيه كل القوى متوترةً نحو غاية واحدة ، وتتضاغط دون صعوبة على شكل نير » ، أى أن قواه كلها مرهفة وموجهة الى غاية واحدة ، مكونة بذلك قوة دافعة ضخمة تسيطر عليه وتدفعه دفعاً ، وكأنها كرة من القوى المركزة المضغوطة تتحرك بذاتها مندفعةً نحو تحقيق غايتها الصادرة عن

ذاتها وجوهرها . والارادة الضعيفة تنمو وتقوم على غرائز مختلفة دون أن يكون هناك توازن وتنسيق بينها . أما الارادة القوية فتنمو وتقوم على تنسيق الغرائز كلها تحت اشراف غريزة واحدة ، وهى من أجل هذا واضحة الاتجاه دقيقة محددة . والاعتدال عند الضعيف نتيجة عجزه وفقره ، أما عند القوى فلذة الاعتدال كلذة الاتزان عند الفارس وهو على جواد جموح عنيد .

والضعيف هو رجل التساهل والتوسط والمساومة ؛ أما القوى فهو من « يمثل الطابع المضاد للموجود الكائن أقوى تمثيل » .

وليس للضعيف قدرة على مقاومة الاغراء ؛ أما القوى فيحول الاغراء الى طبيعته هو بأن يتمثله ويجعله جزءاً من قدره ، ولهذا فان الضعيف يهول فى الاغراء تهويلاً شديداً ويصبح سلبياً خالصاً بازائه ، لا يستطيع أن يرد فعله ، ولا أن يحول دون سيطرته عليه . ولكن القوى يقابله برد فعل شديد ، لا ليبعده ويتجنبه ، بل ليسوده ويخضعه لذاته ، وتراه يقول : « ما لا يقتلنى يزدنى قوة » ، أى أنه يقبل على أكبر الأشياء خطراً وينشد أعظم المخاطرات ، طالما لم يكن من شأنها أن تقتله وتقضى عليه ؛ فالى أن تكون قادرة على القتل والافناء يظل يطلبها ويقبل عليها .

وهو بهذا يزداد قوة ، لأن ارادة القوة عنده قد اصطدمت بأكبر مقاومة وشعرت بأعظم انتصار . ولهذا يقول نيتشه : « ان الأسباب التى تؤدى الى جعل الضعاف من النـاس صغاراً حقراء ، هى عينها التى تدفع الأقوياء والنادرين الى العظمة والعلاء » .

والتجـارب الروحيـة لا يستطيع الضعيف هضمهـا ، أما القوى فيتمثلها ويمتصها . فالتجربة الروحية (المخاطرة ، معاناة أمر جلل ، الشعور بالحوادث الضخمة التى يلقاهـا الانسان فى حياته) كالطعنة النجـلاء فى روح الضعيف ، وهى جرح لا يندمل . أما بالنسبة الى القوى فهى خلية من خلايا حياته الروحية : « ان الرجل القوى ، صاحب الصحة القوية بغرائزه ، يهضم غذاءه سواء بسواء ، وحتى الطعام الثقيل سرعان ما يهضمه وينتهى منه » .

وحياة الضعيف فقيرة جوفاء ، أما حياة القوى فخصبة ، كلها فيض وثراء . وكلاهمـا يتألم : أحدهمـا من العوز والاملاق ، والآخر من الافراط فى الثروة والفيضان .

والضعيف يريد السلام ، والوفاق ، والحرية ، والمساواة ، يريد أن يحيا حيـاة المحافظة على البقـاء . ولكن القوى

يفضل المشكلات والهائل من الأشياء : « الواحد منهما لا يريد أن يخاطر بشيء ، بينما الآخر يريد المخاطرة بكل شيء » . والضعيف عنده الشعور بالانتقام والذحل فحسب ، كما رأينا من قبل حين تحدثنا عن الذحل فى أخلاق العبيد . أما القوى فيهجم فى الحال ، لأن فيه قوة هائلة متركزة تتوثب للفيض والانقضاض .

والآن وقد عرفنا الحياة وعرفنا ما هى ارادة القوة وبأى شيء تتميز ، فلنحاول أن نفسر الوجود بوصفه مظهراً لارادة القوة ، فهى المبدأ الجوهرى فيه ، كى نخرج من هذه المحاولة بوضع قيم جديدة تخالف كل ما اصطلح عليه من قيم حتى الآن .

ولنبدأ بالمعرفة لأنها الأساس فى كل تقويم فنشاهد أن جهاز المعرفة كله لا يتجه الى الكشف عن الحق والنفوذ اليه . وانما يتجه الى السيطرة على الأشياء واخضاعها ؛ « وكل أعضاء المعرفة والحس لدينا تتطور من أجل ايجاد ظروف المحافظة على الحياة وانمائها فحسب . والثقة بالعقل ومبادئه وبالمنطق وقيمه ، لا تدل الا على ما بينته التجربة من نقع لهذه الأشياء بالنسبة الى الحياة ، لا على أنها « حقيقية » . وجوهر الحقيقة ليس فى كون شيء ما من الأشياء حقاً ، وانما هو أن يعتقد الانسان أنه حق . فالنفع

اذاً هو المعيار الفاصل فى كون الأشياء حقاً أو غير حق ؛ والنفع هنا نقصد به ما تراه ارادة القوة محققاً لأغراضها ، وما تراه الحياة متفقاً مع غايتها نحو التعالى ونحو السيطرة ونحو النماء والاثراء والاتساع . فليس هناك اذاً « حق » فى ذاته أو « خطأ فى ذاته » . بل يذهب نيتشه الى أبعد من هذا فيقول : ان « الحق نوع من الخطأ ، لا يستطيع نوع معين من الكائنات الحيَّة أن يحيا بغيره . فالقيمة بالنسبة الى الحياة هى الفاصل الأخير » . وارادة الحق ، تلك التى طالما مجدها العلماء وأحرقوا لها البخور ، ليس الا خادماً لارادة القوة . وقول العلماء والفلاسفة « الحق للحق » و « من أجل الحقيقة وحدها » و « الحقيقة الموضوعية » ليس الا نفاقاً كبيراً وقناعاً يخفون من ورائه ارادة القوة الدافعة لهم . وهم يتخذون هذا القناع ، ويموهون كلامهم بهذا الطلاء ، لكى يكونوا أقدر على السيطرة ، وأقوى على السيادة بأفكارهم وآرائهم .

وعلى هذا الأساس يجب أن تقوَّم المعارف الانسانية : فبمقدار ما تعلو بالشعور بالقوة تكون درجة « الحق » فيها ، وبمقدار ما تكون وسيلة للحصول على القوة من أجل تشكيل الأشياء بحسب ارادتنا ، تكون قيمتها .

هذه أول قيمة من القيم العليا الثلاث : الحق والجمال

والخير ، بحثنا فيها فلم نجدها الا وسيلة من الوسائل التى تستخدمها ارادة القوة كى تتحقق ، والتى تلجأ اليها الحياة من أجل أن تعلو وتنمو .

وكذلك الجمال مثل الحق . « فحبنا للجمال هو الارادة المصوِّرة » أى الارادة التى تخلق الأشياء من جديد ، وتشكلها بحسب ارادتها . وليس هذا الا الدليل على ما فيها من قوة هائلة . لأن الابتكار والخلق أكثر الأشياء اشعاراً بالقوة ، وأعظمها استثارة للاحساس بالقوة . وقيمة الفن فى أنه « الدافع الكبير للحياة » : فهو المنقذ لطالب المعرفة ، حين ينظر الى طابع الوجود المُشكل المخيف أو حين يريد النظر اليه ؛ وهو المنقذ لصاحب العمل ، الذى لا يرى هذا الطابع المخيف للوجود فحسب ، بل يريد أيضاً أن يحياه : وهو البطل فى الروايات المسرحية والقصص ؛ وهو المنقذ لمن يتألم ، لأنه يهيىء له السبيل ليرى أحوالاً يمجد فيها الألم ويُقبل عليه اختياراً . وأجلى ما تظهر ارادة القوة فى الفنون هو فن المعمار . فكما قال جورج زمّل : « انالنضال الكبير بين ارادة الروح وضرورة الطبيعة ، بين قوة النفس التى تنزع الى أعلى ، وبين الثقل الذى ينزع الى أسفل ، لا يمكن أن يحقق التوازن التام الا فى فن واحد : هو المعمار ... فهو الانتصار الأعلى للروح على الطبيعة : ويمكن

تشبيهه بالنتيجة التى نحصل عليها ، حينما نوجـه انساناً بطريقة تجعله يحقق ارادتنا ... » .

وأخيراً الخير .

وهنا تبدو ارادة القوة مسيطرة على خلق جميع قيمه ، والدافع الى أدائه . فليست ارادة الخير من جوهر الأشياء وطبيعة الوجود ، وانما هى نتيجة لارادة السيطرة عند وحدة من الوحدات الاجتماعية (مثـل السادة) بازاء وحـدة أخرى ، أو ارادة البقاء (كما عند العبيـد) بازاء وحـدة أخرى تهددها وتخضعها . و « الأخلاق هى العلم بأحوال السيطرة » ؛ وهى المعرفة التى توصلنا الى ايجاد الوسائل لتحقيق ارادة القوة لدينا فى ميدان الجماعة .

فكأن هذه القيم الثلاث اذاً لا تنبع الا من ارادة القوة . فهؤلاء الذين يضعونها لا يريدون من ورائها الا السيطرة ، واليهم يوجه زرادشت الكلام فيقول :

« تلك ارادتكم كلها ، أنتم يا أكبر الحكماء، تلك ارادة القوة لديكم . ومن أجل هذا تتحدثون عن الخير والشر ، وعن تقويم القيم ...

انكم بقيمكم وبأقوالكم فى الخير والشر ، تمارسون قوتكم أنتم يا من تقوّمون القيم : وهذا هو حبكم المتخفى وشعوركم الذى تفيض به نفوسكم ... » .

ارادة القوة اذاً هى سر الوجود ؛

فلنبنِ على أساسها اذاً مستقبل الوجود .

هــذا الوجود !

« أناشدكم يا اخوانى أن تظلوا
للأرض مخلصين » .

استمعت من قبل الى نيتشه ، وهو يقص عليك قصة هذه الأكذوبة الضخمة الطويلة القائلة بأن هنــاك عالمين : عالم الظواهر وعالم الحقائق . وعرفت كيف انتهت الى القضاء عليهما جميعاً ، « فقضينا على عالم الظواهر فى الوقت الذى قضينا فيه على عالم الحقائق » . فلعلك تسأل نيتشه الآن : ماذا بقى اذاً بعد الغاء هذين العالمين ؟

ونيتشه يسرع فى الاجابة ويقول : قد بقيت «الصيرورة» « والحياة » « والطبيعة » ، والجميع بمعنى واحد ؛ فهى كلها تعبر من وجهات نظر ثلاث عن الوجود الحقيقى ، هذا الذى لا وجود غيره . وهو هــذا الوجود الذى نضطرب ونحيا فيه ، والذى هو وجودنا نحن : فهو نحن ، ونحن هو.

فاذا نظرنا الى الوجود ، هذا الوجود ، من ناحية جوهره وطبيعته وجدناه صيرورة مستمرة : أى تغيراً دائماً ، وحركة دائبــة وتطوراً لا ينتهى . بعكس ما قاله الفلاســفة ، أو الغالبية العظمى منهم ، حين ظنوا أن الوجود شىء ثابت ،

لا تتغير فيه جواهر الأشياء ولا يمكن الشيء الواحد فيه أن يتحول الى نقيضه ، أو حتى الى ضده . فهـذا الوجـود الساكن الثابت وهم .

وهذه الصيرورة لا غاية تنتهى اليها ، بل هى غاية نفسها، وهى كل شيء ولا شيء وراءها .

الا أن العقل لا يستطيع أن يدرك هذه الصيرورة على حقيقتها وكما هى ، وانما يقدر على ادراكها حين يحيلها الى سكون وثبات . فكما أن خلايا الجسم لا تستطيع أن تمتص الطعام الا اذا تحول الى شيء من جنسها ، مماثل لها ،كذلك العقل لا بد له أن يحول الوجود ، الذى هو حركة مستمرة وتغير دائم ، الى شيء ثابت ، كى يستطيع أن يعرفه . ولهذا فان المعرفة والوجود الحقيقى يتنافيان ، وهو يظهر لها فى صورة المتمرد عليها ، المتناقض معها .

والعقل حين يتصور الوجود الحقيقى على هذا النحو انما يخدم الحياة . فالحياة لكى تستطيع أن تحيا ، لا بد لها من تصور الوجود شيئاً محدوداً معيناً ثابتاً . وبغير هذا لا تمكن الحياة . والا فان الحياة اذا تصورت الوجود على شكل تغير دائم لذهبت وانقضت . فنظرية الوجود بوصفه صيرورة نظرية « صحيحة ، ولكنها مميتة » على حد تعبير نيتشه .

ذلك لأن الحياة ، كما رأينا فى الفصل السابق ، ارادة قوة : أى ارادة استيلاء وتملك وتمثل للأشياء الخارجة عنها ؛ وهذا لا يمكن أن يتم اذا كانت الأشياء فى تغير مستمر : فلا بد أن تتصور على نحو ثابت كى يمكن تمثلها . ولهذا يقول نيتشه : « ان طبع الصيرورة بطابع الوجود الثابت أعلى نوع من ارادة القوة » .

أما اذا نظرنا الى الوجود من الناحية الحيوية ، فنحن نسميه حياة . والحياة « مجموعة من القوى المرتبط بعضها ببعض عن طريق عملية تغذية مشتركة ... ويتبع هذه العملية كوسيلة لتحققها كل ما يسمى باسم الاحساسات والتصورات والأفكار ، أعنى أولا مقاومة كل القوى الأخرى (غير قواها هى) ؛ وثانياً اعداد هذه القوى تبعاً لصورة الحياة وسياقها؛ وثالثاً تقويم الأشياء من أجل تمثلها أو طرحها والقضاء عليها». وأحياناً يسمى نيتشه حياة الانسان باسم «الجسم» ، ولا يقصد به الجسم المعروف فى التشريح : فهذا جثة وليس جسماً بالمعنى المفهوم عند نيتشه . وانما الجسم كل الوظائف الحيوية اللاشعورية ، أو هذه الحياة فى كل مظاهرها القوية الحية بكل معانى الحياة .

ومن أجل هذا نراه يشيد « بالجسم » ويعدّه أعظم من الروح بكثير . فالشعور أو الروح أو النفس بالنسبة اليه

شيء فقير ضيق النطاق محصور ، بل ان هذا الشيء ليس الا أداة تقوم بخدمة « الجسم » : « ان الجسم الانسانى ، الذى به يحيا وسيحيا كل الماضى القريب والبعيد ، ماضى الأحوال العضوية ، والذى يجرى فيه سيل هائل يتخلله ويعلو عليه وينفذ فى جميع نواحيه : هذا الجسم (بهذا المعنى) فكرة أروع من فكرة الروح أو النفس القديمة » . ولقد كانت هذه النفس القديمة تنظر الى الجسم فى سخرية واشمئزاز ، وكانت تحتقره وتحسب هذا الاحتقار ، أو يحسب الانسان أن هذا الاحتقار للجسم ، أعظم شيء يستطيع القيام به . فكان يعذبه ، وكان يجوعه ، وكان يعمل على جعله هزيلاً . وكانت لذة الروح فى القسوة عليه . ولكن هذا كله يفقد الانسان « معنى الأرض » ، أى معنى الحياة الحقيقية التى لا حياة غيرها . أما الآن فيجب أن نعد « الجسم » أعظم من الروح . فالجسم هو «العقل الأكبر». والروح هى « العقل الأصغر » : « وأنتم يا اخوانى ! فلتحدثونى عما يقوله جسمكم عن روحكم : أليست روحكم فقراً ودنساً وغروراً يستوجب الرثاء ؟ » .

ومع هذا فالحياة شيء خبيث لعوب قد يخدعنا . فهى تارة تهزأ بنا ، وطوراً تثير فينا الأمل وتحمل على الاقبال عليها . « لعل أعظم سحر للحياة هو أنها متنقبة بنقاب ذهبى

مصنوع من الآمال المعسولة الجميلة والممكنات الخلابة : فتراها تعد وتتأبى وتدعى العفاف ، وتترفع ، وتترفق ، وتغوى . أجل ، ان الحياة امرأة تثير فى نفوسنا الشك ، وتحملنا على الحذر منها وعدم الاطمئنان الى صحبتها وحبها . ولكنا مع ذلك لا نستطيع الا أن نحرص عليها ونقول لها : « نعم ! » بكل قوانا » .

وما أعذب هذا الحوار بين زرادشت وبين الحياة ، وهو ينشد « أنشودة الرقص » الأولى : « منذ لحظات كنت أنظر فى عينيك ، أيتها الحياة ! وقد خيل حينئذ الىَّ أنى أخوض فى بحر لا نهاية له ولا قرار .

لكنكِ انتشلتِنى بشص ذهبى ، وتبسمتِ ساخرة منى حين قلت عنك انك لا يُسبر غورك .

ثم قلت : « هكذا كل السمك : فما لا يستطيع ادراك غوره ، يحسبه شيئاً لا يُسبر غوره .

« أما أنا فلست الا متقلبة متوحشة . وفى كل شىء أنا امرأة ، ولا خلاق لى :

« سواء سميتمونى معاشر الرجال باسم « العمق » و « الاخلاص » و « الخلود » و « الامتلاء بالأسرار » .

ثم تقول له الحياة مرة ثانية فى «أنشودة الرقص» الثانية كاشفة له عن حقيقة حبه لها ، وهل هو حب خالص صادق صادر عن الاخلاص والتفانى المطلق :

« أى زرادشت ! ان اخلاصك لى اخلاص غير كاف !

« انك لا تحبنى منذ زمان على النحو الذى تتحدث به ، وأنا أعلم أنك تفكر فى أن تغادرنى بعد حين » .

فزرادشت اذاً يريد الموت ، ويريده طائعاً مختاراً يقبل عليه بنفسه ؛ بل هو يدعو الانسان الى عدم انتظار الموت حتى يتهادى اليه فى خبث واستخفاء كاللص ؛ انما عليه أن يهجم عليه ويسبقه .

فالموت فى نظر نيتشه جزء من الحياة : « حذار أن نقول ان الموت مضاد للحياة » . فهذه الحياة هى كل شىء ، وليس الموت الا جزءاً مكملاً لها . أما الجزع « مما بعد الموت » فليس له ما يبرره ، لأنه ليس بعد الموت شىء : « ما بعد الموت لا يعنينا بعد » .

والموت نوعان : « طبيعى » وهو هذه الظاهرة الطبيعية التى لا مفر منها ولا حيلة للمرء فى دفعها ؛ ثم موت «ارادى» وهو « الانتحار » .

أما الموت الطبيعى فلا داعى مطلقاً للجزع منه . لأن الحياة ليس معناها « ارادة الحياة » الى غير نهاية و « عدم امكان الموت » . وانما معناها سيطرة الانسان على الحياة من أجل الحياة ، أى من أجل العلاء بالحياة والارتفاع بمستواها . فليس المطلوب اذاً أن تحيا حياة طويلة ، وانما أن تحيا حياة حافلة خصبة زاخرة ، ولا بد بعدُ أن تأتى لحظة تشعر فيها بأن نضجك قد اكتمل ، وأنك لا تستطيع أن تعلو أكثر مما علوت ، فتشعر بحاجتك الشديدة الى الموت ، لأنه التاج الذى تتوج به كل حياتك . لهذا يجب على المرء أن يجعل من موته عيداً ، حتى لو كان ذلك منه تطاولا على الحياة : « على هذه المرأة التى تريد هجرنا ــ هجرنا نحن ! ... » .

ويحمل نيتشه على هذا الجزع من الموت ، لأنه أولاً يؤثر تأثيراً ضاراً على الحياة التى نحياها : فيكفى المرء أن يتمثل صورته ، لكى يميل الى اليأس أو على الأقل الى التبرم وعدم الاطمئنان الى الحياة . ولأنه ثانياً اشارة الى وجود موهوم لا حقيقة له فى الواقع : ولا بد للمرء من الخلاص منه كشرط للحياة المليئة بمعناها الصحيح عند نيتشه .

وأعظم من هذا الموت الطبيعى وأروع ، الموتُ الارادى، فالموت الأول « موت لا دخل لارادة المرء فيه ، وهو موت

فى وقت غير مناسب ، هو موت الجبناء . فيجب على الانسان ـ حباً فى الحياة ـ أن يريد الموت على نحو آخر : أن يريده حراً ، مدركا ، لا صدفة فيه ولا مفاجأة ». وفى الموت الطبيعى يكون الجسم شبيهاً « بحارس السجن الحزين ، الغبى المريض غالباً ، الذى يحدد النقطة التى لا بد لسجينه العزيز أن يموت فيها . ان الموت الطبيعى انتحار الطبيعة ، أعنى افناء الكائنات العاقلة بواسطة غير العاقلة ».

ومن أجل هذا يدعو نيتشه الى الموت الارادى أو الانتحار . فيقول على لسان زرادشت : « كثير من الناس يموتون فى وقت متأخر جداً ، وبعضهم يموتون فى وقت مبكر جداً . ولا زال هذا القول : «مت فى الوقت المناسب»، يبدو غريباً ؛

« مت فى الوقت المناسب ، هكذا يدعوك زرادشت .

« حقاً ، ان من لا يحى فى الوقت المناسب ، كيف يتسنى له أن يموت فى الوقت المناسب ؟

« ليته لم يولد اذاً ! ـ هكذا أنصح هذه الطفيليات التى لا فائدة فى حياتها ...

« الجميع ينظرون الى الموت على أنه شىء مهمّ ، ولكن الموت لم يصبح عيداً بعد .

« أجل ! لم يتعلم الناس بعد ، كيف يحتفل بأجمل الأعياد » .

وأجمل الأعياد هو الموت الارادى ، الذى يقبل عليه الانسان طائعاً مختاراً ويجذبه بنفسه اليه . ومثل هذا الموت يكون للأحياء دافعاً وحاثاً لهم فى الحياة على القيام بأجل الأعمال وأروع الفعال ، فيصبح أمنية الأبطال وأمل الممتازين . فمن يمت موتاً ارادياً يمت ظافراً ، ومن حوله أناس قد شاعت فى نفوسهم الأمانى وامتلأت قلوبهم بالتمنيات والآمال . « وأجل شىء أن تموت ، ثم أن يكون موتك وسط الجهاد ، باذلا فيه نفساً كبيرة سامية » . أما الموت الطبيعى و « هو الموت العبوس الذى يسترق الخطى كاللص ، — ومع ذلك يأتى اليك سيداً » لا مفر من الخضوع لمشيئته ولا حيلة لك فى دفع سلطانه « فما أبغضه الى المجاهدين والظافرين » . ومن أجل هذا « أوصيكم بأن تموتوا موتى ، هذا الموت الحر المختار ، ذلك الذى يأتى الى ، لأنى أريده » .

فهذا النوع من الموت هو وحده أو هو أحرى أنواع الموت بتسميته جزءاً مكملا للحياة ، لأن الموت الارادى هو فى الواقع عمل من أعمال الحياة ، وفعل أقوم به أنا بنفسى ، أنا الحى ، فيه أرتفع فوق الحياة ، وأعلو عليها . نعم ان

هذا الفعل الصادر عن الحياة فيه قضاء على الحياة ، لكن هذا القضاء شيء اختارته الحياة نفسها لكى تعلو به على نفسها،تحقيقاً لمبدأ علاء الحياة ورفعها الىأسمى المستويات، وهو المبدأ الذى شرحناه لك فى الفصل السابق .

والمشكلة هى فى « الوقتَ المُنـاسب » للمـوت ، متى يكون ، وكيف نعرفه ؟ ومنْ مِنَ الناس ننصح له بالموت؟

أما الذين ننصح لهم بالموت العاجل الارادى فهم هؤلاء الفضوليون وهذه الطفيليات على الحياة . هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يحيوا حياة مليئة جديرة حقاً بأن تسمى حياة بالمعنى الذى أوضـحناه من قبـل : « ان الأرض مليئـة بالطفيليات ، والحياة قد أفسدتها هذه الكثرة المتكاثرة » .

فلنقذف بهم بعيداً عن هذه الحياة باغرائهم « بالحيـاة الأبدية » . ثم هؤلاء الذين لا يريدون أن يقبلوا على الحياة بكل ما فيها ، بل يظلون منذ البدء يشكون منها ويتململون، ويؤمنون بمبادى تدعو الى الزهد والتعب من الحيـاة : « هؤلاء يريدون الموت ، فعلينا نحن أن نحقق ارادتهم ، ونصدّق على قرارهم ! هؤلاء موتى فلنتجنب ايقاظهـم ؛ وهم جِيَف حيّة فلنحاذر جرحها أو ايذاءها » .

الموت لهؤلاء يفيد الانسانية ، لكنه لا يدل على بطولة

لديهم . أما الموت الارادى الحقيقى فهو الموت الصادر عن البطولة ، وهو موت من كان له فى الحياة غاية فعمل لها ثم فقدت قدرته على الخلق والانتاج ، وأتت نهايتها ؛ وحينئذ يطلب الموت وهو فى أوج حياته . فالوقت المناسب اذاً هو الوقت الذى يجد فيه صاحب الحياة المليئة الخالقة أنه ليس قادراً بعدُ على الخلق . وهو أعلى نقطة يصل اليها . وليس له أن ينتظر مطلقاً حتى يشعر بأن الحياة قد جفت مياهها نهائياً . فمتى شعر ببدء الاضمحلال ، فليسرع بالاحتفال بهذا العيد العظيم ، عيد الموت . « فعلى المرء أن يحيا على نحوٍ تكون لديه ارادة الموت فى الوقت المناسب».

لكن ، اذا لم يكن بعد الموت شىء ، لأن هذا الوجود هو وحده الوجود الحقيقى ، فهل يفنى المرء نهائياً الى غير رجعة ؟ وهل لن يأتى على هذا الوجود وقت يكون فيه قد استنفد كل أنواع التراكيب والتفاعلات بين قواه المختلفة ؟ أو سيظل الوجود يخلق أنواعاً من الوجوه جديدة الى غير نهاية ؟ وهل حياتنا التى حييناها لحظة من الزمان قد ذهبت وغاصت فى الماضى ولا سبيل الى عودها من جديد ؟ ثم انا قلنا فى أول هذا الفصل ان الوجود الحقيقى تطور وصيرورة وحركة دائمة ، ولكن الحياة لا يتسنى لها أن تقوم الا اذا تصورت هذا الوجود على شكل وجود ثابت

ساكن ، ولو نسبياً على أقل تقدير ـ فكيف نوفق اذاً بين الاثنين : بين الوجود الحقيقى الذى هو صيرورة ، وبين الوجود الذى تقول به المعرفة وتؤمن به الحياة وهو وجود ساكن ثابت ؟ وهل أصبحنا عاجزين كل العجز عن أن نسترد الزمان الماضى ، ولم تعد لنا سيطرة عليه ؟

كلا ! وان لهذه المشاكل المعقدة كلها لحلاً واحداً يتلخص اسمه فى كلمتين اثنتين : « العود الأبدى » .

هذه الفكرة الخطيرة جداً اكتشفها نيتشه من جديد (لأن الفكرة قديمة ، كانت فى الفكر الهندى ، وقال بها هيرقليطس) فى لحظة لم يَحْىَ نيتشه من قبل سنوات كاملة تعادلها لحظة هائلة مليئة ، نزلت عليه فيها هذه الفكرة كصاعقة قوية أو كحالة من حالات الوحى العنيفة جداً ، أو التجلى الرائع . وكان ذلك فى يوم من أيام شهر أغسطس سنة ١٨٨١ : فى هذا اليوم ذهب نيتشه الى بحيرة سلڤپلانا (فى وادى الأنجادين بسويسرا) وسار فى الغابات حتى وصل الى صخرة هرمية القمة ، غير بعيدة عن سورلاى ، وهنا هبطت عليه هذه الفكرة الهائلة (١) .

---

(١) راجع تفصيلا أوسع لهذا الاطار الذى تجلت فيه هذه الفكرة لنيتشه ـ فى كتابنا : « الحور والنور » ، القسم الثانى . القاهرة سنة ١٩٥١ .

وخلاصة هــذه الفكرة هي أن الوجــود ليس صيرورة مستمرة لا نهائيــة ، وانما تأتى فترة هى ما يسميه نيتشه باسم « السنة الكبرى » للصيرورة ، عنــدها تنتهى دورة الصيرورة لتبدأ دورة جديدة . وهذه الدورة الجديدة تأتى عليها سنتها الكبرى فتنتهى من جديد . وهكذا زمان الوجود مقسم الى دورات . وكل دورة من هذه الدورات تكرار تام للدورة السابقة عليها ، ولا اختــلاف مطلقاً بين الواحــدة والأخرى . فكأن الوجود كله صورة واحــدة تتكرر بلا انقطاع فى الزمان اللانهائى : « كل شىء يغدو ، وكل شىء يعود ؛ والى الأبد تدور عجلة الوجود . كل شىء يبيــد ، وكل شىء يحيا من جديد ، والى الأبد تسير سنة الوجود ». وهذا التكرار يتناول كل التفاصيل ويشمل كل الجزئيات : « فكل الأحوال التى يمكن هذا العالم أن يصل اليها ، قد وصل هو اليها من قبل ، لا مرة واحد ، بل مرات لا نهائية. فهذه اللحظة التى أنا فيها وجدت من قبــل عدة مرات ، وستعود من جديد وقد وزعت فيها كل القوى كما هى فى هذه اللحظة بالضبط ؛ وهكذا الحال بالنسبة الى اللحظــة التى سبقت هذه اللحظة ، وتلك التى ســتتلوها . أيهــا الانسان ! ان حياتك ، كالساعة الرملية ، ستعود من جديد وستذهب من جديد دائماً أبداً ؛ ـــ وكل وجود من هذه الوجودات لا يفصله عن الآخر الا الدقيقــة الكبرى من

الزمان ، الضرورية لكى توجد من جديد كل الأحوال التى أوجدتك فى دورة الكون . وحينئذ ستلقى من جديد كل ألم وكل سرور ، كل صديق وكل عدو ، كل أمل وكل خطأ ، كل عود من الحشيش وكل شعاع من أشعة الشمس ، وستجد نظام الأشياء كما هو عليه الآن . وهذه الدورة التى أنت حبة فيها ، ستتلألأ من جديد ، وهناك فى كل دورة من دورات الوجود الانسانى ساعة تقوم فيها عند الفرد الواحد أولا ، ثم عند عدد كبير ، ثم عند الجميع ، أكبر فكرة وأقواها : فكرة العود الأبدى لكل الأشياء ــ وهذه الساعة فى كل حالة هى بالنسبة الى الانسانية ساعة الظهيرة » .

جاءت هذه الفكرة لنيتشه لا عن تفكير طويل وبحث علمى سابق انتهى منه الى القول بها ، وانما هى قد أتت اليه فجأة ودون اعداد سابق . فاستولت على كل فكرة ، ورآها نوراً ساطعاً وهاجاً يضىء الأشياء من جديد ، ويعطى للحياة قيماً جديدة أو بالأحرى يعطى للقيم التى وصل اليها من قبل صبغة زاهية قوية .

لكن نيتشه حاول من بعد أن يثبت الفكرة اثباتاً علمياً يقوم على نظريات فى علم الطبيعة . فقال ان مجموع القوى الموجودة فى الكون ثابت محدد.وذلك لأن المسألة لا تتعدى

ثلاثة فروض : فاما أن يكون هذا المجموع يزيد ، واما أن يكون هذا المجموع ينقص ، أو يكون هذا المجموع ثابتاً .

والفرض الأول غير صحيح ، لأنه اذا كان مجموع القوى يتزايد ، فمن أين تجيئه هذه الزيادة ، وليس هنـاك من وجود غير هذا الوجود ؟ فلكى يكون هذا الفرض صحيحاً كان علينا أن نقول بوجود معجزة دائمة ، بها تحدث هذه الزيادة . وهذا ما لا نستطيع مطلقـاً التسليم به ما دمنـا نبحث بحثاً علمياً ، والا خرجنا من دائرة العلم الخالص الى دائرة الأساطير والخـوارق ، وليس الفرض الثانى بأقـل تهافتاً وبطلاناً من الفـرض الأول : لأنه اذا كان مجموع القوى يتناقص ، فلا بد أن تكون قوى الكون كلها قـد نفدت وفنى الكون ، لأنه مر قبل هذا الآن الذى نحن فيه ما لا نهاية له من الزمان . ففى هذه اللانهائية السابقة على اللحظة الحاضرة كانت القوى ، اذا كانت تتناقص ، تكون قد تبددت كلها . ومادامت القوى لم تتبدد كلها ، — فلازلنا نحيا فى الوجود ولا زال هناك وجود — فان مجموع القوى لا يتناقص . وعلى هذا فالقول بأن مجموع القوى الكونية يتناقص قول غير صحيح ، وهو فرض يتناقض مع قانون

لم يبق اذاً بعد هـذا الا التسليم بأن مجموع القـوى الكونية ثابت محدود ، أى أنه متناه . وما دام متناهياً فان « مجموع الأحوال والتغيرات والتركيبات والتطورات التى تحدث فى هذه القوى ، ولو أنه هائل ولا يمكن تقـديره عملياً ، فانه لا بد أن يكون متناهياً هو أيضاً ومحدوداً » .

ولمـا كان الزمان لا نهائياً غير محدود ، فلا بد أن تأتى لحظة من لحظاته ــ مهما كان من طول المدة السابقة عليها والتى مرت فيها الأحداث الكونية الممكنة كلها ــ فيها يعود تركيب سبق وجوده من قبل .

ولمـا كان قانون العلية (بالمعنى العلمى الخالص : وهو تسلسل الحوادث وارتبـاط الظواهر الواحـدة بالأخرى وتتابعها) يقضى بأن يجر هـذا التركيب وراءه التراكيب المرتبطة به ، وهذه بدورها تجر ما هى تابعة لهـا . وهكذا وهكذا ، فان مجموع الظواهر والأحداث سـيتكرر من جديد ، بنفس النظام والطريقة والمقدار الذى وجد فيه فى الدورة السابقة على هذه الدورة الثانية . وهكذا تستمر الحال وتأتى دائمة دورات جديدة لا نهائية ، ما دام الزمان غير متناه .

فالزمان اللانهائى اذاً مكون من دورات ، ولـكل دورة زمانها المحدود ، وكل دورة مماثلة للدورة الأخرى تمام المماثلة .

فالانسان منا اذاً تبعاً لهذه النظرية سيحيا من جديد نفس الحياة التى يحياها الآن ، وسيعانى ما يعانيه ، وسيكون حظه تماماً كحظه الآن . لهذا يقول زرادشت :

« سيأتى يوم فيه تعود من جديد سلسلة العلل التى أنا مشتبك فيها ، وستخلقنى من جديد ! وأنا نفسى سأكون من بين علل العود الأبدى .

« سأعود مع هذه الشمس ، وهذه الأرض ، وهذا النسر ، وهذه الحية ؛ لا من أجل حياة جديدة ، ولا من أجل حياة أحسن ، ولا من أجل حياة مشابهة .

« انما سأعود دائماً أبداً الى نفس هذه الحياة بعينها ، وأنا لا أتغير ، لا فى صغيرة ولا فى كبيرة . سأعود لكى أعلم الناس من جديد نظرية العود الأبدى .

« ولكى أعلن من جديد ساعة الظهيرة الكبرى للأرض وللانسانية ، ولكى أبشر الناس ثانية « بالانسان الأعلى » !

من هو هذا « الانسان الأعلى » ؟

الانسان الأعلى

« الانسان وتر مشدود بين
الحيوان والانسان الأعلى : وتر
على هاوية »

بين الكيف والكمّ خصومة عنيفة شائقة تكوّن جزءاً هاماً من تاريخ الانسانية الروحى . وبينهما على مر العصور نضال شاق يحاول فيه الواحد أن يسود الآخر ، وأن يذهب به من الوجود ان استطاع . وكلٌّ يريد أن يفرض قيمه ، وأن يطبع بطابعه نظرة الناس فى الوجود فى عصورهم التاريخية المختلفة .

فالكيف ينادى بالتفرقة وينكر المساواة ؛ ويؤمن بالفرد ولا يعنيه شيء من المجموع بوصفه مجموع وحدات متساوية أو متشابهة متقاربة . واذا نظر الى الأشياء لم يقوِّم منها الا ما تميزت به وتفردت فيما بين بعضها وبعض . وعنده أن الكومة المكدسة من الرمال لا تساوى كلها أكثر مما تساويه حبة رمل واحدة : لأن الصفة لم تتغير باضافة هذا المجموع الهائل من ذرات الرمال الى هذه الحبة .

والخلاصة أنه يقول بالأرستقراطية ويؤمن بالامتياز .

أما الكم فكل شيء عنده سواء ؛ حتى لو حاولت احدى الوحدات أن تشذ قليلاً ، تغافل عن هذا الشذوذ ، ولم يقم له اى وزن ، ولم يحسب له أى حساب . وتراه ، ان استطاع ، يثور عليها ، ويحاول تقليم أظفارها ، ان هى ألحت عليه مع ذلك وتمردت ، ونبهته الى هذا التغافل والتغاضى المقصود ! ويريد أن يخرج الناس جميعاً فى صورة واحدة ، وأن يطبق عليهم مقياساً واحداً ، حتى لو كانت الصورة وضيعة تافهة ، وكان المقياس ضئيلاً حقيراً . فانتاجه اذاً انتاج بالجملة ، وعلى مثال واحد . وشارته التى يضم أنصاره تحت لوائها هى : « المساواة ! المساواة » ! وصيحة أنصاره فى كل مكان هى : « نحن جميعاً متساوون ، وليس ثمّت أناس أعلى من أناس » . والأخلاق عنده تنحصر مهمتها فى اسعاد المجموع دون اعتبار للفرد ، فتنادى « بأكبر سعادة لأكبر عدد ممكن » ، ولهذا تقوم بعمل حسابات ضخمة طويلة ، وتحطم رأسها بالعمليات الحسابية والجبرية .

والخلاصة أنه يقول بالديمقراطية ويؤمن بالمساواة .

ولعل واحداً من الكتاب يصف لنا يوماً هذا الصراع بين الكم والكيف على مر الزمان ، وما تخلل هذا الصراع من

أحداث وأهوال ، وما حدث فيه من معارك كانت فى بعض الأحيان دموية حافلة بالدماء ، عنيفة صاخبة العنف . وأنا زعيم بأنه سيُخرج لنا من تاريخ هذا الصراع ملحمة رائعة، تثير الكثير من الانفعالات ، وتبعث أشد أنواع العواطف حرارة وأكثرها التهاباً .

وان من أهم معارك هذا الصراع للثورة الفرنسية : فهى ليست فى الواقع الا معركة خاض غمارها فريقان : أحدهما فريق الكمِّ ، والآخر فريق الكيف . وكانت الهزيمة فيها لهذا الفريق الأخير . فقام فريق الكم يفرض ارادته وقيمه على الناس ، ويصيح ملء شدقيه : «المساواة ! المساواة !» ويعلن الغاء الفروق بين الناس ، ويجعل من الأفراد جميعاً حبات رمل فى كومة ضخمة سماها « الشعب » ، لا يعنيه ارتفع مستوى الانسانية كانسانية أم لا ، ولا يحفل بالأفراد الممتازين الأرستقراطيين الذين هم خلاصة الانسانية وهداتها بل وخالقوها وواضعو قيمها العليا ، قيم السادة طبعاً ، لا قيم العبيد . وكل ما يعنيه هو « المتوسط » . فخطته تتلخص كلها فى أن يأخذ « المتوسط » من كل شىء ولينَمْ بعدُ ملءَ جفنيه ! وسادت هذه القيم الجديدة الحياة السياسية والاجتماعية بل والفكرية أيضاً : فأصبحت المقياس لكل شىء فى هذه الأنواع الثلاثة من الحياة .

رأى نيتشه هذه الحال وما تؤدى اليه من هبوط بمستوى الانسانية ، وانتصار لقيم المتوسطين ، وقضاء على الفردية والذاتية . فهب من جديد يحمل لواء قيم الكيف كى يعيد للأرستقراطية ما كان لها من مكانة ، ثم يطالب بخلق أرستقراطية جديدة أعلى بكثير جداً من الأرستقراطية القديمة ، ويدعو الانسانية الى العلاء بنفسها شيئاً فشيئاً حتى تخلق طابعاً جديداً من الانسانية ، أستغفر الله ، بل فوق الانسانية وأعلى منها وان كان قد قام على أكتافها وارتفع من فوق هامتها . وهذا الطابع الجديد هو « الانسان الأعلى » . ثم مهد لهذا بالاشادة « بالفردية » ، لأنها شرط لخلق هذه الأرستقراطية .وأراد من هذا كله أن يعيد نظام التصاعد ، أى جعل الناس فى طبقات ، يرتفع بعضها فوق بعض درجات : « أرانى مدفوعاً ، فى عصر التصويت العام ، أى العصر الذى يخوِّل لكل انسان أن يقف موقف القاضى من كل واحد ومن كل شىء ، أقول : أرانى مدفوعاً الى اعادة نظام التصاعد الى عرشه من جديد» بعد أن قضى على هذا النظام بفعل أنصار الكم ، وكانت النتيجة لهذه « المساواة » المخيفة التى نادوا بها أن أصبح كل امرىء يعتقد أن له الحق فى الحكم على كل مسألة والفصل فى كل مشكلة . فازاء هذا كله « كان لا بد للناس الممتازين أن يعلنوا الحرب على العامة والمجموع ! ففى كل

مكان يضم المتوسطون بعضهم الى بعض ، ويجمعون شملهم ، كى يجعلوا من أنفسهم سادة . وكل ما يخنث ويلين ويرفع من شأن ما هو « شعبى » أو « نسوى » يعمل لصالح « التصويت العام » ، أى سيطرة المنحطين من الناس وسيادتهم . لكنا نريد أن ننتقم وأن نفضح هذه التجارة (التى ابتدأت فى أوربا مع المسيحية) ونقاضيها » .

فقام نيتشه يدعو أولاً الى الفردية ، أى تقديم الفرد على المجموع ما دام الفرد ممتازاً ، وطبع الحياة كلها وجميع القيم ، وبخاصة الأخلاقية منها ، بطابع الفردية والذاتية . فالأخلاق التى وضع قيمها تسلب الانسان طابعه العام شيئاً فشيئاً لكى تميزه وتخصصه . ولكن ليس معنى الفردية هنا أن يُترك الشخص لهواه يتصرف كيف شاء وكما يلذ له.فمثل هذه الفردية ينكرها نيتشه كل الانكار. وهى الفردية التى قال بها السفسطائيون ، مما أدى بالبعض الى القول بأن الأخلاق عند نيتشه تشبه الأخلاق التى نادى بها السفسطائيون . لكن هؤلاء فى هذا الزعم جد مخطئين . ذلك لأن السفسطائيين يضعون قيمة الشىء بالنسبة الى الشخص مكان قيمته الموضوعية ، أما نيتشه فليس للشخص عنده أهمية ، الا اذا كانت له قيمة موضوعية : « فهؤلاء يقيسون الأشياء الخارجية الموضوعية بمقياس شخصى

ذاتى ، أما هو فيقيس الذاتى بمقياس موضوعى » ، كما لاحظ جورج زمّل فى بحثه عن نيتشه .

نعم ان نيتشه لا يجعل الفرد فى خدمة « شىء » ، بل يظل الفرد عنده صاحب القيمه هو وحـــده . لكن المسالة لا تتوقف على وجوده وسلوكه بالنسبة الى نفسه ، انما على أهميتها من وجهة نظر التطور الانسانى ورقى الانسانية . فالانسانية عند نيتشه ليست شيئاً خارج الفرد ، ولكنــها تحيا فى الفرد وحده ؛ ومع ذلك فانها هى التى تعطى الفرد مقياس قيمته . فعند السفسطائيين لا يجد الشخص فى نفسه غير نفسه فحسب ، أما عند نيتشه فان الشخص يجد نفسه بوصفها تقدماً للانسانية أو تأخراً ، رقياً أو انحطاطاً : وعلى حسب درجة هذا التطور فىالانسانية عند الفرد تقاس قيمته. وظاهر من هذا أن المقياس ليس مقياساً شخصياً ذاتياً ، بل هو مقياس موضوعى .

فليس الفرد اذاً فى نظر نيتشه هذا الشخص المنفرد المنعزل عن تطور الانسانية ــ وانما هو الفرد الذى تحيــا فيــه الانسانية ، وفى غيره لا يمكن أن تحيا ، وبرقيها والمستوى الذى تصل اليه تقاس قيمتــه . فالفرد عنــده اذاً يغوص فى أعماق الانسانية بتاريخها كله ، ويدرك ذاته بحسبانهــا

جزءاً من نسيج الانسانيـــة الحى ، الذى هو حقيقتهــا التاريخية . ولهذا تراه يقول : « نحن أكبر من الفـرد : نحن أيضاً كل السلسلة (الانسانية) ، مع كل ما لهـذه السلسلة من واجبات فى مستقبل الأزمان » .

وقيمة الفرد بالنسبة الى نفســه هى فى أن يكون بذاته فى مستوى عال من الوجود . أما عن قيمتــه بالنسبة الى الجماعة لا تنظر اليه من ناحيــة قيمته الذاتيــة ، انما من ناحية ما يقوم به من أفعال ولا يعنيها منه الا ما يقـدمه لها من عمل : أما هو فى ذاته فلا يعنيها منه شىء ، أو اذا عناها منه شىء ، فذلك من حيث أن هذه الذاتية ضـمان لأن يسير فى أفعاله فى اتجـاه معين محـدود تستطيع أن تعرفه . فسموه وعلوه على ذاته وعلو حياته على نفسها ، كل هذا لا يعنى الجماعة . ومن الاختلاف فى وجهتى النظر بين الفرد بالنسبة الى نفسه والجماعة بالنسبة الى الفرد ، ينشأ التعارض بين الاثنين مما يؤدى الى نزاع من النــوع الذى تحدثنا عنه فى بدء هذا الفصل . لكن الفرد الممتــاز لايحفل بالجماعة ، ان كان فى هــذا ما يتنافى مع ســموه الذاتى ، ويبتعد عنها ، ان كان فى هــذا الابتعاد شىء" من مقتضيات الأرستقراطية والامتياز : « ان سمو طبيعة الرجل العظيم هو فى كونه شيئاً متمايزاً ، وفى محافظته على البعد

الذى تقتضيه درجته ـ وليس فى أى عمل من الأعمال : حتى لو زلزل الأرض بأسرها » .

فالفردية اذاً بمعنى المحافظة على الفروق الطبيعية الموجودة بين الأفراد ، والشعور بالذاتية شعوراً قوياً ، وبأنها متمايزة من غيرها من الذاتيات الأخرى ، هى أول ما يجب الحرص عليه ، وعلى ما تقتضيه .

وأول نتيجة من نتائج الفردية هى جعل الناس فى طبقات بعضها فوق بعض حسب سموها ، وما وصلت اليه فى سلم الرقى الانسانى . فلا نحاول اذاً أن نحقق المساواة بين جميع الناس ، فهذه المساواة ليست الا أكبر أكذوبة فى وجه طبيعة الوجود . ولنحافظ على ما بين الناس من فروق فى الجوهر والطبيعة ، فهذه المحافظة وحدها هى الضمان لسمو الانسانية وتعاليها .

وما دمنا نقول بالتميز والتفرقة، ونؤمن بنظام التصاعد، فان القيم الجديدة التى نضعها لا تتجه كلها الى الناس جميعاً على السواء ، بل لكل درجة من درجات هذا النظام قيمها الخاصة بها .

فما هى هذه القيم الجديدة ؟

ليست الغاية من القيم التى نضعها للانسانيــة أن توفر لها السعادة أو اللذة أو المنفعة أو ما شاكل هذه الغــايات الهينة التافهة ، فهذه الأشــياء لا تستحق أن تطلب غاية ، لأنها كلها تتحدث عن اللذة والألم وهما شيئان ثانويان ، لا أوليان ، وتابعان ، لا أصليان ؛ « وكل فرد يشعر شعوراً قوياً بما لديه من قوى خالقة لا يمكن أن ينظر اليهــا دون أن يحتقرها ، ودون أن يرثى لها أيضاً » ، وانما يجب على القيم التى نضعها أن تعمل على السمو بمستوى الانسانية ، والارتقاء بها فى سلم العلاء على الحياة ، حتى نصــل الى خلق نوع جديد ، لا أقول من الانسانية ، وانما ممن هم فوق الانسانية ، فالانسان الحالى أو الانسان عامة لا قيمة له فى ذاته وانما قيمته فى أنه وسيلة الى خلق هذا النــوع الممتاز . ولهذا يقول زرادشت مخاطباً الشعب المتجمع :

« اننى أدعوكم بدعوة « الانســان الأعــلى » . فان الانسان شىء يجب أن يعلى عليه . فماذا عملتم من أجــل العلاء عليه ؟

« كل الكائنات حتى الآن قد خلقت شيأ أعلى منهــا : فهل تريدون أنتم أن تكونوا جزراً لهــذا المد العظيم ، وتفضلون الرجــوع الى الحيوانيــة عــلى العلاء عــلى الانسانية ؟!

« ما القرد بالنسبة الى الانسان ؟ أضحوكة وعار مؤلم . وهكذا يجب أيضاً أن يكون الانسان بالنسبة الى الانسان الأعلى : أضحوكة وعاراً مؤلماً . . .

« ان الانسان الأعلى معنى الأرض . وعلى ارادتكم أن تقول : ليكن الانسان الأعلى معنى الأرض . . .

« الحق أن الانسان نهر نجس . ولا بد للمرء أن يكون محيطاً كى يستطيع أن يضم فى جوفه نهراً نجساً ، دون أن يتدنس .

« فأنا أدعوكم بدعوة الانسان الأعلى : فانه هذا المحيط » .

فالغاية من الانسانية اذاً هى خلق هذا الانسان الأعلى . ومن أجل هذا كان لابد للقيم الجديدة التى نضعها أن تكون عاملة على ايجاد هذا النوع ، مهيئة لظهوره .

وأول ما يمهد لوضع هذه القيم أن يكون الانسان حراً قد حطم كل القيود ، وبدد كل « هذه الأوهام الثقيلة الخطيرة التى أتت بها المذاهب الأخلاقية والدينية والفلسفية » ؛ ولم يعد يؤمن بالقيم التقليدية وانما « يحلق

تحليقاً حراً دون خوف ولا وجل فوق الناس والأخــلاق والقوانين والتقويم التقليدى للأشياء » . وهذه الحــال تقتضى من الانســان أيضــاً « ألا يظل متعلقــاً بشخص ما من الأشخــاص : حتى لو كان هــذا الشخص أحب الأشخاص لديه وآثرهم عنــده ، ــ فكل شخص سجن ؛ وألا يستمر متعلقاً بوطن معين . . ولا بأى نوع من أنواع الشفقة والعطف ... ولا بفضائلنا ، وأن لا يكون ضحية لأية جزئية من جزئياتنا بوصفه هو كُلاًّ » . لأن الانسان فى الأخلاق الجديدة ــ ولنسمه الانسان الممتــاز ــ فوق كل تقويم ، وكل قانون وكل ما يعتقده عامة الناس . ولايعنيه قال الناس عن هذا الشىء انه خير ، وقالوا عن الآخــر انه شر . لأن مهمته الرئيسيــة أن يكون « خالقــاً للقيم » ، يضع للأشــياء من القيم ما يريد ، مما يؤدى الى تحقيق الغاية من الانسانية ، وهى الغاية التى حددناها منذ حين . فهو حر كل الحرية فى أن يضع شرعة القيم التى يرتئيها ، ان فى الأخلاق والسياسة وفى الفلسفة : « ان الانسان الممتاز هو الذى يحدد معتقدات العصر بأكمله ، ويعطى للحضارة صورتهــا ، ويخلق القيم فى حرية تامة ، غير آبه للخــير والشر ، والحق والبــاطل : فهو يخلق أخلاقه هو والحق عنده هو » ، أى أن الأخــلاق التى يضع قيمهــا ، والحق

الذى يحدد شروطه ، انما من صنعه هو ، ولا يتلقاهما من أى مصدر آخر .

فاذا ما تحرر من هذه القيود كلها فليعتمد على نفسه وحده : « والآن وقد أعوزك كل هاد ومرشد ، فعليك أن تفهم أنه يجب عليك أن تصعد من فوق رأسك أنت » . وليقم بالنضال وحده ، باحثاً فى كل حين عن قيم جديدة ، مخاطراً بنفسه من أجل اكتشاف هذه القيم ، ثم فرضها من بعد على الناس . وليس للناس من حق عنده الا تقديم هذه القيم اليهم ، وفرضها عليهم فرضاً . وليس عليهم هم الا أن يطيعوه . فالطاعة أول فضيلة لمن لا ينتسبون الى طبقة الممتازين . وهذه الطاعة هى لهؤلاء ولقيمهم ، وليست لشىء آخر .

لكن هذه الحرية ليس معناها السير على الهوى ، وترك العنان للحياة تسير كما تشاء أن تسير . وانما « الحرية معناها أن لا يأبه الانسان للعناء والقسوة والحرمان ، بل والحياة نفسها ، وأن تكون لغرائز الرجولة والنضال وحب الظفر ، السيادة على الغرائز الأخرى ، مثل غريزة السعادة » . فالراحة والنعيم والهناء ، كل هذه القيم التى يقدسها الناس اليوم بغيضة اليه ثقيلة عليه . وانما هو

رجل نضال دائم من أجل السيطرة والغزو والظفر ، لا يعنيه الا أن يسير قدماً نحو الغاية التى وضعها لنفسه : « ان البطولة هى مذهب الرجل الذى يناضل سعياً وراء غاية محدودة لا يمكن مقارنته بها » لأنها أعلى منه .

ولهذا فان أبغض شىء اليه السلام والهدوء وروح المسالمة . والحرب عنده أقدس شىء . قال زرادشت ناصحاً هؤلاء الرجال الممتازين :

« ستبحثون سعياً وراء عدوكم ، وستناضلون نضالكم ، وتجاهدون من أجل أفكاركم ! فاذا هزمت أفكاركم ، فان على اخلاصكم أن يسر لهزيمته !

« وستعشقون السلام كوسيلة لحروب جديدة ، وستفضلون السلام القصير على السلام الطويل .

« ولست أنصحكم بمزاولة الأعمال . ولست أوصيكم بالسلام ، ولكن بالظفر والانتصار . فليكن عملكم اذاً نضالاً ، وسلامكم انتصاراً ! ...

« أنتم تقولون ان القضية الجيدة تقدس الحرب ؛

أما أنا فأقول لكم : انها الحرب الجيدة هى التى تقدس كل قضية » .

وليس لديه الا غرض واحد هو أن ينتصر ويسود . ولتكن الوسائل بعدُ ما تكون ؛ ولتكن الضحايا التى يتركها على الطريق ما تكون . فهذا كله لا يعنيه من أمره شيء . وكل الذى يعنيه هو أن يكون سيداً يفرض من القيم على الناس ما يريدُ . فكل وسيلة ما دامت توصل الى هذا الغرض جيدة شريفة ، لأن الجودة والشرف ليسا فى الأشياء ، بل هما قيمتان يضعهما هو بنفسه ، فلا محل حتى للتحدث عنهما بالجودة والشرف أو الرداءة والنذالة ، فله وحده الحق فى أن يتكلم هذا الكلام . اذ ليس هناك شرف فى ذاته ولا خير من أجل الخير ، انما كل شيء تابع لارادة القوة ، بها يقاس ، وبمقدارها تحدد قيمته : فكل ماأوصلها الى تحقيق غرض من أغراضها فى الغزو والسيطرة والسيادة والاخضاع ، وكل ما يزيد فى الحياة بأن يعلو بها ويجعلها أكثر خصباً ونماءً وثراءً وامتلاءً ، كل هذا هو الخير وعلى أساسه توضع القيم وتصاغ اللوائح ؛ وهو من أجل هذا أبعد الناس عن أن يخضع لقواعد المجتمع وما يسوده من قوانين ، فتلك لم توضع الا لطبقة أخرى غير طبقة الممتازين .

ومن أجل هذا كله يريد أن يحيا حياة الخطر ، ولابد له فى كل حين أن يحيط به الخطر من كل جانب : فاذا لم يأت اليه ، فليتقدم هو من تلقاء نفسه ؛ واذا لم يجده ماثلا فيما حواليه ، فليخلقه خلقاً . فهو يسير على هذه القاعدة السامية الممتلئة حكمة وقداسة : « كى تجنى من الوجود أسمى ما فيه ، عش فى خطر ! » ولا تحسبنّ أن الرجل المحفوف بالخطر من كل ناحية رجل غير حر ، بل العكس هو الصحيح ؛ فالخطر الجاثم هو الذى يجعل الانسان حراً : « على الانسان أن يبحث عن أسمى نوع من الرجال الأحرار هنالك حيث يُنتصر على أكبر مقاومة . . . ؛ فالخطر الكبير يجعل منهم شيئاً يستحق التقديس والاجلال » . وزرادشت يعجب باللاعب على الحبل ، ويحبه أشد الحب ، لأنه يجعل من الخطر مهنة له وحرفة .

وهو يبغض الشفقة أشد البغض ، ويشمئز من منظرها كأنها جيفة . فيقول : « ان الشفقة فضيلة المومس » ؛ ويقول مع شاعر الأساطير الشمالية القديمة : « ان ڤوتان (كبير الآلهة فى هذه الأساطير) قد وضع فى صدرى قلباً قاسياً » . فهو قاس كل القسوة على نفسه وعلى الناس : « يجب عليك القسوة ! فعن هذا الطريق وحده يرتفع الانسان الى أعلى ، حيث يقابله البرق ويحطمه : فلترتفع الى البرق ارتفاعاً

كافياً » . وذلك لأنه يرى أن القسوة أعظم شيء يؤدى الى تقوية الانسان وتربيته على القيام بالخطير من الأعمال والاقدام على أشد المخاطر ، هذا بالنسبة الى نفسه . وبالنسبة الى الآخرين : لا شيء أخطر على المجتمع من الشفقة على المنحلين والضعفاء والعاجزين : لأن الشفقة تقوم عقبة فى سبيل قانون الانتخاب الطبيعى الذى يقضى بألا يبقى غير الصالح للحياة الجدير بالبقاء . والطبيعة تبعاً لهذا القانون تحاول افناء كل الكائنات الضعيفة المنحلة الفاشلة وابادتهم من الوجود . أما نحن فنريد اعتراض سير الطبيعة نحو التطور الأعلى ونريد أن نحيل العالم الى ملجأ للعجزة والمنحلين ! « ألا ان الشفقة لمناقِضة" للقوى الحيوية التى ترتفع بقوة الشعور بالحياة : فهى اذاً تؤثر تأثير انحلال واضعاف . فان الانسان يفقد قواه ، حين يشعر بالشفقة (نحو الآخرين أو نحو نفسه) ؛ وعن طريق الشفقة يزداد فقدان القوة الذى سبّبه الألم فى الحياة من قبل ؛ ويصبح الألم معدياً » .

وهو اذا أعان البائسين فلا يعينهم شفقة بهم ورحمة ، وانما من أجل تصريف ما عنده من قوى فياضة زاخرة ؛ ولكى تلعب ارادة القوة دورها بأن يحس المرء بقوته وقدرته وفيض حيويته ، وسلطته على الآخرين .

وأهم من هذا كله الشعور بالمسئولية أمام نفسه . فلا بد له من أن يكون قوىَّ الشعور بالمسئولية عن كل ما يقوم به من أعمال ومخاطر من أجل السمو بالحيــاة والسير فى الطريق الى الانسان الأعلى وهو لهــذا يستطيع وحده أن يتحمل نظرية العوْد الأبدى : لأن هــذه النظرية تجعــل مسئولية المرء أضخم ما يكون ، اذ على أعماله لا تتوقف حياته هــو فحسب ، بل مستقبل الدنيــا بأسرها على مر الزمان . فهو مسئول أمام نفســه أولاً لأنه سيحيا هذه الحياة التى يحيــاها الآن مرة ومرات وما لا نهــاية له من المرات من جديد . فالمسئولية مضاعفة اذاً لأنهــا لا تتناول عملاً مضى مرة واحدة ولن يعود ، بل تتناول عملا سيعود مرات ومرات . وبقدر هذه المرات ، وهى لا نهائية ، تكون المسئولية .

ومن هنا تظهر الأهمية الكبرى التى وجــدها نيتشه فى هــذه النظرية . فقيمتها ليست فى أنهــا تستطيع أن تفسر الوجود بالزمان ، وأن توفق بين الوجود الساكن والوجود المتغير السائل ، بقدر ما هى فى آثارها الأخلاقية : من ناحية صلة الانسان بالوجود . فأول أثر لها من هذه الناحية أثر مخيف سريع : « آه ! يعود الانسان من جديد الى الأبد ! الرجل الحقير يعود من جــديد الى الأبد ! ... ان هــذا

ليحملنى على اليأس من الوجود ! » فبازاء هـذه النظرية يشعر الحقير من الناس والمتوسطون منهم بيأس قاتل وقنوط مثلح يحملهـم على التشاؤم من كل شىء . وهيهـات أن يتشاءموا ، فسيرتد عليهم هـذا التشاؤم مرة أخـرى من جديد ! انها لنظرية تدفع بهؤلاء الى الجنون . فالانسان فى واقع الحياة يشعر بسلوى ما بعدها سلوى حين ينسى الأشياء وحين يبتلعها المـاضى ، لأنه يعلم أنها ذهبت بشرها أو حتى بخيرها ، الى غير رجعة . أما و كل شىء سيرجع من جديد وسيحيا الانسان ماضيه مرة أخرى ، بل مرات ومرات ، فما أبأس الانسان المتوسط اذاً !

لكن الرجل الممتاز ، على العكس من ذلك ، يتخذ من هذه النظرية قوة ضخمة جديدة . فهى أولاً تجعل واجبه نحو الحياة سامياً كبيراً ، لأنها تأمره بأن يحيا على نحو يود معه لو حيّ هذه الحياة التى قضاها ، من جديد . وهـذا مقياس لقيم الأعمال والأحوال الانسانية . فعليه أن يتصور كل شىء من ناحية الخلود واالأبدية ؛ وتصور الأشياء من هذه الناحية يدعوه ألا يفعل شيئاً الا اذا كان هذا الشىء مما يستحق الخلود ومما يستحق أن يفعل مرة أخرى وعدة مرات . ويكفى هذا التصور لكيلا يقوم الانسان الا بأجل الأعمال وأحراها بالتكرار وأخلقها بالاستمتاع بها منجديد.

ثم هى تجعل شعور الانسان أقوى وأعظم ، وهى تحمله على الاقبال عليها وفتح صدره لها لكى يعانق كل ما فيها ويحظى بأسمى ما تقدمه اليه ، وهذا بدوره يحمله على العلاء بحياته الى أعلى درجة مستطاعة ، والصعود بها فى سلم التعالى درجات فوق درجات بسرعة هائلة . فالعود الأبدى يجعل الحياة والعمل يحاولان الوصول الى أعلى درجة فى القدرة الوصول اليها ، كى يحقق المرء أسمى ما يستطيع تحقيقه ، لأن « ماكان » أبدى ، يعود من جديد. فالماضى أحياه حياة أخرى ؛ والحاضر أحياه ، لا بوصفه لحظة عابرة تنقضى فى الحال ، ولكن بوصفه أبدأو زماناً خالداً . فكأن الانسان اذاً يستطيع عن طريق نظرية العود الأبدى أن يحيا كل لحظة . وليس هناك من حل لمشكلة الزمان أعظم من هذا الحل . لأن فى هذا التكرار معنى الخلود الانسانى ، وهو أقصى ما تطمح فلسفة الزمان الى الوصول الى تحقيقه ، وان كان فيه الغاء لمعنى الزمان بوصفه ماضياً وحاضراً ومستقبلا ، لأن هذه النظرية تمزج الجميع ، وتجعل منها تجربة روحية واحدة يحياها المرء فى نفسه .

فحب الحياة اذاً يزداد الشعور به الى أقصى حد متى آمن المرء بهذه النظرية ، وكان فرداً ممتازا حقاً . كما أن

الخوف من الموت يزول نهائياً ما دامت هذه الحياة نفسها ، وهى حياة حافلة بالنسبة الى الفـرد الممتاز ، سـتعود من جديد . فهو يقول للموت كما قال زرادشت له : « أهذه هى الحياة ؟ اذاً هاتها مرة أخرى ! » فالموت اذاً لا خوف منه ما دام المرء قد ضمن الخلود عن طريق نظرية العـود الأبدى . ولهذا يكرر زرادشت هذه العبارة عدة مرات فى الجزء الثالث ، وهو ينشد « أنشودة الألف واليـاء » أو « أنشودة الخواتم السبعة » :

« آه ! كيف لا أكون ولهان بالخلود ، كلفاً بخاتم الخطبة خاتم الخواتم ، خاتم الصيرورة والعود ؟

لم أجد مطلقاً المرأة التى أريد أن يكون لى منها أولاد ، اللهم الا هذه المرأة التى أحبها :

لأنى أحبك ، أيها الخلود ! » .

لوحة حياته

عهد الطلب :

١٥/١٠/١٨٤٤	: ولد فى ريكن (بالقرب من لتْسِن) بمقاطعة سكسونيا ابناً لأحد القساوسة
١٨٤٩	: توفى والده القس كارل لدفج نيتشه
١٨٥٠	: انتقال الأسرة الى ناومبرج
١٨٥٨ – ١٨٦٤	: دخل مدرسة الشولپفورتا بالقرب من ناومبرج فى أكتوبر سنة ١٨٥٨ ، وظل بها حتى ٧/٩/١٨٦٤
١٨٦٠ – ١٨٦٣	: دخوله فى الجمعية الأدبية : «جرمانيا»
١٨٦٤ – ١٨٦٥	: كان طالباً بجامعة بون (فصلين دراسيين فى الفيلولوچيا واللاهوت) وتلميذاً لرتشل ويان
١٨٦٥ – ١٨٦٧	: فى جامعة ليپتسج (أربعة فصول دراسية فى الفيلولوچيا) ، وكان فيها تلميذاً لرتشل ، وفى سنة ١٨٦٦ بدأت صلات الصداقة بينه وبين روده
١٨٦٧ – ١٨٦٨	: قضى مدة الخدمة العسكرية فى ناومبرج

١٨٦٨ – ١٨٦٩ : ليپتسج . وفى خريف سنة ١٨٦٨ تعرف الى رتشرد ڤجنر فى ليپتسج

عهد الأستاذية :

١٨٦٩ – ١٨٧٩ : صار أستاذاً مساعداً للفيلولوچيا القديمة فى جامعة بازل فى فبراير سنة ١٨٦٩ قبل حصوله على الدكتوراه

١٨٦٩ : صداقته مع يعقوب بوركهرت ؛ وفى ٢٨ مايو ألقى درس الافتتاح عن «هوميروس والفيلولوچيا القديمة»

١٨٦٩ – ١٨٧٢ : زياراته لڤجنر فى تربشن بالقرب من لوتسرن ؛ وفى مارس سنة ١٨٧٠ صار أستاذاً

من أغسطس الى أكتوبر ١٨٧٠ : ممرّض متطوع فى حرب السبعين ؛ وفى أكتوبر عاد الى بازل ، وفيها تعرف الى أوفربك

١٨٧٢ : حضر حفلة وضع الحجر التأسيسى لمسرح بايرويت فى مايو

١٨٧٥ : تعرفه الى كيزلتس (پيتر جاست)

١٨٧٦ : أقيمت الحفلات الموسيقية الأولى فى بايرويت . وتعرف الى ريه

١٨٧٦ – ١٨٧٧ : سنة اجازة . وفى سورنته عرف ملفيدا
فون ميزنبوج . آخر حديث له مع ﭬجنر .
١٨٧٨ : نهاية العلاقات بين ﭬجنر ونيتشه . فى ينـاير :
أوپرا « پرسيفال » الى نيتشه ؛ فى مايو أرسل
« انسانى ، انسانى جدا » الى ﭬجنر .
١٨٧٩ : اسـتقالته من التدريس بسبب المرض ، وقضى
الشتاء فى سورنته مع ريه وملفيدا .
عهد التنقل :
١٨٧٩ – ١٨٨٩ : صار أستاذاً على المعاش، يتنقل شارداً:
ومن سـنة ١٨٨٣ الى سـنة ١٨٨٨ كان يقضى
الشـتاء فى نيس والصيف فى سـلزماريا ، وفى
الربيع والخريف يتنقل بين عدة أماكن منها البندقية
التى كانت أحب البلاد اليه . وفى سنة ١٨٨٨ أقام
فى تورينو
١٨٧٩ : فى ﭬيزن ، وسان مورتس ، وناومبرج ؛ وأصيب
بمرض خطير ؛ وترك كرسى الأستاذية فى بازل .
١٨٨٠ : فى ناومبرج ، وريڤا ، والبندقيـة ، وماريناباد ،
وناومبرج ، واستريزا ، وجنوة .
١٨٨١ : فى جنـوة ، وريكوارو ، وسلزماريا ، وجنـوة
(وفيها يسمع أوپرا « كارمن » لبيزيه) .

١٨٨٢ : فى جنوة ، ومسينا ، وروما ، ولوتسرن ، وبازل، وناومبرج ، وتاوتنبرج ، وناومبرج مرة أخرى ، وليپتسج ، ورپلو . وفى مارس سافر الى صقلية ومن اپريل حتى نوفمبر سنة ١٨٨٢ : كانت صلاته مع لو سالوميه .

١٨٨٣ : فى رپلو ، وجنوة ، ونيس التى قضى بها أول شتاء له فيها،وفى ١٣ فبراير سنة ١٨٨٣ توفى ڤجنر

١٨٨٤ : فى نيس ، والبندقية ، وسلزماريا ، وتسوريش ، ومنتونا ، ونيس مرة أخرى

وفى أغسطس زاره هينرش فون اشتين فى سلزماريا،وفى سبتمبر التقى بالشاعر كلر

١٨٨٥ : فى نيس ، والبندقية ، وسلزماريا ، وناومبرج ، وليپتسج ، ونيس

١٨٨٦ : فى نيس والبندقية ، وليپتسج ، (آخر مقابلة له مع ارڤن روده) وسلزماريا ، وروتا ، ونيس

١٨٨٧ : فى نيس ، وكانو بيو ، وتسوريش ، وكور ، وسلزماريا ، والبندقية ، ونيس

١٨٨٨ : فى نيس ، وتورينو ، وسلزماريا ، ونورينو — محاضرات براندس عن نيتشه فى جامعة كوبنهاجن بعنوان : « الفيلسوف الألماني فريدرش نيتشه »

١٨٨٩ : تورينو
وفى يناير أصيب بالجنون ، وأقام فى مستشفيات بازل وبينا
١٨٩٠ : فى ناومبرج عند أمه
١٨٩٧ : وفاة أمه وعناية أخته به فى ڤيمار
١٩٠٠ : وتوفى نيتشه فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٠٠ فى ڤيمار.

مؤلفاته

١٨٥٨ – ١٨٦٨ : «مؤلفات الشباب» Jugendschriften
نشرت بعد وفاته)
١٨٦٦ – ١٨٧٧ : « أبحاث فيلولوجية » Philologika
١٨٦٩ – ١٨٧٢ : « مؤلفاته عن اليونان » (نشرت فى ج ٩ من مجموع مؤلفاته) و « حول مستقبل منشئاتنا التعليمية »
Ueber die Zukunft unserer Bildungsanstalten
(نشرت بعد وفاته)
١٨٧٠ – ١٨٧١ : « نشأة المأساة عن روح الموسيقى »
Die Geburt der Tragödie aus dem Geiste der Musik
(أول ما ظهر سنة ١٨٧٢)
١٨٧٢ – ١٨٧٥ : « الفلسفة فى عصر المأساة عند اليونان »

Die Philosophie im tragischen Zeitalter der Griechen (نشر بعد وفاته)

١٨٧٣ : «تأملات فى غير الأوان»،ج ١ : «داڤيد اشتروس»
Unzeitgemässe Betrachtungen : David Strauss
(أول ما ظهر فى أغسطس سنة ١٨٧٣)

١٨٧٢ – ١٨٧٤ : « تأملات فى غــير الأوان » ، ج ٢ :
« فوائد التاريخ للحياة ومضاره » Vom Nutzen und Nachteil der Historie für das Leben
(أول ما ظهر فى فبراير سنة ١٨٧٤)

١٨٧٤ : «تأملات فى غير الأوان» ، ٣ : «شوپنهور المربى»
Schopenhauer als Erzieher (ظهر سنة ١٨٧٤)

١٨٧٥ : « نحن الفيلولوجيــين » Wir Philologen
(نشر بعد وفاته)

١٨٧٥ – ١٨٧٦ : « تأملات فى غــير الأوان » ، ج ٤ :
« رتشرد ڤجنر فى بايرويت » Richard Wagner in Bayreuth (ظهر سنة ١٨٧٦)

١٨٧٥ – ١٨٨١ : المجلد الحادى عشر من مؤلفاته : من عهد « انسانى ، انسانى جداً » و « الفجر »

١٨٧٦ – ١٦٧٨ : «انسانى،انسانى جداً» Menschliches, Allzumenschliches (ظهر فى مايو سنة ١٨٧٨)

١٨٧٨ – ١٨٧٩ : «أمشاج من الآراء والأمثال»

Vermischte Meinungen und Sprüche (ظهــر فى مارس سنة ١٨٧٩)

١٨٧٩ : «الرحالة وظلـه» Der Wanderer und sein Schatten (ظهر فى ديسمبر سنة ١٨٧٩)

١٨٨١ ـ ١٨٨٦ : المجلد الثانى عشر من مجموع مؤلفاته: من عهد «العلم المسرور» و «زرادشت» (نشر بعد وفاته)

١٨٨٠ ـ ١٨٨١ : «الفجر» Morgenröte (نشر فى يوليو سنة ١٨٨١)

١٨٨١ ـ ١٨٨٢ : « العلم المسرور » جـ ١ ــ ٤ Fröhliche Wissenschaft (نشر فى سبتمبر سنة ١٨٨٢)

١٨٨٣ : فى فبراير الجزء الأول من «زرادشت» Also sprach Zarathustra (نشر فى مايو سنة ١٨٨٣)
وفى يونيو ويوليو الجزء الثانى من « زرادشت » (نشر سنة ١٨٨٣)

١٨٨٤ : فى يناير الجزء الثالث من « زرادشت » (نشر سنة ١٨٨٤)

١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ : الجزء الرابع من « زرادشت » (نشر سنة ١٨٩٢)

١٨٨٣ ـ ١٨٨٨ : المجلدات الثالث عشر الى السادس

عشر ومن بينها : « إرادة القوة » Der Wille zur Macht (نشر بعد وفاته)

١٨٨٥ — ١٨٨٦ : «عبر الخير والشر» Jenseits von Gut und Böse (نشر سنة ١٨٨٧)

١٨٨٦ : « مقدمات » Vorreden (نشر سنة ١٨٨٧) ؛ « العلم المسرور » جـ ٥ (نشر سنة ١٨٨٧)

١٨٨٧ : « نسب الأخلاق » Genealogie der Moral (نشر في نوفمبر سنة ١٨٨٧)

١٨٨٨ : «قضية ڤجنر» Der Fall Wagner (نشر سنة ١٨٨٨)

«شفق الآلهة» Götzendämmerung (نشر في يناير ١٨٨٩)

«عدو المسيح» Der Antichrist (نشر سنة١٩٠٢)

«نيتشه ضد ڤجنر» Nietzsche contra Wagner (نشر سنة ١٩٠١)

« هذا هو الانسان » Ecce homo (نشر سنة ١٩٠٨)

١٨٨٤ وما يليها : « مدائح ديونيزوس » Dionysosdithyramben

فهرس الاعلام

فهرس الكتـــاب

عصر مضطرب

تحطيم الاصنــام

SOMME DE LA PENSEE EUROPEENNE

Série : *LES PHILOSOPHES*

— I —

NIETZSCHE

Par

'ABDURRAHMAN BADAWI

الناشر

وكالة المطبوعات

٢٧ شارع فهد السالم - الكويت